﴿الجـــزء الثالث﴾

من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيـد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون أن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية رضي الله عنه واليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون في أول ملوكهم القائم بامر الله مثلا هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن اسمعيل بن قاسم ابن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجلماسة يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب قالوا والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا فقيل لهم لو أتيتم بشريف الى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم وقد كان أهل سجلماسة جاؤا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة ظريفة تأتي في محلها ان شاء الله قالوا فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لأهل سجلماسة فعادت عليهم بركته (واعلم) أن هذا النسب الشريف المسرود آنفا فيه كما قال اليفرني بتر بين قاسم ومحمد النفس الزكية فانه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم وانما هو قاسم بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية ولعله سقط عن ذهول من الناسخ وقيل الصواب أنه قاسم بن حسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية (واعلم أيضا) أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة في أخبارهم ومن الناس من يطعن في ذلك ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقري صاحب نفح الطيب وانه صحح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا النقل ضعيف لان الشيخ المقري صرح في نفح الطيب

بشرف

بشرف هؤلاء السادة فى غير موضع وهو من آخر ما ألف ومن طعن فى نسبهم المولى محمد ابن الشريف السجلماسى أول ملوك السادة العلويين صرح بذلك فى بعض الرسائل التى كانت تدور بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها وقد اعتمدنا فى ذلك يعنى فى عدم شرفهم على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم الا من بنى سعد بن بكر اهـ ﴿ويحكى﴾ شائعا عن الفقيه الورع المولى أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر السجلماسى وكان من أهل الصلاح والدين أنه كان ذات يوم جالسا مع المنصور السعدى فى بعض قصوره من حضرة مراكش وهما مجتمعان على خوان طعام فقال المنصور للشيخ أبى محمد أين اجتمعنا يا فقيه يعنى فى النسب فقال أبو محمد على هذا الخوان وروى فى هذا المشور فأسرها المنصور فى نفسه ولم يبدها له الى ان احتال عليه بما كان السبب فى اتلاف مهجته فكان المنصور بعد ذلك يدعو الشيخ أبا محمد فيجالسه على الرخام فى زمان كلب البرد ويجانبه من غير حائل وقد اتخذ المنصور فيما زعموا البدة صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد فاذا رآه أبو محمد جالسا معه تجلد واستحيا أن يقوم عن السلطان ويتركه ويستمران على المذاكرة فى مسائل العلم فعل ذلك به أياما حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكى من ذلك الى أن قضت عليه وأنكر هذا صاحب نشر المثانى ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور باكثر من ثلاثين سنة وجواب أبى محمد هذا من النوع البيانى المسمى بتلقى المخاطب بغير ما يترقب على ما هو معروف فى كتب الفن وانما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جدهم قدم من ينبع أيضا كما قدم جد العلويين والعلويون ينكرون ذلك كل الانكار ويقولون انهم لم يجتمعوا معهم فى قبيل ولا دبير ﴿قال اليفرنى﴾ لكن صح لنا خبر واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الانكار وان المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الامام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه اهـ ﴿قلت﴾ وهذا هو الصواب اذ مستند من يطعن فى نسبهم عدم وضوحه ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته فى نفس الامر والا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على أحوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والاجداد من لدن مبدئه الى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الاجيال فالتنقير عن ذلك عسير جدا ولذا وكل الشارع أمر الانساب الى أهلها وجعلهم مصدقين فيها اذ لا تعرف غالبا الا من قبلهم فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ما لوكا ولا بلغوا من الشهرة الى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لاحد أن يدفعهم عنه لا بقاطع ولا قاطع كما علمت نعم الحكاية المسوقة فى سبب دخولهم الى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الامور ﴿وأما تسميتهم بالسعديين﴾ فقد قال اليفرنى أن هذه النسبة لم تكن لهم فى القديم ولا وقعت بها تحليتهم فى ظهائرهم ولا فى سجلاتهم وصدور رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به لانه انما يصفهم بذلك من يقدح فى نسبهم ويطعن فى شرفهم ويزعم أنهم من بنى سعد بن بكر كما قلنا وكثير من العامة واخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم انما سموا بذلك لان الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له اهـ ﴿قلت﴾ وانما نصفهم نحن بذلك لانهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع انه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف والله تعالى يلهمنا الصواب بمنه وفضله

﴿الخبر عن دولة الامير أبى عبد الله محمد القائم بامر الله وبيعته والسبب فيها﴾

﴿قال ابن القاضى فى درة السلوك﴾ لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة الى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بامر الله فنشأ على عفاف وصلاح وحج البيت الحرام وكان مجاب الدعوة والتقى جماعة من العلماء

الاعلام والعلماء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلا صالحا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه وكان قد رأى رؤيا وهي أن أسدين خرجا من احليله فتبعهما الناس الى ان دخلا صومعة ووقف هو ببابها فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن وانهما يملكان الناس ثم رجع الى المغرب وهو معلن بالدعوة فيقول في كل محفل ان ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة فما زال الى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة اه ❊وقال صاحب زهرة الشماريخ ما صورته❊ ان سبب قيام أبي عبد الله القائم ان أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو واستحكمت شوكة البرتقال وبقي المسلمون في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام لان بني وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس وانما كان لهم الملك في حواضر المغرب ولم يكن لهم منه بالسوس الا الاسم مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الاحوال وكثرة الاهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا الى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الاقاوي نسبة الى آقة من بلاد السوس فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك وقال ان رجلا من الاشراف بتاجدارت من درعة يقول أنه سيكون له ولولديه شأن فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم فبعثوا اليه وكان من أمره ما كان ❊وقال اليفرني❊ رأيت بخط الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي ما صورته ذكر لنا الوالد عن سيدي أحمد بن علي السوسي البوسعيدي أن ابتداء دولة الشرفاء بالسوس ان بعض السادة وهو سيدي بركات توسط في فداء بعض الاسارى وأراد أن يكون مع النصارى اتفاق على ان لا يحبسوا أسيرا فكلمهم في ذلك فقالوا له حتى يكون لكم أمير فان ملككم قد ذهب واضمحل قال ثم ان بعض أهل السوس ساروا الى قبيلة جسيمة يكتالون الطعام فاخذتهم جسيمة وأكلوا امتاعهم وبضاعتهم فذهبوا الى شيخهم وكان ذا حزم وتدبير فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق لهم شئ فلما رجعوا الى بلادهم قالوا ان هذا الشيخ الرئيس هو الذي يليق أن نبايعه فاجتمعوا وأتوه وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الامر للدين ودلهم على رجل شريف كان مؤذنا بدرعة فقال لهم ان كان ولا بد فاقصدوا الشريف الفلاني فانه يذكر أن ولديه يملكان المغرب فقصدوه وجاؤه الى بلادهم وبايعوه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده وبقي هنالك في نحر العدو اه (ويروى) أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لا يقوم الا بالمال احتال بان أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل كانون فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لا تحصى لان الناس استهونوا أمر البيضة فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتي بدلها بدرهم ففعلوا فاجتمع له من ذلك مال وافر فأصلح به شأنه وقوي به جيشه وكانت تلك أول نائبة فرضت في دولة السعديين والله أعلم ❊وقال ابن القاضي❊ أن الامير أبا عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده آقة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فاوضه في شأنه ثم عاد الى مقره من درعة ثم في سنة ست عشرة بعدها بعث اليه فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ودعوه الى توليته عليهم وتسليم الامر اليه فلبى دعوتهم وجاء الى قرية يقال لها تيدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواء على الجهاد مجتمعة اه وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقا غريبا ولا يخلو عن فائدة فلنذكر منه ما يقرب الى الصحة ويكون كالشرح لما مضى أو يأتي من أخبار هذه الدولة قال لما كان السلطان أبو عبد الله الوطاسي يعني البرتقالي أميرا بفاس ظهر في درعة رجل شريف يعني أبا عبد الله محمدا القائم بامر الله قال

وكان هذا الشريف من قراء القرآن ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول ولم يكن من بيت الرياسة وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جيله وأخلاقهم وطبائعهم ورأى ما وصل اليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لا يصعب عليه تناوله فأعمل في ذلك فكره ومكره وصار يحض الناس على القيام بأمور دينهم والامتعاض لها وكان قد بعث ثلاثة من أولاده وهم عبد الكبير وأحمد ومحمد الى الحجاز بقصد الحج وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بادارة الكلام فظهر لهم ناموس في تلك البلاد وأحبهم الناس لاسيما أحمد ومحمد ولما رجعا من مكة أقاما بفاس وهي يومئذ دار الملك وترتب أحمد في مجلس بالقرويين لتدريس العلم فاكتسب بذلك جاها وتقرب محمد الى السلطان حتى صار مؤدبا لاولاده وبقيا على ذلك مدة وهما في ذلك كله يتحببان الى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة والبرتقال في أثناء ذلك ملح على الثغور واستلابها من أهلها ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية فدعا ذلك الاخوين أحمد ومحمدا الى أن ندبا السلطان وهو أبو عبد الله البرتقالي الى المناداة في الناس بالجهاد اظهارا للنصح وهما يسران حسوا في ارتغاء وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصحهما وقال لهما لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة فأجاباه الى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب الى الجهاد ويحضان الناس عليه ويخطبان بذلك في المحافل ويعظان وتتبعا الحواضر والبوادي وتقريا الاحياء والمداشر والقرى الى ان وصلا الى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكراهما في أمرهما وانهما قد أشرفا على المراد وكادا يلجان الملك من بابه لان أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم فحينئذ أخذ الاب وأولاده في نشر معائب الدولة للعامة ويقررون ذلك بفصاحتهم وجاههم وما أوتوه من القبول وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس واجتمعوا عليهم من كل جهة وصار حالهم ينمو شيأ فشيأ الى ان استبدوا على السلطان ولم يرجعوا اليه بعد ﴿وقال في نشر المثاني﴾ كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد فاتفق ان خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الاعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب وأقبل عليهما لاجل قيامهما بالجهاد وأعطاهما عدة وخيولا كثيرة فرجعا الى جهادهما ثم عادا اليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصارى ونكاية وظهور وصارا يكتبان الى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا الانفسهما اه ﴿وقال منويل﴾ وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الاقصى ودرعة وأعمالهما وصاروا يرفعون اليهم زكواتهم وأعشارهم ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الاشراف الى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها ثم زحفوا الى آكادير لحرب البرتقال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم وكانوا يشيعون أنهم لا قصد لهم الا في الجهاد ومحاربة عدو الدين ومن هو سلم له من المسلمين اذلم يتأت لهم اذ ذاك التصريح بخلع السلطان ﴿وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة﴾ تجاوزوا جبل درن الى بلاد حاحة والشياظمة ثم دخلوا بسيط عبدة وكان باسفي رجل متنصر اسمه يحيى بن تافوت احتمى بالبرتقال من السلطان وكان معروفا بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتقال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفا له ولما زحف الاشراف الى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان وكان الظهور فيهما ليحيى لكن أبو العباس أحمد الاعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكرا آخر وخطبهم ووعظهم وزحف الى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه الى ان انجحروا باسفي وأغلقوه عليهم وأتيح لاحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك وظهر له ان ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر

الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه وحقق له ذلك ما فعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لأبيهم من نفوذ الكلمة بالسوس وكان في هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشنتوف وكان مستبدا على الوطاسي ويبذل له شيأ تافها يتقيه به ولما مر به هؤلاء الاشراف في أول أمرهم داعين الى الجهاد أحسن اليهم غاية ولما أوقعوا وقعة آسفي أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شنتوف وأظهر واله المحبة والموالاة وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يدا واحدة وجندا واحدا عليه فأسعفهم وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن اليهم وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه في خبز صغير يسمى القريشلات فهلك للحين وصفا للاشراف مراكش وأعمالها اذ كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا اليهم ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الامير واستخلف أخاه محمد الشيخ ولما اتصل الخبر بالوطاسي وانهم استولوا على مراكش أقلقه ذلك ومن مكر أحمد انه بعث اليه يقول ما أنا الا واحد من عمالك وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبذله لك مضاعفا ومع ذلك لم يطمئن اليه ثم هلك الوطاسي وولي مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لأبي العباس الاعرج وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ وأما عبد الكبير فانه كان استشهد قبل هذا في حرب البرتقال قرب آسفي ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الاشراف وانهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لابيه عزم على حربهم فجمع عسكرا عظيما وزحف الى مراكش فتحصن أحمد الاعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهره على عدوه وفي أثناء حصار الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بأن أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض اخوته فرجع الى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر الى مراكش بعسكر أعظم من الاول وفي هذه المرة برز اليه الاشراف خارج البلد ثم تقدموا اليه فكان اللقاء على أبي عقبة من تادلا ووقعت بينهم حرب هائلة لان الوطاسيين كانوا يرون ان هذه الحرب هي الفيصل بينهم وبين عدوهم والاشراف كذلك وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الاحمر سلطان الاندلس المخلوع وأبلى بلاء حسنا حتى قتل وكان الظهور للاشراف ورجع الوطاسي مفلولا الى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه وبعد هذه الوقعة استولى الاشراف على تافيلالت وملكوا آكادير وآسفي وآزمور لان البرتقال كانوا قد تخلوا عنها ثم عن قريب حدث بين الاخوين النفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا وكانت الكرة على أحمد وقرابنه زيدان الذي كان عضد أبيه في الحروب الى تافيلالت فاستولى عليها واقتطعها عن عمه محمد الشيخ ثم زحف الشيخ الى فاس فحاصرها الى ان قبض على الوطاسيين وغربهم الى درعة اه كلام منويل * ثم نرجع الى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرني وغيره

﴿ أخبار الامير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه ﴾

لما استتب أمر الامير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس الى مقارعة البرتقال وجهاده ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فقدم بها الى النصارى وناوشهم الحرب فاتاح الله للامير أبي عبد الله الفتح والنصر ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر وأخرج حية البغي من جحرها وأعاد كلمة الاسلام الى مقرها فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيما ومكانته ولما فصل من جهاده عاد الى محله المذكور من تيدسي فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت الى ارتحاله عنها وعوده الى درعة فلم يزل مقيما بها الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع الى مكانه من تيدسي واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها والله غالب على أمره

﴿عقد الامير أبي عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبي العباس الاعرج رحمهما الله تعالى﴾

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رآها الامير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وانهما يملكان المغرب ﴿وفي معنى ذلك أيضا﴾ ما يحكى شائعا ان ولدي أبي عبد الله المذكور وهما أبو العباس الاعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن في مكتب وهما صبيان فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ فأول ذلك مؤدبهما بانهما سيكون لهما شأن فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بان أمر المغرب صائر اليهما فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار وطاب له بها المقام والقرار ندب الناس الى بيعة أكبر ولديه وهو الامير أبو العباس أحمد المعروف بالاعرج فبايعوه وكان ذلك مبدأ ظهوره وأمره على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿انتقال الامير أبي عبد الله القائم الى آفغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله﴾

ثم ان أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا اليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم وطلبوا منه أن ينتقل اليهم هو وولده ولي العهد المذكور فأجابهم الى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس الى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة وترك ولده الاصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الامور ويعهد الماسكة ويباكر الغدو بالقتال ويراوحه واستمر الامير أبو عبد الله القائم بمكانه من آفغال مسموع الكلمة متبوع العقب الى ان توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفن هنالك بازاء ضريح الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه الى ان نقل الى مراكش بنقل الشيخ المذكور على ما يأتي ان شاء الله

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الاعرج ابن الامير أبي عبد الله القائم رحمه الله﴾

كانت ولادة السلطان أبي العباس الاعرج فيما حققه ابن القاضي سنة احدى وتسعين وثمانمائة وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم واصفاق فاستقام أمره وصرف عزمه الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبئة الجيوش الى الثغور وشن الغارات على العدو في الآصال والبكور في أحواز تيلست وآسفي وغيرهما وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل فأجلاهم عنها وطهر تلك البقاع من رجسهم وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفي ذلك يقول الفقيه مخلوف بن صالح يمدحه

فلله هذا الهاشمي وفضله * فلولاه صال الكفر أعظم صولة

﴿دخول السلطان أبي العباس الاعرج مراكش واستيلاؤه عليها﴾

لما كان من ايقاع السلطان أبي العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وأهرع الناس اليه من كل جانب ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاتة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته فاجاب داعيهم وانتقل الى مراكش فدخلها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمره ما نذكره

﴿نقل الشيخ الجزولي رضي الله عنه من مدفنه بآفغال الى مراكش والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا في أخبار عمرو السياف أنه كان في ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزولي هذا وانه لما توفي الشيخ المذكور جعل جثته في تابوت وصار يستنصر به في حروبه مدة من عشرين سنة أو نحوها ثم دفن

الشيخ بعد ذلك بآ فغال وتقدم لنا ان الامير أبا عبد الله القائم لما توفي دفنه ابنه أبو العباس بازاء هذا الشيخ ثم لما ملك أبو العباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزولي اليها ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضا واختلف في سبب ذلك فقيل ان السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بتلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحده و ينتصر عليه به فنقله الى مراكش ليأمن من ذلك وقيل ان الحامل له على نقله انه ذكر له ان تحته كنزا فتعلل للنبش عنه بانه قصد نقله الى الحضرة تبركا به والله أعلم وكان ذلك كله في حدود الثلاثين وتسعمائة

﴿مجيء السلطان أبي عبد الله الوطاسي الى مراكش وحصاره للسلطان الاعرج بها ثم اقلاعه عنها﴾

لما استولى السلطان أبو العباس الاعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبي عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتقالي فاقبل في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود ابن الناصر ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة وزحف الوطاسي الى الحضرة فنصب الانفاض عليها والى الرمي عليها أياما واشتد الامر على الناس فكان من ذهابهم الى الشيخ الغزواني وخروجه الى باب الخميس وقوله عند اصابة الرصاصة له انما هي أخبار الوطاسيين مستوفى ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين انما يكون في تادلا وأعمالها على ما مر والله أعلم

﴿خبر آسفي والثغور﴾

رأيت في تواريخ الفرنج أن البرتقال خرجوا من آسفي سنة ألف وخمسمائة وثلاثين مسيحية وهذا التاريخ يوافقه من سني الهجرة سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وهي وسط دولة السلطان أبي العباس وزعم هذا المؤرخ انهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث الى الجديدة بعد ما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار قال وبقيت اثنتي عشرة سنة وهي مخربة الى ان أصلحها السلطان محمد الشيخ يعني السعدي الآتي ذكره وفي النزهة ما يقرب من هذا فانه قال بعد ذكر ايقاع السلطان أبي العباس بنصارى السواحل ما نصه ويقال ان النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبي أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفي وآصيلا من غير قتال ثم نقل هذا الخبر في محل آخر عن ابن القاضي منسوبا الى أبي عبد الله الشيخ وسيأتي ذكره في محله وأظن ان الاخلاء كان متكررا والله أعلم وعلى كل حال فذكر آصيلا هنا غير مناسب اذ هي يومئذ في جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصاراها يخرجون فرارا منهم تخوفا من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم ثم كان بعد هذا بين أبي العباس السعدي وأبي العباس الوطاسي من الحرب والسلم ما تقدم بيانه كوقعة آغاي ووقعة أبي عقبة وغيرهما مما لا فائدة في اعادته

﴿حدوث النفرة بين الاخوين السلطان أبي العباس الاعرج ووزيره أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك﴾

كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستفحال الامر بالمحل الذي وصفناه قبل وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنا منه وكان تحت طاعته واقفا عند اشارته وكان السلطان أبو العباس يستشيره في أموره ويفاوضه في مهماته ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالك وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأي حازما شهما فكانت كلمتهما واحدة وأمرهما جميعا الى ان دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهم وأفضى الحال الى المصافة والمقاتلة وانقسم الجند حزبين وانصرفت كل طائفة الى متبوعها وصاحب أمرها وتقاتلا مدة وكانت

جل القبائل السوسية صاغية الى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله الى آفغال حسبما مر فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبي العباس فقبض عليه واستولى على مابيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرايات والنفقات وأصبح ملكا مستقلا بعد ان كان وزيرا وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة ﴿وفي نشر المثاني﴾ أن قبض الشيخ على أخيه أبي العباس الاعرج كان سنة احدى وخمسين وتسعمائة والاول أصح ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم الثقاف الى ان قتل يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتي ان شاء الله وكانت دولته من يوم بويع الى ان قبض عليه أخوه ثلاثا وعشرين سنة وكان من حجابه محمد بن على الانكراطي الهلالي ومحمد بن أبي زيد المنزاري ومن كتابه سعيد بن على الحامدي رحمهم الله

﴿أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه﴾

﴿قال صاحب درة الحجال﴾ اختلف الناس هل بويع لزيدان بن الاعرج بعد وفاة أبيه أم لا ﴿وقال شارح زهرة الشماريخ﴾ كان زيدان بن أبي العباس بسجلماسة وبويع له بها فلم يتم أمره وبقي الى ان توفي سنة ستين وتسعمائة

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الامير أبي عبد الله القائم بأمر الله﴾

كانت ولادة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة ويلقب بالشيخ وبأمغار وهو الشيخ بالبربرية ويلقب من الالقاب السلطانية بالمهدي لقبه به غير واحد من أئمة عصره ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه الى درجة الرسوخ

﴿فتح حصن فونتي وآسفي وآزمور وما قيل في ذلك﴾

لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بامر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه الى جهاد العدو الذي بثغوره وحصونه وأرهف حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحي دابرهم وحسم آفتهم ﴿قال ابن القاضي﴾ كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة عظيم الهيبة كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة غالية فعقد قواعد الملك وأسس مبانيه وأحيي مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الاسلام فتح حصن النصارى بالسوس يعني حصن فونتي بعد ان أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصورا بالرعب حتى تركوا له آسفي وآزمور وأصيلا من غير قتال ولا ايجاف عليهم اهـ ونحوه في تاريخ البرتغاليين زاد مؤرخهم أن ذلك كان باذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا في أخبار الاعرج والجواب عنه وكان فتح فونتي سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما في النزهة وفتح آسفي سنة ثمان وأربعين بعدها كما في المرآة وعند البرتغاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجري ﴿وفي الدوحة﴾ لما أخلى النصارى آزمور تسارع اليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس والشيخ أبو محمد عبد الله ابن ساسي دفين تاسيفت قرب مراكش فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع اليها العدو فاذا به قد رجع واقتحمها عليهم وأسرهم الى ان افتكهم المسلمون ﴿وقال منويل﴾ كان فداؤهما ألفي ريال ومائتي ريال بالتثنية فيهما ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج وكان أسيرا عند امرأة نصرانية ناولته كتبا للمسلمين وقالت له هذه كتب كانت عندي ولا حاجة لي

بها فخذها اليك فأخذها وخرج بها فى قفة على رأسه فكان من جملتها كتاب تنبيه الانام الموضوع فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور اه

﴿بناء حصن آكادير﴾

﴿قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى﴾ فى كتابه المنتقى المقصور كانت للامير السلطان أبى عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها أنه أول من اختط مرسى آكادير بالسوس الاقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتى على مقربة من آكادير المذكور وكان له فى اختطاطه رأى مصيب وفراسة تامة اه

﴿استيلاء السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها﴾

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالامر قد أقام بالبلاد السوسية مثابرا على جهاد العدو الى ان قلع عروق مفسدته منها وكانت مراكش فى هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول فى دعوته اتقاء للوطاسيين وارتياء فى أمره الى ماذا يؤول واستمر الحال الى سنة احدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا الى وادى نول والله غالب على أمره

﴿نهوض السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ لحرب بنى وطاس واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له فى ذلك﴾

لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره فجمع الجموع وتقدم بها الى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلدا بلدا ومصرا مصرا الى ان أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فانه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير

﴿حصار السلطان أبى عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الونشريسى رحمه الله﴾

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصارا طويلا ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الونشريسى يعنون الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسى رحمه الله فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه فقال له الشيخ عبد الواحد بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى وهو غير موجود وزعم بعضهم ان السلطان المذكور كتب الى أهل فاس يقول لهم انى ان دخلت فاسا صلحا ملأتها عدلا وان دخلتها عنوة ملأتها قتلا فأجابه ابن الونشريسى بأبيات أغلظ له فيها منها قوله

كذبت وبيت الله ما تحسن العدل * ولا خصك المولى بفضل ولا أولى كذا فى النزهة

﴿قلت﴾ وهذا البيت من أبيات قديمة والونشريسى انما تمثل به لا غير فقد ذكر العلامة ابن خلدون فى أخبار بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب قلعة تكور ولاول الفتح أن عبيد الله المهدى العبيدى صاحب افريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه الى أمره وكتب له فى أسفل كتابه

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم * وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا

وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم * وأدخلها عنوا وأملؤها قتلا

فأجابه سعيد بن صالح بأبيات من نظم شاعره الطليطلى نصها

كذبت وبيت الله ماتحسن العدلا * ولاعلم الرحمن من قولك الفصلا
وماأنت الا جاهـــل ومنافق * تمثـل للجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا بدين محمـــد * وقدجعل الرحمن همتك السفلى

فلعل الشيخ كتب لاهل فاس بالبيتين الاولين والونشريسى كان مطلعا على القضية فأجابه بجوابهما ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الونشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه و يأتوا به الى محلته محبوسا من غير قتل وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشاءين و ينقل عليه كلام ابن حجر فى فتح البارى و يستوفيه لانه شرط المجلس فقال له ابنه ياأبت انى قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة فقال له الشيخ أين وقفنا البارحة قال على كتاب القدر قال فكيف نفر من القدر اذا اذهب بنا الى المجلس فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين أحد أبواب المسجد المذكور فثار به اللصوص وأرادوا حمله فاخذ باحدى عضادتى الباب فضرب أحدهم يده فقطعها واجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ﴿وقال الشيخ المنجور فى فهرسته﴾ واشتهر عن الفقيه الصالح أبى عبد الله محمد بن ابراهيم المدعو بابى شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد فى المنام بعد قتله فسأله عن حاله فانشأ يقول

لقدعمنى رضوان ربى وفضله * ولم أر الا الخير فى وحشة القبر
وانى أسأل الاله بفضـــله * ليحفظنى يوم الخروج الى الحشر
ومابعد ذلك من أمور عسيرة * كنشر الكتاب والمرور على الجسر

﴿استيلاء السلطان أبى عبد الله الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم الى مراكش﴾

ثم ان السلطان أباعبد الله الشيخ جد فى حصار فاس وألح عليها بالقتال الى ان ملكها واحتوى عليها ﴿قال فى الدوحة﴾ لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له اشتر منى فاسا بخمسمائة دينار فقال له السلطان ماأنزل الله بهذا من سلطان هذا شئ لم تأت به الشريعة فقال والله لادخلتها هذه السنة فبقى أشهرا والامر لايزداد الاشدة فقال ابن السلطان وهو الامير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لابيه ياأبت افعل ماقال لك الشيخ أبو الرواين فانه رجل مبارك من أولياء الله تعالى ولم يزل به حتى أذن له فى الكلام معه فكلمه الامير عبد القادر فقال له ادفع المال فدفعه اليه فقال له عند تمام السنة يقضى الله الحاجة وأمرى بامره سبحانه ثم ان الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور فى الظهور الى ان انقضت السنة ودخل فاسا كما قال اه ﴿وقال صاحب الممتع﴾ والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الاسباب فى تمكن السلطان المذكور من الملك واخراج بنى وطاس عنه فانه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادى ياحران جئ فانى قد أعطيتك الغرب وذلك قبل ظهور السعديين ولم يكن الناس يدرون مايقول حتى ظهر الحران وهو أحد أولاد السلطان أبى عبد الله الشيخ وهو الذى كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد الا مافتح له على يده وكان دخول السلطان الشيخ الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين الى مراكش عدا أباحسون منهم فانه فر الى الجزائر مستجيرا بترك ها حسبما مر ﴿وقال اليفرنى﴾ لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم فمالوا أنفسهم على التأدب بآداب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعنى حتى رسخ فيهم ذلك والله أعلم

﴿نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ الى تلمسان واستيلاؤه عليها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركى على تلمسان وانقراض دولة بنى زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس فى التاريخ المتقدم تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع انهم أجانب من هذا الاقليم ودخلاء فيه فيقبح باهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم لاسيما وقد فر اليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله وهو أبو حسون الوطاسى فرأى الشيخ من الرأى واظهار القوة فى الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤه فنهض من فاس قاصدا تلمسان فى جموعه الى ان نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر وقتل فى محاصرتها ولده الحران وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة ونفى الترك عنها وانتشر حكمه فى أعمالها الى وادى شلف واتسعت خطة مملكته بالمغرب ودانت له البلاد ثم كرت عليه الاتراك وأخرجوه من تلمسان فعاد الى مقره من فاس ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها فاقام مرابطا عليها أياما فامتنعت عليه وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها الى الترك على ما نذكره

﴿امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب فى ذلك﴾

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند اشاراتهم والتعبد بما يأولونه من عباراتهم ألا ترى أن بيعة والده أبى عبد الله القائم لم تنعقد الا بهم ولا ولج بيت الملك الا من بابهم فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبى محمد الكوش فاخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله الى فاس ﴿وفى الدوحة﴾ لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لابى على الحسن بن عيسى المصباحى دفين الدعادع التى على وادى مضى من عمل القصر ألا تخشى من هذا السلطان فقال انما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما والباقى متروك لمن طلبه وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراء بنى مرين ويتهمهم بها وبعث خديمه يوما الى الشيخ أبى عثمان سعيد بن أبى بكر المشترائى دفين مكناسة يطالبه بشئ من ذلك فوجده جالسا بناحية زاويته تحت شجرة الدوم واذا بطائر لعله اللقلاق سلح أمامه فرفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتا متطاير الريش فلما رأى الخديم ذلك فزع وولى هاربا قاله فى الممتع والله تعالى أعلم

﴿وفادة الامام أبى عبد الله الخروبى من جانب دولة الترك فى شأن قسم البلاد وتحديدها﴾

لما كان من السلطان أبى عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن على الخروبى الطرابلسى نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور فى شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة احدى وستين وتسعمائة فى هذا الغرض فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته الا انه لم تظهر ثمرة لقدمه ﴿وفى المرآة﴾ أن أبا عبد الله الخروبى قدم المغرب الاقصى مرتين فى سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاوسط والمغرب الاقصى فاخذ عنه كثير من أهل المغرب الاقصى وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله وفى قدمة الخروبى هذه الى مراكش أنكر على الشيخ أبى عمرو القسطلى دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذى يريد الدخول فى طريق القوم وقال انه بدعة

فقالوا

فقالوا له ان الشيخ الجزولي كان يفعله فقال لهم اعله باذن والاذن له لا يعمكم فان الاذن للنبي يعم أتباعه والاذن للولي لا يعم أتباعه وأنكر عليه مسائل كثيرة وبعث اليه رسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها رحم الله الجميع بمنه وتوفي الخروبي هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم

﴿قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه على بني وطاس وفرار أبي حسون الى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها الى ان قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني فاستولى على فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ونفى أبا عبد الله الشيخ عنها حسبما الخبر عنه مستوفى

﴿عود السلطان أبي عبد الله الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها﴾

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل الى مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون فاستنفر قبائل السوس وجمع الجموع وزحف الى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ فقتل أبا حسون واستولى على فاس وصفا له أمر المغرب وقد تقدمت هذه الاخبار مستوفاة في محلها وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة ﴿وفي الدوحة﴾ أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة وعود السلطان الشيخ اليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضا والله تعالى أعلم

﴿مقتل الفقيهين أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوز والسبب في ذلك﴾

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس في هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضي الجماعة بفاس أبي محمد عبد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق لانه اتهمه بالميل الى أبي حسون ﴿ويحكى﴾ أنه لما مثل بين يديه قال له اختر بأي شيء تموت فقال له الفقيه اختر أنت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان اقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضا كما سيأتي ﴿وفي كتاب خلاصة الاثر﴾ أن الشيخ الزقاق كان يقول من قتل سوسيا كان كمن قتل مجوسيا فلما قبض عليه الشيخ قال له أنت زق الضلال فقال له لا والله بل أنا زق العلم والهداية ثم قتله وأمر أيضا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبي علي حرزوز المكناسي لكلام بلغه عنه وانه كان يذكره في خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد اليه ويقول في خطبته جاءكم أهل السوس الاقصى البعاد ثم يذكر الشيخ ويقول واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد في كلام غير هذا وكان مقتل الفقيهين المذكورين في ذي القعدة سنة احدى وستين وتسعمائة

﴿ترتيب السلطان أبي عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك﴾

قال اليفرني كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعا بتدبير أمر الرعية مستيقظا في أمره حازما غير متوقف في سفك الدماء قال ويحكى أنه لما دخل فاسا دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق باخلاقهم وذكر ان ملك السعديين انما تأنق على يد رجل وامرأة فأما الرجل فقاسم الزرهوني فانه رتب للسلطان أبي عبد الله الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم

وخروجهم وآداب أصحابهم وكيفية مشيهم بين أيديهم وأما المرأة فالعريفة بنت خجو فانها اعلمته سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة وازداد في عيون العامة رونقا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية لان أهل البادية مسترذلون في عيون أهل الحاضرة قالوا ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الاقامة بفاس (قال في المنتقى) ومن مآثره أنه بنى جسر وادي سبو وجسر وادي أم الربيع وتقدم بناؤه حصن آكادير والله تعالى أعلم

(وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة)

قد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك وعلى القول بانها افتتحت عنوة فهي خراجية كما هو مقرر في كتب الفقه وتقدم لنا أيضا ان أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن علي وتبعه بنوه على ذلك وقفا أثرهم بنو مرين وفي الظهير الذي كتبه السلطان أبو زيان المريني لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضا وقول اليفرني ان أبا عبد الشيخ أول من أحدث النائبة بالمغرب يحمل على انه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه وذلك انه لما صفا للسلطان أبي عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بني وطاس منه التفت الى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا فمن ذلك أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة في لسان العامة بالنائبة ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا حتى أرباب الزوايا والمنتسبين ومنهم أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي مع ما كان لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت في بلاده وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع نوائب وكانت تفرض في زمان الشيخ على الكوانين وتوظف على حسب السكان وتدفع باعيانها وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ولما جاء المنصور ومن بعدهم قوم تلك الاعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم ثم ازداد ذلك الى ان خرج الامر عن القياس واتسع الخرق على الراقع والله لا يظلم مثقال ذرة

(مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك)

قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبي عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الاوسط وانه غزاهم مرتين وقدم الامام أبو عبد الله الخروبي ساعيا في الهدنة فلم يرجع بطائل وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا لابد لي ان أغزو مصر وأخرج الترك من أحجارها وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان العثماني ويسميه بسلطان الحواتة يعني لان الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر فانتهى ذلك الى السلطان سليمان فبعث اليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما في النزهة وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية الى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الاقصى كتب الى الشيخ يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب وبعث اليه بذلك رسولا في البحر فانتهى الى الجزائر ومنها قدم الى مراكش في البر ولما وصل الى السلطان أبي عبد الله الشيخ أنزله على كبير الاتراك في محلته صالح باي المعروف بالكاهية وكان هؤلاء الاتراك قد انحاشوا الى الشيخ من بقايا القادمين مع بني حسون فضمهم اليه وجعلهم جندا على حدة وسماهم الينكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حي

وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه فطلب منه الجواب فقال لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر ان شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه الى ان وصل الى سلطانه وكان من أمره ما نذكره

﴿قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم السلطان أبي عبد الله الشيخ رحمه الله﴾

لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد الله الشيخ ووصل الى الجزائر ركب البحر الى القسطنطينية فانتهى اليها واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الاعظم وأخبره بما لقي من سلطان المغرب فانهى الوزير ذلك الى السلطان سليمان فامره ان يهيئ العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها واتفق رأيهم على ان عينوا اثني عشر رجلا من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار وكتبوا لهم كتابا الى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ ووعدوه بالمال والمنصب ان هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه ﴿وفي النزهة﴾ أن صالحا هذا كان من ترك الجزائر جاء في جملة الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ والله أعلم ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر اليه عن توجيه العمارة وقال هذا أمر سهل لا يحتاج فيه الى تقويم عمارة وهذا المغربي الذي أساء الادب على السلطان يأتي رأسه الى بين يديك فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر الى الجزائر ومنها يتوجهون الى مراكش في البر ففعلوا ولما وصلوا الى الجزائر هيؤا أسبابا واشتروا بغالا وساروا الى فاس في هيئة التجار فباعوا بها أسبابهم وتوجهوا الى مراكش ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة في أمرهم الى أن توجهت له ﴿وفي النزهة﴾ أن هؤلاء الاتراك خرجوا من الجزائر الى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم ورغبوا في خدمة الشيخ والاستجارة به ثم ان صالحا الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال يامولاي ان جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم ان شاء الله السبب في تملكها فامر بادخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسانا وأجساما عظاما فاكبرهم ثم ترجم له صالح كلامهم فافرغه في قالب المحبة والنصح والاجتهاد في الطاعة والخدمة حتى خيل الى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر فامره باكرامهم وان يعطيهم الخيل والسلاح ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك وصار الشيخ يبعثهم الى أشياخ السوس مناوبة في الامور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس وكان يوصي الاشياخ باكرام من قدم عليهم منهم واستمر الحال الى أن أمكنتهم فيه الفرصة وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له آكلكال بظاهر تارودانت فولجوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسس فضربوا عنقه بشاقور وضربوا بابوابها رأسه واحتملوه في مخلاة ملؤها نخالة وملحا وخاضوا به أحشاء الظلمات وسلكوا الطريق درعة وسجلماسة كأنهم ارسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتي مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكاني والكاتب أبو عمران الوجاني ولما شاع الخبر بان الترك قتلوا السلطان واسترابت الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق اخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الاموال واستعدوا للحصار ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر الى تارودانت للاخذ بثار أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بان أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع الى فاس لثائر قام بها ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلا والعيون موضوعة عليهم بكل جهة الى

أن شارفوا المحلة السلطان الغالب بالله نعطف عليهم ولما لم يمكنهم الرجوع الى تارودانت تحيزوا الى الجبل وبنوا به قياطينهم وجعلوا عليها المتاريزات من الاحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة فقاتلوا الى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفا ومائتين وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا الى الجزائر وركبوا البحر منها الى القسطنطينية فاوصلوا الرأس الى الصدر الاعظم وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يجعل في شبكة نحاس ويعلق على باب القلعة فبقي هنالك الى أن شفع في انزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعدين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتي وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة ولما بلغ خبر مقتله الى خليفته بمراكش القائد أبي الحسن علي بن أبي بكر آزناك بادر بقتل أبي العباس الاعرج المخلوع وأولاده ذكورا واناثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلي الولي الشهير بمقربة من ضريح الشيخ الجزولي وهي القبة التي قرب الضريح المذكور تسمى قبور الاشراف وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ فانهم حملوا جثته الى مراكش فدفنت بها قبلي جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها الى الآن ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات

حيّ ضريحا تعمد تمرحمات * وظللت لحده منها غمامات
واستنشقن نفحة التقديس منه فقد * هبت من الخلد لي منها نسيمات
بغربه كورت شمس الهدى فكست * من أجلها السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى قنصا * وأثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك أطواد العلى صعقا * وارتج من بعدك السبع السموات
وشيعت نعشك المزجى الى عدن * من الملائك ألحان وأصوات
يارحمة الله عاليه سلاف رضا * تدور منها عليه الدهر كاسات
فضى فوافق في التاريخ منه حلى * دار امام الهدى المهدي جنات

﴿بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته﴾

كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدي ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق باهدابه فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ووقع ذلك منه مرارا وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه ﴿وقال في المنتقى﴾ كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمه الله أديبا متفننا حافظا حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقي الشيبة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هرون أحفظ منه للقطعات الشعرية وكثيرا ما ينشد

الناس كالناس والايام واحدة * والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن فهما ماجدا حافظا الصحيح البخاري ويستحضر ما للناس عليه ويقول في شرح ابن حجر ما صنف في الاسلام مثله عارفا بالتفسير وغيره وكان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب وكان يحض على المشاورة ويقول لاسيما في حق الملوك وينشد قول المتنبي

ومن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

(وكان يقول) ينبغي للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه

صالح لان الرعية تصلح بطول أمله (وكان يقول) من طول أمله أخذ تلمسان وسبتة وغيرهما انتهى وقوله أنه كان يحفظ ديوان المتنبي سببه ما ذكره في الدوحة قال أخبرني الوزير المعظم أبو عبد الله محمد ابن الامير أبي محمد عبد القادر ابن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف قال لما غدرت قبيلة المناهجة بجدي السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبا محمد عبد الله بن عمر بذلك فكتب اليه يقول أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة * وأعوز الصدق في الاخبار والقسم

قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد اه وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغري الفقيه الفرضي الحاسب فقيه درعة وعالمها وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس ولما عاد الى درعة سأله فقهاؤها كيف وجدت أهل السوس فقال وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوى وفقراءهم على عظيم الدعاوى وعامتهم على كثير المساوى ومن أشياخ السلطان المذكور الامام الشهير شيخ الجماعة بالصقع السوسي أبو الحسن علي بن عثمان التاملي ذكره في المنتقى وأثنى عليه ومن أشياخه علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليستني أخذ عنه علوما منها التفسير قال المنجور وكنت أنا قارئه بين يدي أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له قال ولما توفي الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه بقرأ ورده بحمام المريني فخرج السلطان الينا وهو يبكي بصوت عال يفزع من سمعه حتى رأينا منه العجب وما سكت الا بعد مدة لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم وحضر جنازته وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء ومن وزرائه الرئيس أبو الحسن علي بن أبي بكر آصناك الحاحي وأبو عمران موسى بن أبي جدي العمري وغيرهم ومن قضاته بفاس أبو الحسن علي بن أحمد الخصاصي وبمراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني رحم الله الجميع وكان للسلطان أبي عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء ومن أنجبهم أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان ومنهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله وأبو مروان عبد الملك الغازي وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بعد أبيهم ومنهم الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفي في حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة (وفي نشر المثاني) أنه قتل مخنوقا بأمر أخيه عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فالله أعلم ومنهم عثمان وعبد المؤمن وعمرو غيرهم (قال المنجور في فهرسته) حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ وقد حضر عنده أولاده الصناديد الامراء المولى محمد الحران والمولى عبد القادر والمولى عبد الله فدخل شيخنا الامام أبو عبد الله اليستني فلما نظر اليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح

فقلت عسى أن تبصريني كأنما * بني حوالي الاسود الحوارد

فاعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم

(الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله)

كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله كما رأيته مرقوما على الرخامة التي على قبره في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وكان رحمه الله أدعج العينين مستدير الوجه عريضه أسيل الخدين مشرف الوجنتين ربعة للقصر ونشأ في عفاف وصيانة وحفظ القرآن وأخذ بطرف صالح من العلم وكان ولي عهد أبيه وكان يلقب من الالقاب السلطانية بالغالب بالله لقبه به غير واحد من الائمة ولما وافته الانباء بقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد (وذكر صاحب زهرة الشماريخ)

أن الفقيه الميقاتي المعدل بمنار القرويين أبا عبد الله المزوار وكان بصيرا بعلم الاحكام والحدثان بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب وقد انهار الليل واسود ديجوره رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين ابنه أبي محمد عبد الله وصلة فأسرع في الذهاب اليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقا فاستأذن الموكلين به في فتحه فأبوا فقال لهم اني جئت الى الخليفة يعني خليفة السلطان في أمر مهم عنده وان لم تعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غدا ما تكرهون فانذر والخليفة المذكور به فحمل اليه وسأله عن قضيته فاخبره بما رأى ونعى اليه أباه فلم يكذب في ذلك وتهيأ واستعد فلم تمض الا أيام قلائل حتى وافته الانباء بقتل أبيه في تلك الساعة التي قال له المعدل المذكور فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها فاستوسق له الامر وتمهد له ملك أبيه وكان ذلك كله في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة

﴿مجيء حسن بن خير الدين التركي الى فاس ورجوعه منهزما عنها﴾

﴿قال ابن القاضي﴾ ولما ولي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه الى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله ﴿وفي سنة خمس وستين وتسعمائة﴾ في جمادى الاولى منها غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الاتراك فخرج اليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بقربة من وادي اللبن من عمالة فاس فكانت الدبرة على حسن فرجع منهزما يطلب صياصي الجبال الى أن بلغ الى باديس وكانت يومئذ للترك ورجع الغالب بالله الى فاس لكنه لم يدخلها للوباء كان بها يومئذ ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لامر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة والله تعالى أعلم

﴿بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك﴾

﴿قال اليفرني﴾ وفي عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين من مراكش والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة المذكورة والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة ﴿قلت﴾ وهذا المارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء قال وهذا السلطان هو الذي جدد أيضا بناء المدرسة التي بجوار جامع ابن يوسف اللمتوني وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس بل الذي أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن المريني رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشاع على الالسنة أن السلطان الغالب بالله توصل الى بنائها بصناعة الكيمياء وأن الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السملالي علمه اياها حين تلمذ له كما سيأتي قال اليفرني وهو كذب فان المنقول عن الشيخ المذكور انكارها وما كان ليفتح على مسلم بابا عظيما من أبواب الفتنة وسببا بليغا من أسباب المحنة لان هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها الوجوه ثلاثة أولها انها من المستحيلات كما ذكره ابن سيناء مستدلا عليه بقوله تعالى لا تبديل لخلق الله وكما انه ليس في قدرة المخلوق أن يحول القرد انسانا والذئب غزالا كذلك ليس في قدرته أن يصير الرصاص فضة والنحاس ذهبا يعني لان ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها أتنكر ما تشاهده في الصبغ وتصيير الجسد الاحمر أصفر والابيض أسود فقال مانعها لا أنكر ذلك لان الصبغ ليس تغيير أصل وانما أنكر أن ثوب الصوف الابيض ترده صناعة الصبغ قطنا أو حريرا أحمر أو أخضر وأما الصبغ فلا شك ان النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة في الخارج كما ذهب اليه أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله اذ قال ثلاث

متفق على وجودها فى الغالب وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغارب الكيمياء والعنقاء والغول وأخبارها كلها على وجه السماع والاسنادات وحكاياتها كالموضوعات عن الحماوات والجادات ثالثها اسلفنا أنها موجودة فى الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها ﴿وقد سئل﴾ عنها الشيخ أبو اسحق التونسى رحمه الله فقيل له أحلال هى اذا كانت خالصة فقال لو دبر النحاس أو غيره من الاجساد حتى صار ذهبا خالصا لاشك فيه فتى لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاسا أو جسدا من الاجساد فدبرته حتى صار ذهبا كما ترى لكان غاشا مدلسا قال ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس ويقول فكما دبرته حتى صار ذهبا فكذلك يدبره غيرك حتى يرجع الى أصله فمن لم يبين فيها فهو داخل فى قوله عليه الصلاة والسلام من غشنا فليس منا فتكون صناعتها حراما وقيل لبعض الفضلاء لم تتعالى بهذه الصناعة فانها تسلى الخاطر فقال قيل للحمار لم تجتر فقال أكره مضغ الباطل وأنشد

فقلت لاصحابى هى الشمس ضوءها * قريب ولكن فى تناولها بعد

اه مانقله اليفرنى ملخصا مهذبا وهو الحق الذى لاعوج فيه ولا أمت ثم قال وبالجملة فماشاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لا أصل له ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة فى جامع الاشراف بعد ما بنى مدة ويقال أن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم

﴿فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بنى راشد منها﴾

تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط ولما توفى مختطها الامير أبو الحسن على بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها (قال فى المرآة) ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدى بجيوش عمه السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله وصاحب شفشاون يومئذ الامير الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الامير أبى الحسن بن موسى بن راشد فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن اليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون فى مسالك وعرة صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثانى من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة وساروا الى ترغة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور واستقر الامير أبو عبد الله بالمدينة المنورة الى أن مات بها رحمه الله

﴿حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة﴾

قد قدمنا ما كان من بناء البرتقال المدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز اليها السلطان الغالب بالله جيشا كثيفا واستنفر لها قبائل الحوز وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادى المخازن وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن تودة العمرانى وجعل اليه أمر الحرب وابن السلطان صورة فزحف اليها وحاصرها أربعة وستين يوما وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها ﴿وفى النزهة﴾ ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التى قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل فى الغد بقيتها ولا يبقى للكفر بها أثرا فكتب اليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها فتراجع النصارى اليها بعد ان ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها اه وقد وقفت فى التاريخ البرتقالى الموضوع فى أخبار الجديدة واسم مؤلفه لويز مارية على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها وتتبع الوقائع فصلا فصلا ويوما يوما وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة فكان من جملة ما قال انه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ فى تجهيز الجيوش اليهم أتاهم بعض المتنصرة قال وهو عبد أسود فاخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم وكانوا عازمين على

التوثق من هذا الجاسوس فافلت منهم فعلموا ان اظهاره للتنصر كان مكيدة ثم أخذوا فى الاستعداد واشتروا من عند قائد آزمور ألفى سيف هكذا زعم قال وفى اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين الى حوز الجديدة وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربى الذى قدمناه قال فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفا والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف بالباردوس وكانوا يومئذ جند السعديين وكان معهم عشرون مدفعا عشرة كبيرة وعشرة صغيرة وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميمونا وكان معهم العلم الكبير الابيض ورايات أخر ملونة وتقدموا الى الجديدة فحاصروها حصارا شديدا وحاربوها حربا هائلة ووصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفا كاشفا وكانت الجديدة يومئذ فى غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغى وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات وملكوا المتارزات التى كانت حول السور بعد ان هلكت عليها نفوس من الفريقين ثم صنع النصارى للمسلمين عند هامينا البارود مرتين ففى الاولى كانت المينا تسعة براميل نفط منهن سبعة فاهلكت خلقا من المسلمين والنصارى وفى الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور فنفطت بالمسلمين وأتلفت منهم عددا فبعضهم طار فى الهواء وبعضهم ارتطم تحت التراب وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلا عظيما واعترف النصارى لهم بجودة الرمى بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكرى على السور اختطفته رصاصة فى أخيره وضع من بدنه من الرأس أو الصدر ﴿قال لويز المؤرخ﴾ ولقد قدم فى بعض الايام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم أرونى كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم قال فاظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب الى منزله فعوضه منه المسلمون القبر قال فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور الا فى النادر ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج الى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم ومامدة الاقامة قال فخرجوا فى فلك لهم ليلا وساروا حتى بلغوا ساحل طيط وهى يومئذ خالية وكان بقربها محلة لقائد آسفى فلما طلع الفجر تقدموا الى البر وأرسوا فلكهم الى جانب بعض الاحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الاسفار اذا برجل من محلة آسفى أتى على فرسه الى شاطئ البحر لبعض حاجاته فلم يرعه الا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه وجعل بعضهم فم مكحلته فى صدره فلم يملك المسلم من نفسه شيأ ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه الى الفلك أسيرا ولججوا به فى البحر ولما بعدوا عن البر شيأ ما رمى أحدهم الفرس برصاصة فقتله ثم أسرعوا الى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فاخبرهم بانهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فان لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك قال وكان ارتحال المسلمين من الجديدة فى سابع مايه العجمى من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيدا وأحدثوا فى كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك باشارة باباهم صاحب رومة * ومما حكاه هذا البرتقالى فيما كان يجرى بين أهل آزمور وبينهم من الحرب وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة أنه كان بآزمور امرأة حسناء وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويز الا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودى لان الحروف التى ذكر تقرب منه قال فامتنعت عليه فراودها أياما واشتد كلفه بها فلم تزد عليه الا تمنعا فبعث اليها ذات يوم يرغبها فى نفسه ويدلى عليها بمآثره التى من جملتها الشجاعة حتى قال لها ان شئت أن آتيك برأس أعظم نصرانى بالجديدة وأشجعه فعلت ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له ان آتيتنى به تزوجتك فذهب الرجل المذكور الى قائد آزمور ولم يسمه لويز وعرض عليه أن يكتب الى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بان يعين من جانبه رجلا من

شجعانهم ليبارزه ان شاء فاجابه القائد الى مراده وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة وهذا الموضع هو الذي كانت تقف فيه رسل آزمور اذا قدمت لغرض فخرج اليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به الى صاحبه فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم مافيه فقام رجل منهم وقال أنا صاحبه وهذا الرجل سماه لويز وقال كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتلئ الاعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور وقبل ذلك فكتب صاحب الجديدة الى قائد آزمور انا قد أجبناك الى ما دعوت وقد أعجبنا ذلك وها نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التي تكون فيها الملاقاة فاتفقا على يوم معلوم وفي ذلك اليوم سار قائد آزمور في أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور الى الجديدة فانتهوا الى الموضع الذي جرت العادة أن يقف فيه المسلمون وخرج قائد النصارى في جماعته وشرطوا المبارزة وكيفيتها شروطا منها أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقي الا المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين ومنها أن مساحة الموضع الذي يكون فيه مجالهما خمسون شبرا وسطا من الفريقين وان من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقا للآخر واعطوا خطوطهم بذلك ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا الى النصراني ففتشاه لينظرا ما عليه من السلاح وما معه لان من جملة الشروط أن لا يتبارزا الا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصراني سواهما ﴿قال لويز﴾ وكان صاحبهم المذكور يحسن الضرب بكلتا يديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل الا باليمين فرضي ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا الى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا غير أنه قد علق على ذراعه تمائم كثيرة مخروزة في الجلد فقال له الشاهدان لا بد أن تنزع هذه التمائم لان صاحبنا ليس عنده شئ من هذا وأيضا فيمكن أن تقيك هذه التمائم بعض الوقاية فقال لهم لا أنزعها الان مثل هذا لا يتقى به في الحرب ولا يغني في الظاهر من السيف والرمح شيأ وانما فيها أسماء الله ولا يحسن بي أن أطرحها في هذه الحالة التي أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب مني مع اسم الله تعالى وربما يكون سببا في خذلاني فرجع النصرانيان الى قائدهما وأخبراه بالقضية فقال لا بد من نزعها فعادا اليه وزعم لويز أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدلان ان الحق مع النصارى لانا كشفنا صاحبهم كشفا تاما وأورده القائد أيضا فأصر على الامتناع معتذرا بما سلف ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون الى بلدهم ولم يكن براز ﴿قال لويز﴾ وعد النصارى ذلك غلبا وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود قال وكان سور الجديدة مكسوا بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين ﴿قلت﴾ من تأمل وأنصف علم أن الفشل انما هو من جانب النصارى لان تلك التمائم من حيث الظاهر لا تغني شيأ وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى بل ولا يسلمونه فلم يبق الا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء ﴿ثم قال لويز﴾ وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فابلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة اهـ * والحق ما شهدت به الاعداء * وانما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها ولما اشتملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الايمانية فنسأله سبحانه وتعالى أن يعلي منار الدين ويكبت كيد الجاحدين والمعتدين آمين ﴿وفي سنة سبعين وتسعمائة﴾ ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي قضاء فاس فطالت مدته

﴿وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه﴾

﴿حكى صاحب الممتع﴾ أن السلطان أبا محمد عبد الله الغالب بالله قال للاستاذ أبي عبد الله الترغي اني أجد

فى نفسى ارادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لى شيخا فذهب يطوف على مشايخ المغرب وكانوا اذذاك متوافرين حتى أتى على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى فوجده شيخا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع حسن الاخلاق باهر الكرامات واضح الطريقة جامعا المحاسن الخلال والاوصاف فرجع اليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه حتى أتى على الشيخ المذكور فقال وهو ولى ثم ولى ثم ولى سبعا فقال له كانك تدلنى عليه وانه مطاوبى وانه المقدم على غيره فقال له لا أدلك عليه ولا عندى ما أعرف به تقديمه غير ان هذا الذى ظهر لى فازمع السلطان الغالب بالله الرحلة اليه فلما بلغ الشيخ المذكور مجىء السلطان اليه خرج يتلقاه وقد هيأ له النزل ومايصلحه وأعد له ما يناسبه من الاطعمة الرفيعة النفيسة وقدم اليه التمر الجيد واللبن الحليب ولما خرج للقائه أتاه بعضهم بفرس وكان من عادته أن لا يركب واذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع ففعل ذلك ولقى السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث فى ضيافته ثلاثة أيام ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة الى الله تعالى وسأله مع ذلك تمهيد الملك واعتذر اليه بانه لا يمكنه العيش بدونه ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض اذا هو تخلى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل أطيعوا السلطان مولاى عبد الله ولا تختلفوا عليه ثم بعد الثلاث انصرف السلطان الى محله فبقى مدة وهو مسكن مهد الملك فى عافية ثم أتى الترك الى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيرا ولم يهنأ له عيش فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم فقال دعونى منكم حتى أستقى من رأس العين ثم أبرد بريدا الى الشيخ فلما انتهى اليه سمعه يقول يا ترك ارجعوا الى بلادكم ويا مولاى عبد الله هنالك الله فى بلادك بالعافية فتقدم الرسول وسلم على الشيخ وبلغه سلام السلطان ثم انقلب من فوره بعد ما ارخ وقت سماع مقالته فلما بلغ الى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فاذا الخبر قد ورد على السلطان بان الترك قد ارتحلوا وانصرفوا الى بلادهم واذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة ثم ان الشيخ قدم مراكش فى بعض الايام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى فرغب اليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ويصنع لهم طعاما وشرط على نفسه أن لا يطعمهم الا الحلال ولا يطعمهم ما فيه شبهة وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه فلما خرج قيل له مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم الا الحلال فقال له من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة اه ﴿ومما ينخرط فى هذا السلك﴾ أن السلطان المذكور كان له اعتقاد فى الشيخ أبى عمرو القسطلى وكان يعظمه غاية وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقى بها الحر تبركا بها ولما توفى الشيخ أبو عمرو المذكور وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة حضر السلطان المذكور جنازته وحثى التراب على قبره بيده ومن أخبار السلطان المذكور أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسين المغارى كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فارسل اليه السلطان المذكور اما ان تخرج عنى أو أخرج عنك فقال الشيخ ابن حسين بل أنا أخرج وخرج من فوره الى تامصلوحت فكان من أمره ما كان

﴿استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب فى ذلك﴾

قد تقدم لنا فى أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة واستمر ابهما الى ان انتزعهما الترك من أيديهم ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك فى الاستيلاء على المغرب الاقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور

المنطبة وسد أنقابها ادونه ﴿قال فى النزهة﴾ ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة يعني البوغاز وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس ويخليه لهم من المسلمين فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب ولا يجدوا سبيلا اليه فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الاموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة ولما بلغ خبر نزولهم عليها الولده محمد وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلما كان بوادى اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم اه وذكر اليفرنى انه وجد هذه الاخبار فى أوراق مجهولة والله تعالى أعلم

﴿فتنة الفقيه أبى عبد الله الاندلسى ومقتله﴾

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الاندلسى نزيل مراكش متظاهرا بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيرا من العامة فتبعوه وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضى الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهرى ويتفوه بمقالات شنيعة فى الدين فامر السلطان الغالب بالله بقتله فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه ووقعت فتنة عظيمة بمراكش بسببه الى ان قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة وكان ذلك أواسط ذى الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة

﴿ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم﴾

﴿قال فى الدوحة﴾ كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعلات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا فى محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله فانه تزندق وذهب مذهب الاباضية على ما حكى عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الاهواء من الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة وسمعت بعض الفضلاء يقول انه قد ظهر ذلك فى حياة الشيخ أبى العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة ﴿قال صاحب الدوحة﴾ ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ فى شئ وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة فى أئمتهم وانما أصحاب الشيخ كأبى محمد الخياط والشيخ الشطيبى وأبى الحسن على بن عبد الله دفين تافلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين والافاضل الائمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اه ﴿وقال فى المرآة ما نصه﴾ والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية وكان كثير التابعين فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبى أهنت الحكمة فى تلقينك الاسماء للعامة حتى النساء فقال له قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فاقنعنا منهم بان نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبى فوجدته أوسع منى دائرة ﴿قال صاحب المرآة﴾ وانتسبت اليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو برئ من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى يقتدى به فى العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه وقد أظهر واشيأ من ذلك فى حياته فتبرأ منهم وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم قال وحدثنى شيخنا أبو عبد الله النجبى أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث اليالصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع فى نفسه من ذلك شئ فقيل له ان الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه فقال أنا تائب الى الله كفى فى طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان ينفوا ان تلك البدعة المدسوسة عليه

الا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

﴿احتيال النصارى بكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش ومأوقى الله تعالى من شرها﴾

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبي العباس الاعرج وأخيه أبي عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة فحدثتهم نفسهم الشيطانية بان يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه فحفروا في خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملؤها من البارود ووضعوا فيها فتيلا تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع باهله وقت الصلاة فنفطت المنا وانهدت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور وانشق مناره شقا كبيرا ولا زال ماثلا به الى الآن وكان ذلك مبلغ ضررهم وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا وكان ذلك سنة احدى وثمانين وتسعمائة

﴿وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله﴾

﴿قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في شرح درة السلوك﴾ توفي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه اهـ وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيقة أعاذنا الله منه وذكر غيره أنه توفي في شوال بسبب تكلفه للصيام فعدت عليه العلة المذكورة وشاع على ألسنة الناس أنه بات يصلي ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته منيته وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الاشراف وقبره معروف ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الابيات

أيا زائري هب لي الدعاء ترحما * فاني الى فضل الدعاء فقير
وقد كان أمر المؤمنين وملكهم * الي وصيتي في البلاد شهير
فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة * ولم يغن عني قائد ووزير
تزودت حسن الظن بالله راجيا * وزادي بحسن الظن فيه كثير
ومن كان مثلي عالما بحنانه * فهو بنيل العفو منه جدير
وقد جاء ان الله قال ترحما * الى ما ظن العبد بي سيصير

وحكى أن ابنه أبا عبد الله المعروف بالمسلوخ لما قرأ هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له ان في قولك ملقى بحفرة دسيسة وتلويحا الى الحديث القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار فهلا قلت بلقع أو نحوه

﴿بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته﴾

كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة باحوال الملك وتأن في الامور ولما ولي الخلافة ألان الجانب وخفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا وانتعش الناس حتى كان يقال ثلاث عينات هم عيون الزمان السلطان المولى عبد الله والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين المغاري والشيخ أبو السرور عياد السوسي ﴿قال اليفرني﴾ ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمساني الى قاضي الجماعة أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني يقول فيه ولا شك أن مولاي عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد أخبرني الثقة من أصحاب الشيخ الجامع أبي العباس أحمد بن موسى السملالي أنه قال مولاي عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان وقد اشتهر بين الانام وعلى ألسنة الخاص والعام أن السلطان الغالب الله كان عدلا صالحا

ووقع فى الرسالة التى كتبها ابن أخيه السلطان أبو المعالى زيدان بن منصور الى الفقيه أبى زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى ماظاهره يخالف ذلك ويؤذن بانه كان كغيره من الملوك ﴿ونص﴾ المحتاج اليه من تلك الرسالة مخاطبا الفقيه المذكور يقول وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد ابن موسى السملالى كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه ومابرح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل ويولى ويقتل وكان شرد منه الى زاويته المرابط الاندلسى وولد آصناك وأمثالهم وكان الشيخ يقدم الشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فافتحها حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء وعبد الكريم ابن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطى والزرهونى وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لا يحضرنى ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا فى شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان فى عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرقى وأبو عمرو القسطلى وأبو محمد بن ابراهيم التامنارتى والشيظمى وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح فى ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع اليهم فى تدبيره اه القدر المحتاج اليه من الرسالة المذكورة ﴿قال اليفرنى﴾ ومثل هذا ما ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه ومثله ماذكر عنه أيضا أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من العدو فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا قال وهذه أمور شنيعة ان صح أنه فعلها ولست أدخل فى عهدتها الانى اثمارأيتها فى أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظنى انها من وضع بعض أعدائهم لحطه من قدرهم واخراجه اياهم من النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة فلذا تجنبت منها كثيرا من الاخبار التى لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله فقد قال الشيخ تاج الدين السبكى رحمه الله فى طبقاته أن المؤرخين على شفا جرف هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به قال فعلى المؤرخ أن يتقى الله تعالى اه الا أن الملوك لا يستغرب فى حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا امنار رياستهم ويستهونوا عظائم الامور لتطيبهم الرعية ساعة كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله اه كلام اليفرنى رحمه الله ﴿ومن وزراء السلطان الغالب بالله﴾ ابن أخيه الامير الاجل الاديب الاحفل أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء وألطفهم مسلكا وأخفهم روحا وله عارضة فى النظم والنثر ﴿ذكر﴾ الاديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسى فى كتابه الاعلام بمن مضى وغبر من أهل القرن الحادى عشر ما صورته قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدى من مراكش الى فاس ومعه الفقيه قاضى الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى والفقيه الامام أبو العباس أحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم فاس الجديد وتنظى للشوق فى جوانحهم أوار وأبرح ما يكون الشوق يوما اذا دنت الديار من الديار أنشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالا

أخلائى هذا المستقى وربوعه * وهذى نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى * وتلك منازل الديار تلوح

فقال القاضي الحميدي ارتجالا

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد * بهن غوان طرفهن جموح

يمسن كأملود من الروض يانع * شذاهن من حول الديار يفوح

فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالا أيضا

ويرفلن في الحلات يختلن في الحلى * وفيهن أنواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر * لاقبال حب طال منه نزوح

ولما بلغت الابيات الى الاستاذ أبي العباس أحمد الزموري قال مذيلا

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها * كشمس غدت تحت السحاب تلوح

تحلت ربوع المستقى بجمالها * وأنت الى تلك القباب تروح

وبعضهم جعل البيتين الاولين للمولى الاديب أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي وكان كاتبا للوزير المذكور ويجعل موضع أخلائي أمولاي والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكره الاديب المذكور في اعلامه المذكور قال كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الاسفار وأرسلت السماء بغيثها المدرار فقال الوزير المذكور

لله أشكو غداة السفر اذ ركضت * أيدى المطايا وحادى الريح يحدونا

فأجابه الكاتب المذكور

والغيم في الافق قد أرخى ذوائبه * بأسهم الودق لاينفك يرمينا

فقال الوزير

حتى استوى الماء والآكام واستترت * معالم الرشد لاخريت يهدينا

فظلت الخيل في الامواج سابحة * سبح السلاحف نحو الدار يهوينا

فقال الكاتب

والنفس في قلق لبين مألفها * والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا * حتى غدا الطير فوق السرح يفشينا

وأخبار هذا الوزير ونوادره كثيرة وهو الذي أخرج بني راشد من مدينة شفشاون حسبما مر وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة ﴿ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضا﴾ القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج الجنوى وعبد الرحمن بن تودة وقاسم الزرهوني وأحمد الهبطي ومن ولاة مظالمه أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسي وهو والى الشرطة وكان فقيها مشاركا ﴿وذكر بعضهم﴾ أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالي كان في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله قد انحشر الناس لزيارته بزاويته فوقف أبو عمران المذكور يذود الناس عنه ويقول رحمكم الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لاتقل ذلك وقل من جاز خرج ومن كتاب السلطان المذكور محمد بن عبد الرحمن السجلماسي ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما ﴿ومن قضاته بمراكش﴾ الفقيه قاضي الجماعة أبو القاسم بن على الشاطبي وبفاس أبو عبد الله العوفي وأبو مالك عبد الواحد الحميدي رحمهم الله

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله﴾

لما توفي السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس وكان ولي عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش واستأنفوا له البيعة وكتبوا بها اليه فوصلت اليه وهو بفاس أوائل شوال سنة احدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره ﴿قال ابن القاضي﴾ أمه أم ولد وكنيته أبو عبد الله ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة بالمسلوخ لانه سلخ جلده وحشي تبنا كما سيأتي * وكان مما وقع في أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبي غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء وذلك يوم الاربعاء منتصف جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وفي هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي دفين الدعادع على وادي مضى من عمل القصر فانه حمل بعد استشهاده الى الموضع المذكور فدفن بازاء قبر أبيه في الروضة التي هنالك واستمر أمر أبي عبد الله المتوكل منتظما الى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فقدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك فنثر سلكه وبدد ملكه على ما نذكره ويقال انه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبد الملك ففر امنه الى ناحية الترك على ما سيأتي قالوا وكان السلطان المذكور فقيها أديبا مشاركا مجيدا قوي العارضة في النظم والنثر وكان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال باحد ولا متوقفا في الدماء عسوفا على الرعية ومن شعره قوله

فقم بنا نصطبح صهباء صافية * في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا * فان تأخير أوقات الصبا غلط

﴿ومن شعره أيضا قوله﴾

ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم * وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم * ولا سقي هاطل وردا وريحانا

كان خليفته بمراكش القائد ابن شقراء وحاجبه أحمد بن حمو الدرعي وكتابه يونس بن سليمان الشاملي وعلي بن أبي بكر وغيرهما رحمهم الله تعالى

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله﴾

كان أبو مروان عبد الملك بن أبي عبد الله الشيخ السعدي وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما فلما توفي وولي الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد الى تلمسان خوفا على أنفسهما منه فاقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار ثالثة الاثافي ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ومنها ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية متطارحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله فامده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتي ﴿ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع الى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله لانها تنبني على ذلك فنقول﴾ اعلم ان أمر بني أبي حفص أصحاب تونس كان قد مرج في هذه المدة وتداعى الى الاختلال وكان خير الدين باشا التركي المقدم ذكره في أخبار تلمسان قد استولى على تونس في حدود الاربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصي ففر الحسن المذكور الى طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها الى تونس فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادي وتقدموا الى تونس فملكوها وانهزم خير الدين الى الجزائر وشارك النصارى الحسن بن محمد في امرة تونس واستباحوا أهلها قتلا وأسرا ونهبا يقال أنهم قتلوا من أهل تونس الثلث وأسروا الثلث وأبقوا الثلث وكل ثلث ستون ألفا هكذا عند صاحب الخلاصة النقية ثم ملكوا الموضع المسمى بحلق الوادي وليس هنالك واد عذب وانما هو جون دخل من البحر في

البروعليه مرسى تونس ثم بنى النصارى فى الحلق المذكور حصنا عاديا أقاموا فى بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه وبعد ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو حميدة وملك الحضرة مدة وقاتل نصارى حلق الوادى فامتنعوا عليه ثم غزاه على باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها فذهب أحمد الى طاغية قشتالة مستغيثا به شأن أبيه من قبله هذا كله ونصارى الحلق لازالوا متمكنين منه أى تمكن فأمد الطاغية أحمد المذكور باسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه ولما وصل الاسطول الى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة فى الحكم فأنكر أحمد ذلك وأنف منه وذهب الى صقلية فبقى بها الى ان مات وجاء الى تونس وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضى بالمقاسمة ودخل بالنصارى الى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصرانى بها وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع وارتبطت خيل العدا بالجامع الاعظم والقيت ما فيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبى محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه الا الرمل حماية من الله له وحاشى أن تعدو الارض على جسد مثله وأرسل محمد بن الحسن الى الناس بالامان واستمالهم النصرانى بعد بكاذب الرفق فاقاموا بدار مذلة وهوان واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثمانى فأعظمه وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية وهى اصطنبول غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ووصلوا الى حلق الوادى فى الرابع والعشرين منه وكان حيدر باشا صاحب القيروان ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوصبوا عليه وتقدموا الى الحصن الذى بحلق الوادى فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الاولى من السنة المذكورة أعنى سنة احدى وثمانين وتسعمائة واستلموا من به وغنموا ما فيه والتجأ محمد بن الحسن الحفصى وأنصاره من النصارى الى البستيون وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه عنوة وقتلوا من به وامتلأت أيديهم من المغانم وطهر الله بهم البلاد وكانت احدى الوقائع الجليلة القدر الباقية الذكر وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه الى السلطان سليم فاعتقله فى يد قلة أحدحصونه حتى هلك وانقرضت بهلكه دولة بنى أبى حفص التى هى بقية الموحدين ﴿اذا علمت هذا﴾ فاعلم ان استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر لان وفاته كانت فى آخر رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة كما مر وفتح تونس كان فى جمادى الاولى من السنة المذكورة ﴿ووقع فى النزهة﴾ أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وهو غير صواب والله تعالى أعلم

﴿مجىء السلطان أبى مروان عبد الملك بن الشيخ السعدى بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب﴾

(اعلم) انه وقع فى النزهة وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا فى ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفى أبوهما وولى أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فاقاما بها مدة ثم انتقلا الى الجزائر فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثمانى فى أن يمده بجيش ليملك المغرب فتثاقل عنه العثمانى الى ان بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح وعاد اليه بالبشارة فاسعفه وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدما على وفاة الغالب بالله كما مر اللهم الا اذا كان عبد الملك وفد على العثمانى مستعديا على أخيه الغالب بالله وفى أثناء ذلك توفى وولى ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحا وأما ما فى النزهة مما يقتضى تأخر فتح تونس عن وفاة

الغالب بالله فغير صواب كما مر ﴿ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول﴾ لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر فركبا البحر الى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية وزعم بعضهم أن التي كانت معهما مسعودة الوزكيتية وهي أم أحمد منهما فانتهيا الى القسطنطينية وتعلقا بكبراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم ودخلت أمهما داره وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب ويقوموا فيه بدعوته فتثاقل عنهم مدة الى ان كان الغزو الى تونس فكتب السلطان سليم الى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبله فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي وهو صاحب الجزائر أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه فاعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر هكذا وقع في سياقة هذا الخبر وهو يقتضي أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية فلعلهما عادا اليها من عند السلطان سليم الى ان سافرا في جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح الى السلطان سليم فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهما التي تركاها هنالك فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما فكان من قدر الله تعالى ان هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا المركبين أثرا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا الى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث واتصل خبرهما بالصدر الاعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس وقصا عليه الحديث من البدء الى التمام فأعلم السلطان سليما بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فاخبراه وسألهما عن كتاب الفتح فقالا ان أمير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما الى ان فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك ولما رأيا من السلطان سليم تنزلا واهتزازا الكلاءة بهما طلبا منه في بشارتهما أن يبعث معهم العساكر الى المغرب وشفعا في انزال رأس والدهما ودفنه فقبل شفاعتهما ثم أمر بهما الى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما وبعث اليهما بالأم التي كانت هنالك وأرجأ أمرهما الى قدوم الخبر اليقين وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح وظهر صدق عبد الملك وأحمد فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالا وسلاحا وزادا وكتب لهما فرمانا للدولاتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الاقصى ولما قدما على الدولاتي بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا اعلمنا الرجال وعليهما المال وهذه عادتنا مع السلطان ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الاغا والوكيل وأهديا اليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه في وجهتهما تلك الى ان يبعثا به اليهم من المغرب فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج اليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه الى ان يرجع وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به ثم نهض عبد الملك وأخوه الى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما وكتب عبد الملك الى شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم الى ان كان من أمره ما كان وساق اليفرني هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه الى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فاعطتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها الى المغرب فاعطاها ذلك فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان الى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آبائه فطالبه أهل الجزائر بالراتب فقال لهم أسلفوني وعلي القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف ﴿وقال في شرح الدرة﴾ ان عبد الملك طلب من رئيس الترك أن

بعينه بحصة منهم توصله الى تخم بلاده ليدخلها اذ الجند كله جند أبيه لا يمكن ان يقاتلوه و يضربوا في وجهه لتعظيمهم اياه فاسعفه على مراده وأرسل معه عصابة وحصة قليلة فاقبل بهم حتى انتهى الى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الاندلس سعيد الزغالي الى عبد الملك وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤس أجناده ويعد طائعهم ويوعد عاصيهم فلما سمع المتوكل بما فعله جند الاندلس فت ذلك في عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنا منه أن جنده كله سيفعل فعل الزغالي فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه واقامة ملك عمه ويقال ان بعض الجند لما سمع بان القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا الى عبد الملك أيضا جاء الى المتوكل وقال له ان القائد ابن شقراء قد غدر وفر الى عبد الملك وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزما وانتهبت خزائنه وأوقد فيها النار ونفط ما كان بها من البارود حتى رئي من رؤس الجبال ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فاخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه الى مراكش لا يلوي على شيء فلحق به القائد ابن شقراء بوادي النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له في القول ولامه على عدم التأني والتثبت وكان أمر الله قدرا مقدورا

﴿استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك﴾

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل الى مراكش تقدم عمه أبو مروان الى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الاحد سابع ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة من باب الفتوح وبعد ان دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياما ثم طمحت نفسه الى اتباع ابن أخيه الى مراكش ولما عزم على النهوض اليه طالبه الترك بان يردهم الى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم البقشيش فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الانفاض منها النفض الكبير الذي له عشرة أفواه وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ثم رجع الى فاس وفي هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي لامر نقمه عليه وأودعه السجن فبعث الفقيه المذكور أولاده الى الشيخ الصالح أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله فكتب اليه الشيخ أبي النعيم يحضه على الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستمساك بحبله لانه باب الله الاعظم فقبل القاضي اشارته وتوجه الى ربه بكليته فأتاه الفرج من حينه رحم الله الجميع بمنه

﴿نهوض السلطان أبي مروان الى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه الى السوس وما نشأ عن ذلك﴾

ثم ان السلطان أبا مروان نهض من فاس في جنده الذي أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف اليه من جند ابن أخيه وتقدم الى البلاد المراكشية قاصدا حربه وتشريده عنها ولما سمع ابن أخيه بخروجه اليه وقصده اياه تهيأ للاقاته وسار الى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضا على المتوكل وفر برأس طمرة ولجام وأجفل كعادته اجفال النعام وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه الى مراكش فر عنها الى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن أخيه وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين

وتسعمائة

وتسعمائة وأقام بها أياما ثم خرج في طلب ابن أخيه فعميت عليه أنباؤه وسقط بين سمع الارض وبصرها فعاد أبو مروان الى مراكش فأقام بها الى ان كان من أمره مانذكره

﴿استخلاف السلطان أبي مروان لاخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها﴾

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم اليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها فاجابه الى ذلك وولاه عليها ظنا منه ان أمر المغرب قد صفاله وان المتوكل لايعود اليه وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي حاضر الطالبة والعطية فانكر ذلك ولم يره صوابا وقال لاينبغي لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما فغاظ ذلك أحمد وظن انه من سوء رأى عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه فاعرض عن مقالة الوزير المذكور وذهب الى فاس خليفة عليها وبقي السلطان أبو مروان بمراكش وفي هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لاخيه أحمد برسالة يقول فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيده الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من املائه أيده الله ونصره الى أخينا الاعز الاحظى بابا أحمد حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فاعلم انى لا أحب أحدا بعد نفسي كمحبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الامر بعدي اليك لا لغيرك غير اني أعتاد منك التراخي في الامور حتى انك لاتبالي بعظيم الامر ولا تعتبره الى ان يتطرق الى مالا يتلافى جبره من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهد أركانه ويبلغ العدو معها مناه ومراده من ذلك التراخي اهمالك أمر الجند الذى بالعرائش واغفالك له مع مايترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء مادعت الحاجة اليه من المؤنة والبارود والرصاص الذى لايستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث اليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك مع ماعندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لانقبل منك عذرا في هذه المسئلة التى لاتحتاج الى الاهمال ولابد ولابد فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب آصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ويرجع ساعة رؤيته الى عادته من الذل والفرار فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فان الساعة لاتقتضي الا الحزم والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم والسلام اه

﴿ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه الى مراكش واستيلاؤه عليها﴾

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره عن مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحيائها الى ان اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتأشب عليه مايشبه أن يكون جيشا فاستهوتهم منه الاضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم الى مراكش فسمع به السلطان أبو مروان فخرج للقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقا غير طريقه وجاء غير بجفه وقصد مراكش فدخلها باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الا انه لم يتمكن من القصبة لان السلطان أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه الى ان وافى الحضرة فحاصره بها وكتب الى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها فاتاه به أحمد مسرعا ولما انتهى الى مراكش اجتمع بالوزير أبي فارس الوزكيتي فقال له أوقفت على الرأى أول الفكرة آخر العمل فبانت لاحمد نصيحته وزال ماكان يختلج بصدره عليه ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم

المتوكل شيعته من أهل مراكش وفرّ الى السوس فبقي أهل مراكش متمادين على الحصار الى ان اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فادخلوه من بعض الاسوار والانقاب ولما فرّ المتوكل الى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور ومنها وقعة تينزرت التي أنشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي البيتين اللذين قالهما فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما

هو الغيث والبحر الغطمطم في الندى * وليث اذا جد الطعان هصور

يفوق السهام عزمه وانبعاثه * ويقصر عنه في الثبات ثبير

فاجابه أحمد المنصور ببيتي أبي فراس الحمداني وهما

ونحن أناس لا توسط عندنا * لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا * ومن خاطب الحسناء لم يغلها المهر

ومنها الوقعة التي بعدها بالساطين المذكورة وهو في نحو ثلاثة آلاف والمتوكل في نحو ستين ألفا ومع ذلك هزمه المنصور ﴿قلت﴾ كان أحمد المنصور هذا مجدودا محظوظا مسعودا بحيث أربت سعادته على شجاعته وما كان أخوه عبد الملك يسري الا في ضوء طلعته وعين نقيبته فلذا كان يقدمه في الحروب ويستكفي به في نوازل الخطوب ومن سعادته ما اتفق له في ذهابه الى العثماني بخبر الفتح وتقدمه قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببا في استيلائهما على المغرب وستسمع في أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال ان شاء الله وأما أمر المتوكل فانه بعد توالي الهزائم عليه فرّ الى جبل درن وتوغل في قننه ثم فرّ منه الى باديس فاقام بها مدة ثم ذهب الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بعظيم البرتقال والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال

﴿الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها﴾

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتقال واسمه سبستيان بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء وهو طاغيتهم الاعظم وليس قائد الجيش فقط على ما هو المحقق في تواريخهم وتطارح عليه وشكا اليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم بالله وطلب منه الاعانة عليه كي يسترجع ملكه وينتزع منه حقه فاشكاه الطاغية والى دعوته وصادف منه شرها الى تملك سواحل المغرب وأمصاره فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والترمه وحينئذ جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج الى بلاد الاسلام ﴿ومن المتواتر في تواريخ الافرنج﴾ ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتقال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله فصم عن سماع قولهم ولج في رأيه وملك الطمع قلبه وأبى الا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة في جيش ﴿قال ابن القاضي في المنتقى المقصور﴾ عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا ﴿وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن﴾ يقال أن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه قال بعضهم وكان عدد الانفاض التي يجرونها مائتين وقصدوا اهلاك المغرب وحصد المسلمين وادارة رحى الهوان على الدين فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا وبلغت القلوب الحناجر واتقدت بها نيران الهواجر وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال الى بلاد الاسلام رسالة بعث بها الى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه يتغمص عليهم بها في

نكث بيعته ونقضها ومبادءة عمه من غير موجب شرعي وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء أنه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وتهددهم فيها وأبرق وأرعد وقال فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وسمى النصارى أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله ﴿وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا﴾ الحمد لله كما يجب لجلاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وارساله والرضا عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر فانصروه ولا استنصروا به حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله (وبعد) فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب فقولك خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها أعناقنا وعقدناها فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وانما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه وعلى سبيل الحق وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبينه ونسطره لك بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزينه نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الاموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لاحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده وأسسوا لدين الله قواعد وأركانا وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا فلما وصل ذلك اليك ألقت اليك العباد أعنتها وملكتك أزمتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا باغين ولا منكرين الى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادرا له بدفعها ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك فما هو الا أن جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص وجنودك تناديك ولات حين مناص فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها وخلفتها للعدو لك ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك لن تتركنا والى من تكلنا فلم تلتفت اليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الاموال والعدد الوافرة والرجال والاسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد الى الحريم والاولاد والطارف والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين الا الله تعالى الذي قال في مثلهم ومن أصدق من الله قيلا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فما أمكنهم بعد هروبك عنهم واسلامك لهم فوضى مهملين الا النظر في أمرهم واعمال الفكر في التدبير على أنفسهم فبينما هم على ذلك اذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته سالكا في ذلك سبيل أبيه رحمه الله وحجته حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر اذ كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ واخوانهم لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك الى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتى تم له الامر وانتظم فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده فلم ينازعه أحد في ذلك الى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك وعهد اليك فلم ينازعكم أحد فأبى الله الا الحق فاعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك فان سلمت هذا فأي حجة تدلي بها وأي طريق تعتمد عليها وان أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد اذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك بخلافته صحيحة لبيعة جدك له فلم يبق

الا التغلب الذى تدلى به فى مسئلة عمك وفى قيامه عليك فان كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين فى السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك اذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا فلم يبق بينكم الا والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك اذ هو أكبركم فى هذا التاريخ ﴿فان قلت﴾ ان ما عقده الجد غير صحيح ﴿قلنا﴾ فقد ذكر الامام الماوردى رحمه الله ورضى عنه فى كتاب الاحكام السلطانية له فى باب عقد الخلافة ان عبد الملك ابن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه أحد فى ذلك ﴿فان قلت﴾ فعل عبد الملك ليس بحجة ﴿قلنا﴾ سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم فى زمانه هو الحجة اذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل واقرار أهل العصر الواحد على مسئلة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذى هو حجة الله فى أرضه * وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة ﴿قال القاضى﴾ أبو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم يعنى لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذى تقلده من أمرهم وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام وفى الاكمال نفسه قال القاضى والذى عليه الناس ان القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم أن يتفقوا على امام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود فلما أسلمتهم وأضحوا بغير امام وعمك يدلى بحجته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح وأيسوا من رجوعك اليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الا على وجه المكابرة فاطمأن الناس وسكنوا وانقطعت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية ﴿فان قلت﴾ كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك ﴿قلنا﴾ انما يلزمهم القتال ان لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعى لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها ايه ثم وصلت الى مراكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادى والامصار وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار فلقيك أهلها بالترحاب والسرور وأنواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شئ فاما أسوارها ورحابها فهى كما قيل تربة الولى ومدرج الحلى وحضرة الملك الاولى والبرج النير الجلى فخلتها وتمكنت من أموالها وخزائنها ووافقك أهلها فلم ينكثوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك فى سلطانك ولا أنكروا فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنود الايجمعها ديوان حافظ ولا يعهدها لسان لافظ فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول والرماة قد ملأت الهضاب والتلول فما كان من حديثك الا أن وقع القتال وحضر النزال بادرت هاربا محكما للعاده تاركا للرؤساء من أجنادك والقاده فخلت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم أيدى المنايا فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ثم أسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ولا قال لك أحد لست بعلها فعملوا على القتال معك والتمنع بأسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس فيالها من مصيبة ما أعظمها ومن داهية ما أعضلها ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت اليهم أيدى السفلة من الفسقة فاى حجة تبقى لك بعد هذا وأى كلام لك بين الرجال يا هذا ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها فى لطف الله سبحانه وهم

يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية فانقذهم الله به أيضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج واطمأنوا وسكنوا ثم هربت للجبل عند صاحبه فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمائهم وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الامن والامان فانت وهم في استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل

ان هو مستوليا على أحد * الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة ثم خربت العامر وأفسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر فلما رأى أهل السوس الاقصى ذلك أيقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام وأهله فتنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل في خلف كجلد الاجرب ﴿فان قلت﴾ ان أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه ﴿قلنا﴾ لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس والاجماع على صحة بيعته وسمى من تخلف عنها باغيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار تقتلك الفئة الباغية فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه والحديث من اعلام نبوته عليه الصلاة والسلام والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ولا يعد خلاف من خالفه خلافا وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين والاخذ في التخليط العظيم على المسلمين فانك اتفقت معهم على دخول آصيلا وأعطيتهم بلاد الاسلام فيالله ويا رسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها وعلى المسلمين فتقتها ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تمالك ان ألقيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ﴿قال أبو حيان رحمه الله﴾ أي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم ﴿وفي كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلي رحمه الله﴾ أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم وهم ما هم في استنصار ابن عباد الاندلسي بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فاجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء وانه متى طرأ الكفر وجب العزل وناهيك بقول النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالسمع والطاعة وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعك وسقوط بيعتك فلم يبق لك الا منازعة الحق سبحانه في حكمه ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴿وأما قولك﴾ في النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ففيه المقت الذي لا يخفى ﴿وقولك﴾ رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما كونك اعتقدت ان المسلمين كلهم على ضلال وان الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثاني انك استعنت بالكفار على المسلمين ﴿وفي الحديث﴾ أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده بحرة الوبرة موضع على نحو أربعة أميال من المدينة فقال له يا محمد جئت لأنصرك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تؤمن بالله ورسوله فقال لا أفعل فقال له عليه الصلاة والسلام اني لا أستعين بمشرك ﴿وما سمعته﴾ من قول العلماء رضي الله عنهم في الاستعانة بهم انما هو على المشركين بان نجعلهم خدمة لا زبال الدواب لا مقاتلة فاما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قلبه وراء لسانه وقد قيل قديما لسان العاقل من وراء قلبه ﴿وفي قولك﴾ يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله

﴿وقولك﴾ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ايه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ماقلت ففي الحديث يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفا ﴿ولما سمعت﴾ جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية وتجدد لهم نور الايمان وأشرق عليهم شعاع الايقان فمن قائل يقول لادين الادين محمد صلى الله عليه وسلم ومن قائل يقول سترون ماأصنع عند اللقاء ومن قائل يقول وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ومن قائل يقول انما قصد التشفي بالمسلمين اذلو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا ورضي عنهم وبارك فيهم فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان فلو لم يكن منهم الا ماغيرقلوبهم عن الدين لكان كافيا في صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نورغضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الايمان ﴿وقولك أيضا﴾ متبرئا من حول الله وقوته فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط أنماء سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثم زال نبوه الآن بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها ﴿وأما مانسبته﴾ لامام دار الهجرة فكفاك عجزا أن لم تعين لنا نصا جليا نعتمد عليه فيما تحتج به الا انك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لامعربا بنصه ﴿ومانسبته﴾ للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر فهو مما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان فعدولك عن ذلك الى الحنفية اما قصور واما الغاء لمذهب مالك رضي الله عنه وهو النجم الثاقب ﴿وأما قولك﴾ أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك الا لو أقمت دين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلك أم لا فاما اذهربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لاعلينا على انك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره وقد قال العلماء رضي الله عنهم من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد ابن رشد والقاضي أبي الفضل عياض وكيف لاتنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان كيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين هل حصلوا على شئ مما قصدوه أو بلغوا شيأ مما أملوه على ان أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله ﴿وقد افتخرت﴾ في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعولت على بلوغ الملك بحشودهم وأنى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وفي الحديث﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار مابين لابات الدنيا ﴿وعنه﴾ صلى الله عليه وسلم أنه قال سيقاتل آخر هذه الامة الدجال ﴿وعنه﴾ صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فاعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فاعطانيها وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فاعطانيها وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والكل عليك واياك نعني ﴿وماذكرته عن عمك﴾ فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد ان ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له والاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامخ المبين فلوسمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك وقضى ماهنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه مايجعل الله فيه البركة ولولا ان الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها اذلا اعتماد له أيده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده والناس على دين الملك وقد قاتلت وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية فأي نحس وشؤم حل لابيار الروم فان

جلبتهم

جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد ارجع الى الله أيها المسكين وتب اليه فانه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله وهذه نصيحة ان قبلتها وموعظة ان وقفت اليها والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام انتهت الرسالة ﴿وكان خروج﴾ محمد بن عبد الله بجيش البرتغال وفصوله به من طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة ﴿قال في المرآة﴾ انهم لما خرجوا الى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر وكانت أصلا قد تصيرت اليهم قبل ذلك باشهر يعني بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها وفشا النفاق لاجل السلطان محمد بن عبد الله الذى معهم ولاجل بعد صريخ المسلمين فان السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان اذذاك بمراكش فاستبطؤا وصول الخبر اليه ثم مجيئه بعد ذلك فلم يبق لهم تدبير الا الفرار والتحصن بالجبال وغيرها فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي رحمه الله وكان اذذاك بالقصر لرجل من أصحابه ناد في الناس ان ألزموا بلادكم ودوركم فان عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش وان النصارى غنيمة للمسلمين ومن شاء فليعط خمسين أوقية في النصراني يشير الى مبلغ قيمة النصراني في الغنيمة فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا اهـ ﴿وقال في النزهة﴾ ان النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل فأعلم أهلها السلطان أبا مروان وكان بمراكش وشكوا اليه كلب العدو عليهم فكتب السلطان أبو مروان من مراكش الى الطاغية ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدوة فان ثبت الى أن نقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع والا فانت كلب ابن كلب فلما بلغه الكتاب غضب واستشار أصحابه هل نقيم هنا حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا فقال له محمد بن عبد الله الرأى ان نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر فاعجب ذلك الرأى أهل الديوان ولم يعجب الطاغية وكتب السلطان أبو مروان لاخيه أبي العباس أحمد وكان نائبه على فاس وأعمالها أن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ للقتال ثم كتب اليه أيضا في شأن مؤنة الجيش كتابا يقول فيه من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نصره الى أخينا الاعز الانجب بابا أحمد ابن مولانا الوالد حرس الله كريم اخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فانا كتبناه اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والنعم الضافية هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وابلاغه الى مدينة سلا وقدر ذلك صحفة شعير وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك وبايصاله الى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنه والسلام اهـ ثم كتب السلطان أبو مروان الطاغية ثانية وذلك بعد ما وصل الى القصر انى رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل الى واحدة فرحل الطاغية من موضع يقال له تاهدارت ونزل على وادى المخازن بقربة من قصر كتامة وكان ذلك من السلطان أبي مروان مكيدة ثم ان الطاغية تقدم بجيوشه وعبر جسر الوادى ونزل من هذه العدوة فامر السلطان بالقنطرة أن تهدم ووجه اليها كتيبة من الخيل فهدموها وكان الوادى لا مشرع له سوى القنطرة ثم زحف السلطان أبو مروان الى العدو بجيوش المسلمين وخيل الله المسومة وانضاف اليه من المتطوعة كل من رغب في الاجر وطمع في الشهادة وأقبل الناس سراعا من الآفاق وابتدر واحضور هذا المشهد

الجليل فكان ممن حضره من الاعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره ﴿وقال في المرآة﴾ كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين وأظنه الميسرة من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله قال فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم وحملت عليهم النصارى فثبت الشيخ وثبت من كان معه الى ان منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون والشيخ لم يتزلزل ولم يلتفت منذ توجه الى قتالهم حتى فتح الله عليهم اهـ ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفي السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الاولى وكان مريضا يقاد به في محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ انه لم يطلع على وفاته أحد الا حاجبه مولاه رضوان العلج فانه كتم موته وصار يختلف الى الاجناد ويقول السلطان يأمر فلانا أن يذهب الى موضع كذا وفلانا أن يلزم الراية وفلانا يتقدم وفلانا يتأخر ﴿وقال شارح الزهرة﴾ لما توفي السلطان أبو مروان لم يظهر الذي كان سائس المحفة موته فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجند السلطان يأمركم بالتقدم اليهم وعلم أيضا بموته أخوه وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ولم يزل الحال على ذلك والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤس الحام الى ان هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم القدر وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر فولى المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتقال غريقا في الوادي وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا الا آثارها فخشعت نفوسهم وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار فكان ذلك من أكبر الاسباب في استئصالهم وأعظم الحبائل في اقتناصهم ولم ينج منهم الاعدد نزر وشرذمة قليلة ﴿وقال في المنتقى المقصور﴾ كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى انها أشبه شيء بغزوة بدر ﴿حدثنا﴾ شيخنا أبو راشد يعقوب البدري ممن يثق به ان الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق الى النصراني لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتا اهـ وبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله المتصرخ بهم والقائد لهم الى مصارعهم فوجد غريقا في وادي المخازن وذلك انه لما رأى الهزيمة قرناجيا بنفسه واضطر الى عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشي جلده تبنا وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد وممن وجد صريعا في القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر الشريف الشفشاوني صاحب الدوحة فانه كان قد هرب مع المسلوخ وكان من بطانته فدخل معه بلاد العدو فوجد بين جيف النصارى قتيلا وتكلم الناس في أمره حتى قيل أنه وجد على شماله مستدبر القبلة وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامام الشهير أبي محمد عبد الله الهبطي رحمه الله في منظومته التي نظم فيها أصحاب أبيه معتذرا عن ابن عسكر المذكور ومشيرا الى توهين ما قيل فيه

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر * محمد أخو الدهاء عسكر
وان يكن أتى بذنب ظاهر * فعرضه من الشكوك طاهر
رأيته في النوم ذا بشاره * وهيئة حسنة وشاره

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ويوافقه من التاريخ المسيحي اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة ﴿قال في المنتقى﴾ وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين ﴿وقال في المرآة﴾ وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب اذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة الا ان الغنيمة لم تقسم وانما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي وكان

الناس يتوقعون مغبة الاختلاط الاموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هذه الغزوة وأبلى فيها بلاء حسنا وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشئ وبلغت قيمة النصراني ماذكره الشيخ وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبى مروان قبل هزيمة النصارى وكان مريضا فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يحتفل بامر الغنيمة فتم له ماقصد ﴿وقد ساق﴾ منويل فى تاريخه خبر هذه الوقعة مساقا حسنا فقال لما استولى عبد الملك السعدى المدعو عند أهل المغرب بمولاى ملوك على ملك المغرب وطرد ابن أخيه مولاى محمد المعروف بالا كحل يعنى المسلوخ ذهب أولا الى اصبانيا وتطارح على طاغية الاصبنيول فليب الثانى فى أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل اشبونة وتطارح على طاغية البرتقال سبستيان فاجابه وذهب الى خاله طاغية الاصبنيول فليب المذكور آنفا وطلب منه الاعانة على ماهو بصدده فوعده بان يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش لانه كان يرى انها تعدل سائر مراسى المغرب ثم أمده بعشرين ألفا من عسكر الاصبنيول وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفا من البرتقال وثلاثة آلاف من الطاليان ومثلها من الالمان ومن متطوعة الاصبنيول وغيرهم عددا كثيرا وبعث اليه البابا صاحب رومة باربعة آلاف أخرى وبالف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء الى قادس ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت اليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه فى الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فليب حذره عاقبة التوغل فى أرض المغرب فصم عن ذلك كله وجاء الى قادس ومنها خرج الى طنجة وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا الى بلاد المغرب وزحف اليهم السلطان عبد الملك فى عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفا وزيادة ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا وقواد الجيش أبو على القتورى والحسين العلج الجنوى ومحمد أبو طيبة وعلى بن موسى وأخوه أحمد بن موسى الذى كان عاملا على العرائش فجاء فى جمعه الى السلطان عبد الملك وانضم اليه ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ثم استدعى النصارى الى القتال ونصب لهم علامته فاحجموا وكان قصدهم المطاولة وقصد السلطان عبد الملك المناجزة وذلك لان محمدا المسلوخ قد دس اليه من سمه ﴿قال منويل﴾ ولما أحس عبد الملك بذلك وانه لامحالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت فى الجهاد وكان المسلوخ يتربص كى يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة فى عسكر المسلمين لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فالجأهم ذلك الى المناجزة ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك لحينه ﴿قال منويل﴾ وكان أمر هذا الرجل عجبا فى الحزم والشجاعة حتى انه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه كانه يشير الى جيشه أن يسكتوا عن الخوض فى وفاته حتى يتم أمرهم ولا يضطربوا وكذلك كان فانهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لا كفاء له فكانوا يذبحونهم مثل الكباش ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب وزادهم دهشا أن بعض طوابيرهم كان ينادى صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو ووقدت النار فى بارود النصارى فنفط وانهزموا الى وادى المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقى أسره المسلمون وزعم ان سبستيان هلك تحته فى ذلك اليوم أربعة أفراس وكان شابا حدثا وقال لاصحابه ان ترونى ترونى أمامكم وان لم ترونى فانا فى وسط العدو أقاتل عنكم قال وأبدا أو عادفى ذلك اليوم الى ان خر قتيلا وبقى مذكورا عند البرتقال يسمرون باخباره وذكره شعراء الاورباقى أشعارهم ولا زالوا يذكرونه الى الآن وخلفه فى ملكه الطاغية الريكى البرتقالى فهو الذى ولى بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى ان هلك الطاغية الريكى وتولى على البرتقال طاغية الاصبنيول فليب الثانى فصار ملك

الدولتين معا وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة الى اشبونة ثم أرخ منو يل الوقعة بالتاريخ العربي والعجمي موافقا لما مر فهذا ما ذكره في هذه الوقعة ﴿قال في النزهة﴾ توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي ان شاء الله ﴿قال في درة الحجال﴾ فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك في يوم واحد وهم أبو مروان بن الشيخ وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ والطاغية سبستيان وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور اه ﴿قلت﴾ وفي اهلاك الثلاثة وإقامة الواحد اشارة واضحة لاهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم والله تعالى أعلم ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم أعني القائم بالامر بعد سبستيان لان التحقيق انه كان الاعظم يومئذ لما مر بعث الى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده الى فاس كما سيأتي يلتمس منه الفداء فيمن بقي بيده من الاسارى فاجابه الى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة ﴿وذكر بعضهم﴾ ان الاسارى لما ذهبوا الى بلادهم قال لهم الطاغية لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملككم فقالوا والله امتنع من ذلك الامير الذي كان علينا فامر بهم فاحرقوا جميعا مضحكة ﴿قال في النزهة﴾ ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفني من فني منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله اه ﴿وقد وقفت﴾ على تاريخ لبعض مؤرخي الفرنج الحجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بانها كانت سبب هلاك البرتقال وتلاشي دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم اليه طاغية الاصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ومن فصول كلامه بعد ان ذكر ان أكثر البرتقال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه وكانت يعني الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤما (وبالجملة) فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثاني ملك اصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها اه كلامه الا انه ذكر أن السبب في استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتقال هو تغلب الاصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ولعله تصحف عليه لفظ الاصطنبوليين بالاصبنيوليين اذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان انما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثماني والله أعلم وقد ألم بهذه الوقعة أيضا لويز مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين واشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلاما هذه ترجمته وقد كان مخبوأ لنا في مستقبل الاعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس البالغ في النحوسة الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح وانقضت فيه أيام العناية من البرتقال وانطفأ مصباحهم بين الاجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل ابان الغنى والربح وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب اه فهذا كلام هذا البرتقالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليعتبر به من يقف عليه * والحق ما شهدت به الاعداء * ولما تمت للسلطان أبي العباس المنصور البيعة بوادي المخازن طالبه الجيش بارزاقهم واستنجز واعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانهم جعلوها نهبي ولم يقتسموها على الوجه الشرعي كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعيين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه في عطائهم ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات الى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب الى صاحب القسطنطينية العظمى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك

عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم فى نحرهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد ان شاء الله

﴿بقية أخبار السلطان أبى مروان وسيرته﴾

﴿قال ابن القاضى﴾ كان سبب وفاة السلطان أبى مروان رحمه الله أنه سقى سما وذلك ان قائد الترك الذين كانوا معه واسمه رمضان العلج بعث الى بعض قواده أن يتلقاهم بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مروره عليه وقصد بذلك قتله وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله اهـ ولما توفى حمل الى مراكش فقبر بها وكانت مدة خلافته أربع سنين ومن حجابه القائد رضوان العلج وكتابه محمد بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوى وقضاته قضاة والد أخيه وكان يتزيا بزى الترك ويجرى مجراهم فى كثير من شؤنه وكان يتهم بالميل الى الاحداث وربما كان يظهر ذلك وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كما مر وكانت له فيه محبة تامة وكان يظهر أنه ولى عهده ويرشحه لذلك كثيرا حسبما أفصحت عنه رسائله التى كان يبعث بها اليه ﴿ولنذكر﴾ ما كان فى هذه المدة من الاحداث ﴿ففى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة﴾ كان الوباء بالمغرب كما قدمنا ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة﴾ نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلأت منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الآبار ﴿وفى سنة احدى وستين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى من أولاد أبى السباع ودفن بزاويته على ضفة وادى تانسيفت من أعمال مراكش وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل ﴿وفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ الامام أبو محمد عبد الله بن محمد الصنهاجى الطنجى المعروف بالهبطى وكانت وفاته فى ذى القعدة من السنة المذكورة وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن فوائده ما حكاه عنه فى الدوحة قال سألت شيخنا الامام أبا محمد عبد الله الهبطى عن الشيخ أبى محمد الغزوانى وكان من أصحابه فقلت له يا سيدى ما لأكابر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزوانى كأبى الحجاج التاليدى وأبى البقاء اليالصوتى وأبى الحسن على بن عثمان وغيرهم يصرحون بقطبانية الشيخ وينسبونك أنت الى التقصير فى حقه حيث لم تقل بما يقولونه فقال لى رضى الله عنه وقد علمت معنى الشهادة فى الشرع ما هى فقلت نعم فقال لى كيف لى أن أشهد لاحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لى عنه فان فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له وأى شهادة تشهد فى الشيخ فقال لى أشهد أنه من العارفين بالله تعالى وانه كان يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال انتهى ﴿قلت﴾ وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة وتجد كثيرا ممن عقله وراء لسانه يتقولون على الله فى غيبه ويخبطون خبط العشواء وينسبون المقامات والاحوال لمن ليس منها فى قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنه ﴿وفى سنة أربع وستين وتسعمائة﴾ فى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلى العظيم ﴿وفى سنة خمس وستين وتسعمائة﴾ كان بالمغرب وباء عظيم كساسهله وجباله وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها ﴿وفى سنة احدى وسبعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبى فارس عبد العزيز التباع والشيخ أبى العباس أحمد بن يوسف الراشدى ثم المليانى ﴿وفى سنة ست وسبعين وتسعمائة﴾ ليلة عيد الاضحى منها توفى الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجى ثم الفرجى الدكالى المعروف بالمجذوب الولى المشهور

دفين مكناسة الزيتون كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده الى مكناسة فمات بها ﴿وفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة﴾ بعد صلاة الجمعة من أول يوم من المحرم منها زلزلت الارض زلزالا شديدا وفزع الناس لذلك * وفى هذه السنة فى الحادى والعشرين من ربيع الاول منها توفى الشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين من شرفاء بنى آمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ماجرى بينه وبين السلطان الغالب بالله ﴿وفى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة﴾ وذلك أواخر شوال منها الموافق لاواسط مارس العجمى حدث بالمغرب جراد كثير وفى أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهودا ثم ظهرت فى أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر فى الجو من الناحية الشرقية تبعتها فى الارض أجناد الترك التى جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كامر وفى أيام السلطان أبى مروان المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير فى برج العقرب وطلع أياما ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى أثره كان خروج البرتقال من طنجة ووقعة وادى المخازن كامر والله تعالى أعلم بغيبه

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى العباس أحمد المنصور بالله السعدى المعروف بالذهبى وأوليته ونشأته﴾

كانت ولادة السلطان أبى العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبى عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وأمه الحرة مسعودة بنت الشيخ الاجل أبى العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتى الوارززاتى وكانت من الصالحات الخيرات وستأتى بقية أخبارها ﴿وذكر فى المنتقى﴾ قال مرض المنصور فى صغره مرضا شديدا حتى أيس منه فرأت أمه فى النوم شخصا يقول لها أزيريه الشيخ أبا ميمونة فانما أصابته عين فأزارته اياه فعوفى وكان أبوه المهدى ينبه على أنه واسطة عقد أولاده ﴿قال فى مناهل الصفا﴾ حدثنى الشيخ المسن القائد أبو محمد مؤمن بن الغازى العمرى أن المنصور أقبل يوما فى حياة أبيه وهو صبى والمجلس غاص بالاكابر فاندفع يخترق الصفوف قال فصاح بى المهدى اذ ذاك وأنا أصغر القوم فقال يامؤمن ارفعه فسينفعك أو ينفع عقبك فابتدرت حمله وكان كذلك فان المنصور لما أفضت اليه الخلافة كان القائد مؤمن بن الغازى عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية ونشأ المنصور رحمه الله فى عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة لاهله عليه وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم الى ان تم أمره ﴿حدثنا﴾ الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن على الجزولى الدرعى أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن السلطان أبى عبد الله الشيخ وأولاده قال فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لانه كان أصغرهم سنا يومئذ فقال لى بقى منهم من لم تذكره فقلت له أحمد فقال ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم فكان كذلك ﴿وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالى﴾ لما أخذ المهدى البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جدا وقال له ان الفائدة فيه أو كما قال وهكذا كان ينبه على انه واسطة عقد أولاده وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وأنواره تشرق قال فوقع فى نفسى أن أسأله عن نصيبى من الخلافة فكاشفنى عليه الصلاة والسلام بما فى خاطرى وأجابنى بما حقق لى نيلها ثم أشار لى بأصابعه الثلاث الشريفة ضاما الابهام منها الى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين اهـ ﴿وقال﴾ الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامنارتى فى كتابه الفوائد الجمة باسناد علوم الائمة أخبرنى الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغى صاحب الحسبة بتارودانت أنه رأى فى منامه كأنه فى حلقة يسرد فيها صحيح البخارى بموضع من دار الخلافة بها وأبو العباس المنصور يومئذ بها وذلك قبل ولايته قال فرأيت فى طرة الكتاب هذا اللفظ ورى الزند فكنت أتأمل معناه فالتفت فاذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع فى نفسى أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له ياسيدى مامعنى هذه الكلمة التى فى طرة هذا الكتاب

فقال

فقال لى قل لمولاك أحمد أنا الذى أوريت زندك مادمت على الحق فان عدلت عنه فانا برىء منك فقلت له ومن أنت ياسيدى فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يمض الا قليل حتى ولى الخلافة وحمدت سيرته قال أبو زيد ونا هيك بزند أوراه النبى صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على ان ولاية الاسلام لا تنعقد الا بامر النبى صلى الله عليه وسلم وقد اشتهرت المرائى بذلك ويقرب من هذا ماذكره صاحب ابتهاج القلوب فى مناقب الشيخ المجذوب أن الشيخ الصالح أبا عبد الله محمدا الملقب بكدار ابن الشيخ أبى زكريا يحيى بن علال المالكى البوخصيبى رأى النبى صلى الله عليه وسلم يوما فشكا اليه أولاد مطاع لما رآهم عليه من الفساد فى الارض فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يأتيهم أحمد فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فاخذهم وفل جمعهم اه وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة وكان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الخدين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة أسود الشعر أدعج أكحل ضيق البلج براق الثنايا حسن الشكل جميل الوجه ظريف المنزع لطيف الشمائل وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارى بوادى المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة واجتمع عليها من حضر هنالك من أهل الحل والعقد ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادى المخازن ثم بعث الى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة وسارعوا الى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة * قال الفشتالى * لما كانت وقعة وادى المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الامر للمنصور كتب الى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثمانى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شأفتهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثم تلته ارسال طاغية البرتقال وهو الريكى القائم بامرهم بعد هلاك سبستيان وليس خاله وانما خاله طاغية الاصبنيول فيلب الثانى الذى جمع المملكتين معا بعد هلاك الريكى المذكور وبعد وقعة وادى المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريس والعجل فعجب الناس منها عجبا بليغا وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة ألف دكات من ريال الفضة وأما الطرف النفيسة والاثاث الرفيع فشئ لا يحصى ثم وردت ارسال طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التى انتزعها الطاغية من تاج آبائه وصنيديق مملوء من الدر الفاخر وقضب الزمرذ وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعنى هدية البرتقالى وهدية الاصبنيولى أيهما أعظم ولم يهتد أهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت ارسال السلطان مراد العثمانى ومعهم هدية وهى سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثم قدمت ارسال طاغية افرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور والارسال تصبح وتمسى على أعتاب تلك القصور الى ان لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس اليه وحينئذ اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار * وفى جمادى الاولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة * مرض المنصور مرضا مخوفا وطال به حتى كادت الامور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبى عبد الله محمد الطبيب ولما أبل من مرضه أحسن الى الطبيب المذكور ونثر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوما مشهودا وفى ذلك يقول الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد ابن على الهوزالى المعروف بالنابغة

ترى أذى من سقمك البر والبحر * وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مسهدا * وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

فلما أعاد الله صحتك التى * أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها * وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام فى كل بلدة * يهنى ويدعى أن يطول لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها * وعادت الى الايناع أغصنها الخضر
ولا غروان صامت على سمط الندى * اذا اغبر وجه الارض واحتبس القطر
لبيت أبى العباس انضت عجافها * قديما تخاف أن يعاودها الضر
لئن صدئت بيض المعالى لقد غدت * تسىء الكماة البيض والدن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذماره * ويحميك رب العرش مابقى الدهر

﴿عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المأمون﴾

﴿قال الفشتالى﴾ لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحة أجمع رأى أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولى عهده وكان المنصور مهيبا لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البادئ لذلك القائد المؤمن ابن الغازى العمرى لما له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور يامولانا الله تعالى حفظ الاسلام بابلالك من هذا المرض وعصم الدين بابقائه عليك وقد بقى الناس فى أيام سقمك فى حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش مالا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ويشار بالخلافة اليه لكان أولى وأليق بسياسة الملك وان ابنك الابر أباعبدالله محمدا المأمون حقيق بذلك وجدير بسلوك تلك المسالك لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ماهو عليه من التيقظ فى أموره والحزم فى شؤنه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته واطلعوا على جميل سريرته فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به فقال له سوف أستخير الله فى ذلك فان يكن من عند الله يمضه ﴿قلت﴾ هذا الذى حكاه الفشتالى على لسان القائد مؤمن فى حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا ان شاء الله ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لابحسب الواقع غالبا لاسيما اذا كان من يعنونه بذلك مخدومالهم ومنعما عليهم فلا ينبغى لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه الابعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادى الى الصواب بمنه ثم لبث المنصور بعد هذه الاشارة أياما يستخير ربه فى ذلك ويستشير من يعلم أهليته للشورة من أهل العلم والصلاح فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الاشارة جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس وغيرهم من أشياخ القبائل ووجوه الناس من أهل الحواضر والبوادى وأوصى بالعهد لولده المذكور أبى عبدالله محمد المأمون وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة وكان المأمون اذ ذاك خليفة أبيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث اليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب ولما بعث اليه خرج المنصور بعسكره الى تانسيفت خارج مراكش ثانى عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة ولم يزل بعسكره هنالك متلوما ومنتظر القدوم المأمون الى ان قدم غرة جمادى الثانية من السنة المذكورة فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافى القدم فعفر وجهه بين يدى والده ثم قبل رجله والمنصور على فرسه واقفا بين الصفين فدعا له بخير وأظهر الفرح بقدمه وكان المأمون قد عبا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتبهم ترتيبا حسنا فى لباسهم وسائر أمورهم فسر المنصور بذلك وبعد أيام من بلوغه أمر به فاجلس فى سرادقه

الاعظم

الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتى وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضرته وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالنوال وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع الى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذى قصده

﴿ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب فى ذلك﴾

﴿قال الفشتالى﴾ لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الاجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وهو ابن أخى المنصور وفر الى جبل سكسيوة وشق العصا ودعا الى نفسه فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم ونجم أمره وأثر فى أذن الرعية جمجمته فبعث اليه المنصور قائده الزعيم أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فناوشه القتال بجبل سكسيوة فهزمه وفر الى جبل هوزالة فتحزبوا عليه وقويت بهم شوكته وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة الى ان ضاقوا به ذرعا فشكوا أمره الى المنصور فبعث اليه قائده الذى ذكر فلم يزل فى مقابلته ومقاتلته الى ان شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه الى الصحراء واستقر به الرحل بها عند عرب الوداية من بنى معقل فلم يزل عندهم الى ان هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره

﴿حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثمانى وتلافى المنصور لذلك﴾

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الى السلطان سليمان العثمانى وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذى كان سببا فى تملكهما المغرب ولما صفا الامر لعبد الملك أهمل جانب العثمانى ولم يكاتبه بشئ ولا عرج على ساحته ثم لما ملك المنصور وكتب الى النواحى بخبر وقعة وادى المخازن كتب الى السلطان مراد فى جملتهم فبعث السلطان المذكور الى المنصور بالهدية التى تقدم ذكرها وكأن المنصور استقلها وأنف منها فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببا للنفرة وكان وزير البحر للعثمانى واسمه الرئيس على علوج يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القدح فى ولاية الترك والطعن عليهم وقال له فى ذلك قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك ولم يزل يفتل له فى الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أذن له فى توجيه العمارة اليه ومنازلته والاخذ بمخنقه الى ان يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته ويقال ان السلطان مرادا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة الى الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر فى البر الى المغرب فأخذ الوزير فى التأهب لذلك واتصل الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل النجليز فارتحل الى فاس من حينه وحصن الثغور وملأ المراسى وكان على أهبة وكمال استعداد وبعث ارساله الى السلطان المذكور بهدية عظيمة لا فيها المافرط واعتذار اعما سلف وكان من جملة ارساله القائد الانجد أبو العباس أحمد بن ودة العمرانى والكاتب الشهير أبو العباس أحمد ابن يحيى الهوزالى فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى وبينما هم فى أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج فى أسطوله قاصدا ديار المغرب عازما على منازلة المنصور به فلما رآهم سقط فى يده وأيقن بخيبة مسعاه فراح صدهما عما قصدا اليه وأيأسهما من تدارك الامر وقال لهما ان الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض فى المسالمة ما بقى أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادى أظلم فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة الى أن صرفه عن رأيه ورده معه وترك الهوزالى يبلغ الرسالة والهدية ظنا منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام وابن ودة الذى كان عنده مظنة لكمال التدبير ومثافنة الملوك رده معه فلما انتهى الهوزالى الى السلطان مراد ودخل عليه أظهر

من تودد ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه ولا يفيد غلبة خصمه فقبل السلطان مراد الاعتذار وتقبل الهدية بقبول حسن وكتب مع الهوزالي الى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور فرجع بها الهوزالي يطير سرورا ولم يغب عن علوج الانحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك فقرع لها علوج سن الندم وأسف على تفريطه في الهوزالي وتركه وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالي الى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين الى مرسلهم وبعث معهم الفقيه الامام قاضي الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن علي الشاطبي والقائد الانجد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيظمي المريدي فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح ورتب الشاطبي كلاما بليغا أعرب فيه عن فضل الدواتين وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى المنصور وحض فيه على اتحاد كلمة الاسلام وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز أسماعه ثم بعد أيام أحسن اليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين الى مرسلهم ﴿وقال صاحب خلاصة الاثر﴾ كان المنصور موادعا لسلاطين آل عثمان فيرسل اليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد بن سليم كتب اليه أثناء مكاتبه لك على العهد أن لا أمد يدي اليك الا بالمصافحة وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة وكانت رسله دائما تأتي الى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الاديب محمد الامين الدفتري فقد ذكر صاحب خلاصة الاثر ان هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها الى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة وقد ذكر صاحب خلاصة الاثر في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره ولما تكامل هذا الغرض وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الارسال في أحسن الاحوال عاد المنصور الى مراكش وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه سردا على عادة الخلفاء في ذلك وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة

﴿ايقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك﴾

قد قدمنا في أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ما كان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها ولما أدبرت دولة بني مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحاشوا اليه وأظهروا الخدمة والنصيحة فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدي لابي حسون كما مر فلما غلب المهدي على المغرب وصفا له أمره خلعهم من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المنصور فرأى جلادهم يوم وادي المخازن وحسن بلائهم فاختار النصف منهم ورده الى الجندية وأبقى نصفهم الآخر في عمار الرعية ونقلهم الى آزغار فاستوطنوه حينا من الدهر ثم عاثوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور فضرب عليهم سبعين ألف غرامة فلم يزدادوا الا عتوا وشدة فارسل اليهم ليبعثوا طائفة منهم الى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث اليهم القائد موسى بن أبي جداي العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ثم حكم السيف في رقابهم واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم ولانت للعامر قناتهم

﴿استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما﴾

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه الى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف الى ذلك من القرى والمداشر اذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تسعهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر الى ما يراد منهم فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم الى أمر الله فبعث اليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة والقائد أبا العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي في جيش كثيف فقطعوا اليهم القفر من مراكش وانتهوا اليهم على سبعين مرحلة منها فتقدموا اليهم أولا بالدعاء للطاعة والاعذار والانذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياما ثم كان الظهور لجيش المنصور فأوقعوا بهم وأثخنوا فيهم الى ان أذعنوا للطاعة وصاروا في حزب الجماعة وأنهى خبر الفتح الى المنصور فسر بذلك سرورا عظيما وقال الشعراء في ذلك وعم الفرح بلاد المغرب وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور الى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره ان شاء الله

﴿تلخيص القول في سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامي الى هذا التاريخ﴾

اعلم ان هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ويجاور البربر بارض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالي ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكوا ويقال كاغوا ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضا سغاي ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم وهم أهل مملكة برنوا المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا الى آخر الشرق أمم لا يحصيهم الا خالقهم ﴿فاما أهل مملكة غانة﴾ فقد كانوا في صدر الاسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم وكانت حاضرة ملكهم هي غانة وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمرانا ذكرها صاحب نزهة المشتاق وصاحب المسالك والممالك وغيرهما * وقال الفقيه الاديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية ما نصه غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهي التجار يعني من المغرب والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ودون ذلك وسبب ذلك ان الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع في غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة أجمال أو بجملين وواحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل فاثمان أجمال الثلاثين جملا يجتمع فيهما من التبر ما يجعل في مزود واحد فيطوون المراحل للخفة قال وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الاسلام في أهلها وبها مدارس للعلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والامن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدما للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الابدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الانوف وبياض الاسنان وطيب الروائح اه ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح ﴿وقال صاحب نزهة المشتاق﴾ انه صالح بن عبد الله

ابن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال ولا يعرف صالح هذا فى ولد عبد الله بن حسن
وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد اه ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة
الخامسة واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلى البربر وزحف اليهم الامير
أبو بكر بن عمر اللتونى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك فى أخبارهم
فلما رجع الامير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر واقتضى منهم
الاتاوات وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام فدانوا به ثم اضمحل ملك أهل غانة
بالكلية وتغلب عليهم أهل مملكة صوصوا المجاورين لهم واستعبدوهم وصيروهم فى جملتهم ثم ان
أهل مالى كثروا وأمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الامم المجاورين لهم فغلبوا على صوصوا
وملكوا ما كان بايديهم وبايدى أهل غانة ثم افتتحوا بلاد كوكوا وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى
متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ومن
هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبى بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين
السلطان أبى الحسن المرينى من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره وكان مع السلطان منسا موسى
المذكور الاديب الشاعر أبو اسحق الطويجى الاندلسى الذى بنا له القبة المربعة العجيبة الصنعة
البديعة النقش والتحريم التى أجازه عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما ذكره فى أخبار
الدولة المرينية وكان منها أيضا السلطان مارى زاطة الذى هادى السلطان أبا سالم المرينى وأغرب عليه
بالزرافة حسبما تقدم قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد
أمر سلطانهم يختل حتى لقد انتهى الحال به فى سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذى كان من الذخائر
الموروثة عندهم وهو حجر بزن عشرين قنطارا من الذهب العين منقولا من المعدن كذلك من غير
علاج ولا تصفية بالنار فكانوا يرونه من أنفس الذخائر وأكبر الغرائب لندور مثله فى المعدن فعرضه
منسا زاطة على تجار مصر المترددين الى بلده فاشتروه منه بابخس ثمن ثم أصابته علة النوم وهو مرض
يطرق أهل ذلك الاقليم كثيرا وخصوصا الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشى النوم عامة زمانه حتى لا يكاد
يفيق ولا يستيقظ الا فى القليل من الاوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سقمه الى أن يهلك ودامت
هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعمائة ثم توارث بنوه الملك من بعده
فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول وظهرت دولة آل سكية
من أهل مملكة كوكوا ويقال كاغوا ﴿قال الامام التكرورى فى كتابه نصيحة أهل السودان﴾ أن آل
سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم
السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر
المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم فلقى بمصر
الخليفة العباسى اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ حتى محاه السلطان سليم العثمانى
أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور
طلب منه أن يأذن له فى امارة بلاد السودان وأن يكون خليفته هنالك ففوض اليه الخليفة العباسى
النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده
وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهاج أهل السنة ولقى بمصر أيضا الامام شيخ
الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطى فاخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام وسمع عليه
جملا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع الى السودان ونصر السنة وأحيا
طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العباسى فى مقعده وملبسه وسائر أموره ومال الى السيرة

العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال وبرئ جسد الرشاد من الداء العضال وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين محبا للعلماء مكرما لهم يفسح لهم في المجالس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيأ خفيفا من المغارم وظفه عليهم وزعم انه مافعل ذلك حتى استشار الامام السيوطي شيخه ولم يزل على سيرته المذكورة الى أن اخترمته المنية فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد فاحسن ماشاء وتبع طريقة أبيه الى أن لحق بربه ومضى لسبيله فقام بالامر بعده ولده اسحق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه ولم يكن في أمره بالذميم واستمر حاله على الانتظام الى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه وتثرت سلكه وانقرض عليه أمر آل سكية بعد ان كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان وسنذكر كيفية ذلك ﴿وأما مملكة التكرور وكانم﴾ فقال ابن خلكان مانصه كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس باسم هذه البلدة وتكرور اسم للارض التي هم فيها وسمي جنسهم باسم أرضهم اهـ ﴿قلت﴾ وكان من كانم الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الاسود الشاعر وهو الذي دخل على يعقوب المنصور الموحدي فانشده

أزال حجابه عني وعيني * تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن * بعدت مهابة عند اقترابي

وأهل كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة ومابعدها مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالي مع بني مرين ﴿قلت﴾ ومن أهل برنوا الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرنوي شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع في مناقبه كتاب الذهب الابريز واتصل أمر أهل برنوا على الانتظام الى ان كان من أمرهم مع المنصور ماسنذكره وكل هؤلاء الامم كانوا على دين الاسلام قديما كما رأيت وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء كما علمته آنفا وتعلمه فيما بعد ان شاء الله تعالى ﴿قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السوداني في تقييده المسمى بمعراج الصعود﴾ ان أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنو وكتي وبرنوا وسغاي ماسمعنا قط أن أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قريبه وكأهل برنوا وسغاي اهـ وقد علمت أن أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ والله تعالى أعلم ولنرجع الى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول

﴿وصول هدية صاحب برنوا الى المنصور بحضرة فاس ومانشأ عن ذلك﴾ ﴿من بيعته له والتزام طاعته﴾

كان المنصور رحمه الله مسعودا محظوظا كما أشرنا اليه سابقا وكان من سعادته ماهيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنوا ومخاطبته له حتى كان ذلك سببا في مبايعته له والدخول في طاعته وكان من خبر ذلك ماحكاه في مناهل الصفا قال وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنوا من ملوك السودان وجلب في هديته ماجرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه وكان من ذلك عدد كثير ينا هز المئتين فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا حسنا وأبهة وجلالة جلس نصره

الله تعالى بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه وهو آفراك واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه الى باب المعسكر القبلي وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوبا به والمهابة قد أخرست الالسن وأخشعت القلوب والابصار فجلس الرسول هنالك مليا ثم توجه به على سبيل الترقي الى القبة العربية فجلس بها ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقرّ أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرّف بالنظر الى طلعته السعيدة فأدّى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولي العهد وتاج الاسلام وكافل الامّة بعد والده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء فاشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة واستدرج الى ان وصل لقباب ولي العهد ومضاربه وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيي وفدّى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس وأدرّ عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له في حساب وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدّة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان وأخفق سعيه ولم يحصل على طائل فوجهه في هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول جرّ اليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء والكتابة لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري توات وتيكورارين وأمّل أن يجعلهما ركابا لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التي وجه اليها عساكره بعد ذلك فبلغت مملكة مالي عظيم السودان الى ان وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتدّ به على صاحب برنو ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذ ذاك عن مراده ورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش فأزال اللبس وبين الغرض وصرّح بالمقصود فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء الى التي هي أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد اليها وقرّر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يشدوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه اذ هو الكافل لهذه الامّة ووارث تراث النبوّة وقيضه الله لحماية بيضة الاسلام وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة باجماع من علماء الاسلام وأئمة السنة الاعلام وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم أيده الله الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ويوفي الغرض لئلا يخلوا بشئ

من الشروط التى شارطهم عليها أمير المؤمنين فانشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالى ونصها الحمد لله الذى أعلى لكلمة الحق منارا ساميا فى مطالعها النجوم وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم وحى على الفلاح بها داعى التوفيق الذى نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم وشرف هذا الوجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنية العلوية التى صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعه واستبان الحق بتبلج الصباح فى مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعه ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التى هى بسيف النبوة المصلت مقطوعه وبلسان السنة مدفوعه وقوض بها مبانى الادعاء التى هى على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعه وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التى هى على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعه وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها الدين المحمدى سيف الانفة والامتعاض وأشار للاعادى من بأسها المروع بلسان الحية النضناض وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجارى على حصاعد لها الرضراض ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والاقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض وجلى بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التى ادلهم جوها وغيم وأسعد الوجود بيمنها الذى لبث فى أكناف مجدها وخيم وقضى لها بتراحم الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعه ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعه وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه نبى الرحمه وشفيع الامه وعلى آله وأصحابه الكرام أئمة الهدى ومصابيح الظلام والدعاء لمولانا الامام العلوى الهمام أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين وسليل الوصى والسبطين وبعد فانه لما أذن الله فى ليل الجهالة أن ينجاب وفى شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب وفى العز الخلق الجلباب أن يعود الى الشباب وفى النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب وفى الامارة أن تستند الى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع بأسباب تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية والامامة الهاشمية العلوية ففاضت على أديم البسيطة أنوارها وارتفع الى حيث السها والفرقدين منارها وتبلج بالاصباح نهارها ولاحت فى سماء المجد بدورها وأقمارها وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها وانتشرت فى الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها وفاض ببركتها على أكناف المعمور عبابها الزاخر وتيارها خلافة ينتمى الى النبوة عنصرها وتستنبط من رسالة الوحى أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وامامة على وليها والله نصيرها والسبط بدرها الذى حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذى اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء اماما ألقى الله فى القلوب حبا جميلا ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعى لخلقه وعباده كفيلا وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله فى الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين المفترضة طاعته على الخلق أجمعين والممنون بامامته المقدسة على العالمين بحر الندى والباس وعصمة الله للناس أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين وطيب بأنفاس المغفرة لحودهم أجمعين امام تهتز لذكره أعطاف المنابر وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر وتستضىء البلاد بأكليل شرفه الزاهر وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر أبقى الله أيامه

الغر بقاء يصحب النصر دوامه وخلده ولاعقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامه ولما طلعت أيده الله
على هـذه الاصقاع الزنجية طلائع امامتـه النبوية وخلافته ولاحت فى سمائها شهب مناقبه المنيفة
الدالة على فخامة شرفه وانافته وتليت لمجده الآيات البينات التى تشهد له بتراث الرساله وتقضى له على
الاسـلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفاله وأوضح الله سبحانه للنـاس من اعتقاد وجوب طاعتـه
والاقتداء بامامتـه والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ماجاء به كتابه الحكيم وورد به سنة نبيه
الكريم كما قال عليه السلام لا تزال الخلافة فى قريش ما بقى منهـم اثنان وكما ورد فى صحيح الخبر ان
الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار وفى الحبشة الاذان ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان فلا
ناكر ان ليس فى المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان فنهض بدليل الشرع انه امام الجماعة حقا
المستوفى شروطها والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الاسـلام أن يحوطها وأن القائم
بهذا الامر على الاطلاق غـيره دعى ومحاوله دون اذنه المشروع بدعى فتعين لذلك أن الرجوع الى الحق
فريضـه واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقى فى الشروع محلها المشروع منبوذة ومن فوضـه
وعروتها الذلك مفصومة ومنقوضه فانتدب لهذه الآثار وصحيح الاخبار وصرف الى رضا الله العنايه
ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الرايه ومنتهى الغايه الرئيس أبو العلاء ادريس أكرمه
الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق على حضرة الاخلاص والتصديق وأخذت بزمامه السعادة
الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق والتأييد صاحب ورفيق وروض الآمال أنيق وراح
الراحـة والاطمئنان عتيق الى تقلد بيعـة امام الجماعة أمير المؤمنـين المنصور بالله زاده الله تقديسا
وتشريفا التى تؤسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان وتشـهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن
وآثر أسعده الله أن يؤدى فرضها المعـدود من فروض الاعيان وحكمها الذى توجـه به خطاب الشرع
العام الى القاصى والدان وينشر سنتها المشروعة فى صقعه وما يليه من الاصقاع والبقاع بالسودان تقلدا
يستضيء ان شاء الله بأنواره ويستشرف به للعز المكين على مناره ويخمد به للجهل جذوة ناره وتنتظم
به فى اتباع الحق زمر أنصاره ويجتلى به صورة انسانه ويسـتوجب من الله عوارف صنعه واحسانه
ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه ويقرع به لرضا الله باب القبول ويتضاعف له ببركته
العـمل المقبول ويستنشق بمشـهد عقـده الكريم نواسم النبوه ويعود له به الزمان للشباب والفتوه
ويرفع به منار الامارة على قواعد الشرع الوثيقه ويعدل به فى كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقه وتتسنى
له به وهى المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى الاسوة الحسنة بامامى بنى العباس السفاح والمنصور ويحيى
سنتهما التى نقلها ثقات الاعلام والصدور فى مبايعتهما الامام الخليفة المهدى الاكبر سليل سيد المرسلين
وجـد مولانا أمير المؤمنـين الذى رأى امام دار الهجرة أنه بتراث الخـلافة النبوية أولى وأحق وفى
منصب الامامة على شرطها أعرق وبسريرها ومنبرها أليق فتأكد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار
الشريفه والمناقب المنيفه العزم والقصد وأنجز له فيما أراده صادق الوعد وساعدته نيته الصالحة فيه
السعد فبايعه أعلى الله يده على الامن والامانه والعفاف والديانه والعـدل الذى يشـيد للمجد أركانه
مبايعة شائعة على عقدها الكريم أكرم الله اتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق
الشديدة الوثاق وبجميع الايمان الصادقة الايمان أعطوا بها صفقة أيديهم ورفع بها العقيرة مناديهم
عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهـم وأمضوها على السمع والطاعه والانتظام فى سلك الجماعه امضاء
يدينون به فى السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشـده والازمان المشتده والتزموا شروطها
طوعا واستوعبوها جنسا ونوعا بنيات منهم خالصـة صادقه وعدة من الله بالخير لهم سابقه وسعادة
بالحسنى لاحقه أبرموا عقدها وأحكموا وعدها وعهدها على حكم الكتاب والسنة والجماعه والاخذ

بسنتها

بسنتها أعقابا عن أعقاب وأحقابا اثر أحقاب الى يوم القيامة واقتراب الساعه لا يلحق عقدها الكريم فسخ ولا يعقبه بحول الله نسخ ولا يتطرق اليه نقض ولا نكث ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضه والأيمان اللازمة المغلظة هو وأتباعه اجماعا شرعيا وحتموه على أنفسهم حتما مقضيا واعتقدوه اعتقادا أبديا وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفرادا وأزواجا وحدانا وأفواجا وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة للصدور قائلين بالله الذى لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات والخبير بالآجال الوفيات وبجميع الرسل الكرام والانبياء وملائكة الرحمن فى الارض والسماء وعلى انهم ان حادوا عن هذا السبيل وانقادوا للدعاء داعى التغيير والتبديل أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته ومستوجبين لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته وبعداء من رحمته ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمته وانهم خالعون لربقة الاسلام وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام أعلنوا بهذا اعلانا تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى استرضاء لله وللخلافة النبويه والامامة العلويه ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقيبه واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبه مستنسلين الى الله بالقلوب الخاشعه ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعه فى أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم والعهد الصميم بدأ وختاما وأن يخصهم بركته التى تصحبهم حالا ودواما لا رب غيره ولا خير الا خيره أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء ادريس أسعده الله وأكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية انتهى ﴿ولما كتبت﴾ هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه الى بلاده بجواب مرسله ولم يلبث ان رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة وخاض القفر الى دار الخلافة فوصل الى بلاد تيكورارين وهنالك اعترضته منيته فاعتل وهلك فاشخص أولوا الامر الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه فوصلوا بها الى حضرة أمير المؤمنين بمراكش وقدموا اليه رسالتهم وهديتهم فتقبلها بقبول حسن وتم السرور وعظم الحبور واستقامت للمنصور الامور

﴿بعث المنصور رسوله بالدعوة الى آل سكية وكيفية ذلك﴾

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبى العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لاجله ردهم المنصور الى صاحبهم مكرمين وانتخب رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذى بتغازى بين المغرب والسودان ومنه يحمل الملح الى أقطار السودان وظيفا بان يجعل على كل من يحمل منه شيأ من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين لكل حمل تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لان ذلك بحر لا ساحل له وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام لا لغيره وأنه ليس لاحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول وكانت من انشاء العلامة الاديب مفتى الحضرة المراكشية المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى لان كاتب الانشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى كان مريضا ومنذ ولما فرغ الشريف المذكور من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول فى مخاطبة

اسحق سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغل فى المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير فى ذلك الى المنصور بما نصه أيدكم الله ونصر أعلامكم أن مخاطبة هذا الرجل الذى هو فى مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تعلثم فيه لسانى ووقف عن خوض لجته بنانى لان النأى عن هذه المحجة قد مد بينى وبينها حجابا وأغلق فى وجهى بابا فلا آمن من أن تحم الوقوع فى تفريط أو افراط وخير الامور لو علمته الاوساط لكن لا سبيل الى معرفته الا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت أيدكم الله الصدر لمن هو به منى أقعد وتحاميت عقده لمن هو له أعقد أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم والا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقول القائل

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه * لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان اسحق سكية واطلع عليها اشق عليه ذلك وماطل فى الجواب وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها ولما فتح تيكورارين وتوات قوى عزمه على ذلك وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره ان شاء الله

﴿مفاوضة المنصور الملأ من أصحابه فى غزو آل سكية وما دار بينهم فى ذلك﴾

﴿قال الفشتالى رحمه الله﴾ لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بانه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية وأنه لا تجب طاعته عليه شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأى والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا فقال لهم المنصور انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغوا وبعث الجيوش اليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية ولان بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الاسلام ويشتد تساعد كتيبته مع أن صاحب أمرهم والمتولى لسلطنتهم اليوم معزول عن الامارة شرعا اذ ليس بقرشى ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى فلما انثل المنصور ما فى كنانته وأبدى ما فى خبيئته وعرض ما فى عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشئ فقال لهم أسكتم استهوا بالرأى أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى فاجاب كلهم بلسان واحد ورأى متفق أن ذلك رأى عن الصواب منحرف وأنه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحاء تقصر فيها الخطا وتحار فيها القطا وليس فيها ماء ولا كلأ فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شئ من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ودولة الموحدين على عظمها ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشئ من ذلك ولا تعرضوا لما هنالك وما ذاك الا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها وحسبنا أن نقتفى أثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون أعقل من الاول فلما قضى أولئك الاقوام كلامهم وأبدوا الله رأيهم وملامهم قال لهم المنصور ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى وفيلتم به رأيى فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندى أما قولكم بيننا وبينها صحارى مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق فى كل وقت ويخوضون فى احشائها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا ولم تنقطع قطر ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك فاعلموا أن المرابطين صرفوا اعتنايتهم لغزو الاندلس ومقابلة الافرنج ومن بذلك الساحل من الاروام والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلمسان

ونحن

ونحن اليوم قد انسد عنا باب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فقتالهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء وأيضا فان بلاد السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لانه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فانه كم ترك الاول للآخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستحلوا اشارته واستجادوا رأيه وقالوا والله قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ولم تبق لاحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول فانفصل الجمع على البعث الى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه ﴿قلت﴾ وفي كلام المنصور أمران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ما قاله من أن اللمتونيين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بارض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لان ذلك كان بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها واعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر الثاني ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجودا فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لاول دولة بني مرين كما مر اذ ظهوره في تلك المدة كلا ظهور والله تعالى أعلم بحقائق الامور

﴿استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمذه لهم﴾

قالوا ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث الى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الاسد ﴿وممن أجازه﴾ الامام العارف بالله أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنه * ومن بعض فصول اجازته له قوله يمدح كتاب المنصور اليه ويثني عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه ولقد وصل الى المثل العديم المثال المزري نظامه بعقود اللآل فاذا به السحر الا أنه الحلال ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن عبد الله كراما كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله الى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه فامن خارق في الامة الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه وأما ما شرفني به من طلب الاجازة فالبيت والحديث له ولكن رب أب أرسل الى ابنه على يد عبده عطاء فقبله واليه بامره جمله وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد من جميع ما يجوز لهذا العبد بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الامر وكذلك مجاز أهل العصر اجازة عام بعام ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام فانه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريرا في رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن اهـ ﴿وممن استجازه المنصور أيضا من علماء مصر﴾ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب ذيل الديباج فأجازه اجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله

أجزت لمن تفضل واستجازا * وبادر لاقتناء الخير وحازا
وأبرز في سلوك العلم حالا * به من فضل مولانا يجازي

امام كامل غوث البرايا * أمير المؤمنين حوى مجازا
وذلك بعد تشريفي بأمر * وقصد للاجازة فاستجازا
فبادرت امتثالا قدوسعي * ومقتفيا مناهج من أجازا
وقد أبديت حقا لامحالا * بما صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى * وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا امام * بما أبداه من فضل مجازا
وأرجو منه يهدي لي دعاء * لما أرجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغني مراما * بجنات أراها لي مفازا
وأشياخي يبلغهم رضاء * ويوصلهم الى خير مجازا

﴿تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المأمون وما وقع في ذلك﴾

قالوا وفي شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على اخوته خصوصا لانهم كانوا في البيعة الاولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسما لمادة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مراكش الى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي ليأتيه بولي عهده المذكور من فاس فتوافى القصدان بتامسنا وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيحان للشيخين وقرئ ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي وبجنبه القاضي أبو القاسم الشاطبي يفسر ما أشكل من لفظ الظهير ﴿ولما أخذ البيعة﴾ أخر أولاده الى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له ووقع في رسالة السلطان زيدان لابي زكرياء بن عبد المنعم الاامام بذكر هذه البيعة قال اني حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له الا أنا فانه رضي الله عنه قال فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم لاجله الكراهية اه ﴿ولما فرغ﴾ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلا من أولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في نفوسهم احن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن فعقد لابي فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائره وعقد لابي الحسن على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لامر اقتضاه الحال فنقل زيدان الى مكناسة ونقل أبا الحسن الى تادلا ولم يزالوا على ذلك الى ان كان من أمرهم ما نذكره في محله ان شاء الله

﴿ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله﴾

قالوا وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط وتسمى بامير المؤمنين وكان في ابتداء أمره حائكا فتلبس بالزهد والصلاح واعتقدته العامة ثم استحال أمره الى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه الى مراكش وانقطعت مدة فساده فلم تبكه أرض ولا سماء

﴿بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله﴾

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهي بنت الشيخ الاجل أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الوارززاتي من الصالحات حريصة على اقتناء المفاخر راغبة في فعل الخير ﴿قال في المنتقى﴾ وهي التي أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافا عظيمة وكان ذلك

سنة خمس وتسعين وتسعمائة قال وهى التى بنت جسر وادى أم الربيع وغير ذلك اهـ ﴿قلت﴾ المرقوم على رخامة قبرها انها بنت جسرين بلفظ التثنية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك انهم ادخلت بستانا من بساتين قصورها وهى فى حال الوحم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما فى نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها ومنها الجامع المذكور ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها الى الآن فيقولون عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان فى أسجاع غير هذه ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر فى مثل هذا والله تعالى أعلم

﴿بعث المنصور بيلة الرخام الى جامع القرويين من فاس حرسها الله﴾

﴿قال ابن القاضى فى المنتقى المقصور﴾ ان المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة الى جامع القرويين من فاس مع كرسى من المرمر توضع عليه وزنهما معا مائة قنطار قال وهى الخصة التى تحت منار الجامع المذكور ﴿وقال ابن القاضى المذكور فيما نقش برقبتها

امام دار الهدى المنصور شيدنى * بحر المكارم من أبناء عدنان
حزت المفاخر بالمنصور أجمعها * ومن علاه سنام المجد أرسانى
من جاء يشكو الظما يوما وقابلنى * أغناه ما قدهمى من صوب أجفانى
لا تنكرن وجود الدمع من فرح * فالعين تدمع من افراط سلوان
واشرب هنيئا من السلسال لا حرج * معين دمع جرى من فيض خلجانى
فخر السلاطين من أبناء فاطمة * أشاع صيتى الى أطراف عمان
وقد جرت مقلتى تحكى سحائبها * كف الخليفة من أبناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما * ما هيجت عاشقا ورق بأفنان
انشائى فى زمن التاريخ وافقه * للدين والاجر بحر الجود سوانى

﴿وفى هذه السنة﴾ أعنى سنة ست وتسعين وتسعمائة فى ذى الحجة منها سافر المنصور الى فاس وبينما هو فى الطريق وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وان زعيم العسة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطوانى كمن لهم مع جماعة من الفرسان فى موضع خروج النصارى باولادهم وحشمهم فجال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها وسر المنصور بهذا الخبر وأنشده فى ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما

هذه سبتة ترف عروسا * نحو ناديك فى شباب قشيب
وهى بشرى وأنت كفؤ اللواتى * كافأت بعلها بفتح قريب

وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة فى اليوم الثانى من ذى القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك أى على الفرار بانفسهم فتركوها يبابا وذهبوا وفى ذلك يقول أبو العباس ابن القاضى

يا أيها المنصور أبشر بالعلى * فالله أبلغ فى العدا المأمولا
أنضا كم سيف الحتف عداته * وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم * من غير سيف لم يرى مسلولا
وأذيتم كيد الخبيث بهمة * وفتحتم دار العدا آصيلا
أكرم به من مالك بل صالح * أضحى لبارود العداة خليلا

لا زال في أنف الهدى شمماوفي * عين العلا يشاكل التكحيلا

وأشار بقوله لبارود العداة خليلا الى ماصنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلا فانهم حفروا تحت قصبتها وملؤا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيلا لا تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصراني منهم وأخبر المسلمين بذلك فنجاهم الله تعالى من مكيدة الوبال وكفى الله المؤمنين القتال وقال في ذلك أيضا الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالي شعراذ كره صاحب نشر المثاني فانظره وكان في زمان المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة في قتال العدو منهم أولاد النقسيس التطوانيون ومنهم أولاد أبي الليف من أهل بلاد الهبط ﴿قال في المرآة﴾ لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة على ما كان عليه ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر يسعى به الى المنصور فامر برحيله الى فاس هو وعشيرته متغربين عن وطنهم كأنهم في سجن فأقاموا بفاس مدة لا أدري هل هي سنة أم أكثر الا اني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا اذ ذاك صغير ويعني بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله قال فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوما المقدم عمر لأخيه كبيره المقدم محمد لو زارنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فان الناس كثيرا ما يقصدونه في المهمات فقال له لا أتحرك فقد غلب اليأس فسار المقدم عمر وحده فلما وصل الى الشيخ قال له فنطتم قال نعم ياسيدي فقال له الشيخ غدا يخلى سبيلكم ان شاء الله فرجع الى أخيه وأخبره فلما كان من الغد بعث اليهم القاضي أبو محمد عبد الواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم أبشروا بالسراح والرجوع الى الوطن ان شاء الله فانه قد قرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها فقال السلطان أو غيره ترى هل بقي في هذا الزمان من يماثلهم فقالوا قد بقي من يفعل فعلهم وهاهم أولاد أبي الليف المغربون هنا يفعلون مثل ذلك فقال السلطان سرحوهم الى بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا في سبيل الله فرجعوا الى بلادهم وفعلوا الأفاعيل في عدو الدين الى ان استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنين وألف اه

﴿غزو السودان وفتح مدينة كاغو وقتل سلطانها اسحق سكية رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقي المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى الى ان كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوي عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج اليه الجيش من آلة السفر ومهماته وأمر القواد أن يقوموا احصاء القبائل وما يحتاجون اليه من ابل وخيل وبغال وان من أتى بجمل ضعيف دعاقب واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء وألف النجارون ذلك في البر الى ان تألف ثم خلعوه وشدوه أحمالا واستمر الحال الى ان استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين ثم أمر باخراج المضارب والمباني لوادي تانسيفت فخرجت الاحمال والانقال من مراكش في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجلها عشرون ألفا ومعهم من العلين البحرية والطبجية ألفان فالمجموع اثنان وعشرون ألفا وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جوذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة فاختار منهم من يعلم نجدته ويعرف كفايته وتخير من الابل كل بازل وكوماء ومن الخيل كل عتيق وجرداء ثم نهضوا في زي عظيم وهيئة لم ير مثلها وذلك في محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة وكتب المنصور الى قاضي تنبكتو

الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجي يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة ولما تم ضوامن تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوي ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافي فقطعوها في مائة مرحلة ولم يضع لهم عقل بعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتوا ثغر السودان فأراحوا بها أياما ثم صاروا قاصدين دار اسحق سكية ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال انه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل (قال القشتالي) ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتى أضاف اليها أشياخ السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنا منه أن ذلك يغنيه شيأ وهيهات ويرحم الله أبا تمام اذ قال فيما يقرب من هذا الحال

السيف أصدق أنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة * بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبا الباشا جوذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر وكانت سلاحهم انما هي الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأ ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الادبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جوذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن اخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جوذر يقتلون ويسلبون في كل وجه وفر اسحق في شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه وتقدم جوذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الاموال والمتاع وكان ذلك منتصف جمادى الاولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة ويقال ان جوذر لم يدخل مدينة كاغو وانما تحصن بها اسحق فحاصره جوذر فيها وكتب الى المنصور بخبر الفتح وبعث اليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك وامتدت العساكر المنصورة في بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبي وتغنم الى أن راسل اسحق الباشا جوذرا في تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة فأجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه ثم كتب الى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الارض فاتفق رأي الامراء على الرجوع والاقامة بتنبكتوا الى أن يأتي جواب المنصور فرجعوا وأخذ جوذر في انشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها في النيل ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرا خفيفا وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جوذر وقلده أمر العساكر كلها وعزل جوذرا عنها وأمر محمودا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العسكر يعاتبهم ويوبخهم على ما فعلوه مع اسحق من الصلح ويؤكد عليهم في الرجوع الى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الاخرى وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان الحر في وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر وقطع القفر في خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتوا على رأس سنة الالف فأراح بها ثلاثا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فسار وافي النيل وسار السواد الاعظم في البر الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك اسحق سكية وكان اسحق لما رجعت عنه العساكر الى تنبكتوا احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت فلما بلغه رجوع العساكر الى كاغو اقصدهم في جموعه ولما التقى الجمعان لم يكن

الامقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القتام في الجو وهدير الطبول وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون الى أن غشيهم ظلام الليل ورجعوا بالغنائم والسبي فاستراحوا ثلاثا ثم أمر محمود أخاه جوذر أن يقيم بمدينة كاغو عاصمة الهاو يترك معه عددا من العسكر يكون ردءا لهم وسار هو في اتباع اسحق الى ان لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر في فل من قومه فعبر النيل الى العدوة الاخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره في السفن وسار خلفه الى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل اسحق القفر فهلك فيه ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذي كان ينازعه في الملك فانه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف الى محمود باشا فنهض اليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كليا وكتب بخبر الفتح الى المنصور ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيدا من الاعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب وأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الاسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابقت الخيول وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم وأجازهم بما تحدث الناس به دهرا وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت الى جميع الآفاق وكان مما قيل في ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي فقال

جيش الصباح على الدجا متدفق * فبياض ذا السواد ذلك يمحق
وكأنه رايات عسكرك التي * طلعت على السودان بيضا تخفق
لاحت وأفقهم ليال كله * كمود صبح في الدجا يتألق
نشرت لتطوي منه ليلا دامسا * أضحى بسيفك ذي الفقار يمزق
أرسلتهن جوانحا وجوارحا * في كل مخلبها غراب ينعق
وسرت فكان دليلهن اليهم * مشحوذ عزمك والسنان الازرق
لمى الليالي قد جلى أحلاكها * نور النبوة من جبينك يشرق
صعقتهن رعود نارك صعقة * رجت لصيحتها العراق وجلق
سحقا لاسحق الشقي وحزبه * فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه * من جيش جوذرك الغضنفر فيلق
جيش أواخره ببابك سيله * عرم وأوله بكاغوا محدق
لم يشعروا الا وأسوار الردى * ضربت عليهم من قناك وخندق
كتب الاله على عداتك أنهم * قنص لسهمك غربوا أو شرقوا
ضلت ملوك ساجلوك على العلا * سفها وشأوك في العلى لا يلحق
ان يشبهوك ولا شبيه يرى لكم * في الخلق أين من اللجين الزئبق
بشر ملوك الارض أنك فاتح * بالمشرفي على الولا ما اغلقوا
وبقاصل لك ذي الفقار مفرق * ما جمعوه وجامع ما فرقوا
دامت طيور السعد وهي غوارد * بالمشتهى لك والمسرة تنطق
مادام أصل علاك في صحف الثنا * أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورى بهما هذا الشاعر وسيأتي الكلام عليهما وكان محمود باشا لما استوسق له الامر هنالك بعث بنصف جيشه الى المنصور مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لا يحصى من ذلك ألف ومائتان من مختار الرقيق الجواري والغلمان وأربعون حملا من التبر وأربعة سروج

ذهبا خالصا وأحمالا كثيرة من اليانبور وقطوط الغالية وغير ذلك ولما وافت المنصور سر بذلك سرورا عظيما وأمر بعمل المفرحات فى بلاد المغرب وبتزيين الاسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر وانتظمت الممالك السودانية فى سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر ﴿قال الفشتالى﴾ فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة الى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتى ملكه من يشاء ولما افتتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل اليه من التبر ما يعيى الحاسبين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى والدينار الوافى وكان ببابه كل يوم أربع عشر مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولاجل هذا لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى أيامه والامور كلها بيد الله

﴿وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله﴾

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف ومن المستفيض انها رئيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت غفر لى بسبب انى كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع فى الاذان فرددت على ثيابى اعظاما لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لى ذلك فغفر لى ﴿وفى سنة احدى وألف﴾ أتى بالفيلة من بلاد السودان الى المنصور وكان يوم دخولها المراكش يوما مشهودا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت الى فاس فى رمضان سنة سبع وألف ﴿قال فى نشر المثانى﴾ كان دخول الفيل الى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف وبعث المنصور مع الفيل الى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس فى ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس ﴿قال بعضهم﴾ وبسبب دخول هذه الفيلة الى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لان أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع فشاعت منهم فى بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ومتوقف والعلم فيها عند الله سبحانه قاله اليفرنى ﴿قلت﴾ من تأمل أدنى تأمل فى قواعد الشريعة وآدابها علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام لانها من الخبائث التى حرمها الله تعالى على هذه الامة المطهرة وبذلك وصفها فى الكتب السالفة اذ قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وبسط هذا المقام ان تعلم أن الله تعالى اختار هذه الامة من بين سائر الامم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها قال تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التى هى من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد ثم اذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ فى الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن واجتناب كل خبيث أمكن فشرع أولا الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن وحظر من مقاربة الصلاة وما هو فى معناها حال الخلو عنها ثم شرع ثانيا الطهارة الصغرى المتعلقة باطراف البدن زيادة فى الاعتناء بها الانها تبرز فى غالب الاحوال فيعلق بها من الاقذار ما لا يعلق بغيرها وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة

حكم شرب الدخان

عند عروض كل حدث مستقذر حتى الريح والسبب الداعي الى خروجه ثم ندبه الى استعمالها عند القيام الى كل صلاة من الصلوات الخمس ثم انا اذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قذر وان قل فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكررا وشرع مسح وشعر الرأس بالماء دفعا لما يعلق به من الغبار وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيف كالمضمضة والاستنشاق ثلاثا تطييبا للنكهة وشرع مسح الاذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين ازالة لما بداخلهما من تلك الفضلة مع أن الحي ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة أوليس في هذا دليل واضح على أن الحكمة في هذا كله انما هو المبالغة في النظافة وتطييب الرائحة والنكهة اذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيدا عن القذر بكل وجه ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام الى كل صلاة وقال لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك عند كل صلاة كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة فم المؤمن ونكهته حتى في حق الصائم الذي خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك هذا كله في حال الصلاة وأما خارجها فقد علم من الشرع علما ضروريا أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له ومن هذا المعنى ما حرم الله تعالى على هذه الامة من تناول المستقذرات كالميتة والدم وسائر النجاسات اذ علة حرمة الاشياء وتناولها اما كونها مستقذرة كالنجاسات اجماعا وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعي رضي الله عنه أو مضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو بعض الاعضاء منه أو محترمة اما لذاتها كالآدمي أو لكونها ملكا للغير وهو ظاهر فالشارع له غرض أكيد في اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها من المستخبثات وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون في حوائطهم فاذا حضرت الجمعة أتوا الى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالاغتسال عند كل جمعة ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها وحبب الى النبي صلى الله عليه وسلم من دنيانا النساء والطيب وندب أمته الى استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والاعياد ونحوها وخصال الفطرة انما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها وقال صلى الله عليه وسلم ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه دفعا للسرف والخيلاء ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والاقذار الى غير هذا مما لو استقصى لطال ودل دلالة قطعية على ان المطلوب من العبد أن يكون نظيفا طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانبا لكل خبيث مستقذر وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر من رائحة أفواه شربة الدخان ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ وهذا النتن من أقبح العيوب في نظر الشرع حتى انه جعل الخيار لاحد الزوجين اذا كان صاحبه أبخر فاذا لا شك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة في الفم أو الانف من أعظم المحظورات لانها تصدم غرضا كبيرا من أغراض الشارع وتضاده وتنفيه وأقول لو كان نتنها يعلق بعضو من الاعضاء غير الوجه لكان هينا لكنه يعلق بالفم والانف اللذين وضعهما الحكيم العليم في وسط الوجه الذي هو أشرف الاعضاء فأي مضمضة وأي استنشاق وأي سواك يزيل ذلك النتن الذي يرسخ في أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخا لا يماثله شيء ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا ان فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة هذا الى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى انه اذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يأوي الى عبادة يصدر منه ومن دخول الشك في صيامه لان بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد تمكث في حلقه الى طلوع الفجر وما بعده لان جلهم اذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم وبالجملة فلا يستعمل ذلك الا من

لاخلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين وهو قادح في الشهادة والامامة والله تعالى الموفق بمنه

﴿نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك﴾

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والائمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسودد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم الى ان كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الاول وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم وربما وشي اليه بهم فكتب الى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما وحملوا مصفدين في الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم ﴿قال في بذل المناصحة﴾ سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول أنا أقل عشيرتي كتبا وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف ووصلوا الى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف الى ان انصرم أمد المحنة فسرحوا يوم الاحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب بينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بني العباس ومن يتشبه بهم فقال له الشيخ ان الله تعالى يقول وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وأنت قد تشبهت برب الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينا وارفع عنا الحجاب فنزل المنصور ورفعت الاستار فقال له الشيخ أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي فقال له المنصور أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فان أذعنتم أذعن غيركم فقال الشيخ أبو العباس فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فانهم أقرب اليك منا فقال المنصور قال النبي صلى الله عليه وسلم أتركوا الترك ما تركوكم فامتثلنا الحديث فقال أبو العباس ذاك زمان وبعده قال ابن عباس لا تتركوا الترك وان تركوكم فسكت المنصور وانفض المجلس ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس اليه للاخذ عنه ولم يزل بمراكش الى ان مات المنصور لانه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع الى بلادهم بعد ان مات جماعة منهم بمراكش وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق الى رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العود اليها وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء ولما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فاخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال لا ردني الله الى هذا المعاد ولا رجعني الى هذه البلاد ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها الى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله ﴿تتمة﴾ قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الاخذ بدين الاسلام من لدن قديم وانهم من أحسن الامم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة وهذا الامر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم

من استرقاق أهل السودان مطلقا وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة وبيعهم فى أسواق المغرب حاضرة وبادية يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش قد تمالا الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها فى الدين اذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انما هو الاسلام والحكم للغالب ولو فرضنا ان لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان فمن لنا بان هذا المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين والاصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ومدعى خلاف الحرية مدع لخلاف الاصل ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم فى الباعة مطلقا من الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بما ليس فيها وفى باعة الرقيق خصوصا بما هو أكثر من ذلك كيف ونحن نرى ان الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين والزمان كما علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الامة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الاغراض والاحوال فى ذلك فان البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون الا بما لا يقدح فى صحة بيعهم وقد يكون للعبد أو الامة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كى ينفذ بيعه عاجلا الى غير ذلك من الاغراض وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويسرقونهم من الاماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب فى اغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل وكيف يجوز له التسرى باناثهم وفى ذلك ما فيه من الاقدام على فرج مشكوك ﴿وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه﴾ فى كتاب الحلال والحرام من احياء علوم الدين ما نصه اعلم أن كل من قدم اليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشترى منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضا ان تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله والقول الشافى فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة ثم أطال رضى الله عنه فى تقرير ذلك وصرح بان البائع اذا كان متهما على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله فاذا كان هذا فى الاموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الابضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله ﴿وقد ذكر﴾ الشيخ أبو العباس أحمد بابا فى تقييده الموضوع فى هذه المسئلة المسمى بمعراج الصعود تفصيلا لخصت به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل موشى وبعض فلان وغيرهم وقال ان كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه وكذلك ذكر ولى الدين ابن خلدون أن وراء النيل قوما من السودان يقال لهم لملم قال وهم كفار ويكتوون فى وجوههم وأصداغهم قال وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم فى الجنوب عمران يعتبر الى آخر كلامه لكن هذا التفصيل الذى ذكره الشيخ أبو العباس انما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم فاما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فيح وقفار لا يعمرها الا الريح فمن الذى يحقق لهم ذلك وقد قلنا أنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم وأيضا فمن لنا بان أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم الى الآن على ان الناس اليوم لا يلتفتون الى ذلك أصلا ومهما رأى أحدهم العبد أو الامة يسمسر فى السوق الا ويقدم على شرائه

غافلا عن هذا كله لا يسأل الا عن عيوب بدنه لا فرق في ذلك بين أسود وأبيض وغيرهما بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الاحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم في الاسواق جهارا من غير نكير ولا امتعاض للدين وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا ومسمع وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فانا لله وانا اليه راجعون على ما دهينا به في ديننا فالحاصل أنه لما كان الاصل في الناس هو الحرية كما قلنا وعلم تواترا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون واستفاض عن أهل العدل وغيرهم انهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلما وعدوانا ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في ان الاقدام على شراء هذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه وأما وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفي شرعا في جواز الاقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها وليستفت المرء قلبه فقد قال صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفتوك فانه متى رجع الى قلبه في هذه المعضلة الا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال ثم نتنزل عن هذا كله ونقول لو لم يكن في ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان في هذه الامور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لاسيما عند الامام مالك رضي الله عنه ما يقتضي وجوب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد فان سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله تعالى وسوق الناس الى دينه الذي اصطفاه لعباده هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا صلى الله عليه وسلم وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتوفيق انما هو بيد الله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين

﴿بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله﴾

﴿قال في مناهل الصفا﴾ كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لاهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم فان كلا من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيا به ذكره ولم يكن لاهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع انهم أحق الناس بالمجد والسودد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لان البناء كما قيل

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

﴿قلت﴾ هذا اعتذار بارد كما لا يخفى ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة واتصل العمل فيه الى سنة اثنتين وألف ولم يتخلل ذلك فترة وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن على ما قيل وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله في المناهل وأما جبصه وجيره وباقي أنقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها أن فلانا دفع

صاعا من جير جـلبه من تنبكتو وظف عليه فى عمار الناس وكان المنصور مع ذلك يحسن الى الاجراء غاية الاحسان و يجزل صلة العارفين بالبناء و يوسع عليهـم فى العطاء و يقوم بمؤن أولادهـم كى لا تتشوف نفوسهم وتتشعب أفكارهم وهذا البديع دار مربعـة الشكل وفى كل جهة منها قبـة رائقة الهيئـة واحتف بها مصانع أخر من قبـاب وقصور ودور رفعظم بذلك بناؤه وطالت مسافتـه ولاشك أن هـذا البـديع من أحسـن المبانى وأعجب المصانع يقصر عنـه شعب بوّان و ينسى ذكر غمـدان و يبخس الزهراء والزاهره و يزرى بقباب الشـام واهرام القـاهره وفيـه من الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحسـير الفكر و يدهش النظر وكل رخامـة على رأسها بالذهب الذائب ومموه بالنضار الصافى وفرشت أرضـه بالرخام العجيب النحت الصـافى البشرة وجعـل فى أضـعاف ذلك الزليج المتنوع التلاوين حتى كأنه خمـائل الزهر أو برد موشى من عمل صنعاء وتسـتر وأما سقوفه فمجسم فيها الذهب وطليت الجـدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيـه المحاسـن وأجرى بين قبابه ماء غير آسن وبالجملة فان هذا البديع كان من المبانى المتناهية البهاء والاشراق المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف

كل قصر بعد البديـع يذم * فيـه طاب الجنى وطاب المشم
منظـر رائق وماء غـير * وثرى عاطـــر وقصر أشم
ان من اكتسابه قد تباهت * مفخرا فهى للعلا الدهر تسمو

وبه من الاشعار المرقومة فى الاستار والابيات المنقوشـة فى الجهات على الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر و يروق المتأمل و يبهر العقول وعلى كل قبـة ما يناسـبها وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بجمالة من ذلك الحوض ونخوض فى بحار تلك البدائع بعض الخوض اذ فى ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غـبر فمن ذلك ما نقش خارج القبـة الخمسـينية لان فيها خمسـين ذراعا بالعـمل من انشاء الكاتب البليغ أبى فارس عبد العزيز الفشتالى على لسان القبة المذكورة

سموت فخر البـدر دونى وانحطا * وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا
وصغت من الاكليـل تاجا لمفرقى * ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها * نثـير جمان قد تتبعتـه لقطا
وعـديت عن زهر النجوم لانـنى * جعلت على كيوان رحـلى منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى * خليجا على نهر المجـرة قد غطا
عقـدت عليه الجسر للفخر فارتمت * اليـه وفود البحـر تغرف ما انطا
ينضنض ما بين الغـــروس كأنه * وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليـه من دوح الرياض خرائد * وغيـــد تجر من خمائلها مرطا
اذا أرسلت لدن الفـروع وفتحت * جنى الزهـر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحهـا مر النسـيم اذا سرى * كما مال نشـوان تشرب اسـفنطا
يشـوق رياضا جادها الجود والندى * سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا
وسالت بسلسال اللجين حياضـه * بحارا غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسـط وسطاه دميـة * هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا
حكت وحباب الماء فى جنبـاتها * سنا البدر حل من نجوم السما وسطا
اذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها * على جسمها الفضى نهرا بها لطا

توسمت فيها من صفاء أديمها * نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا
اذا اتسقت بيض القباب قلادة * فانى لها فى الحسن درتها الوسطا
تكنفنى بيض الدمى فكأنها * عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريها * وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
سمت صعدا تيجانها فتكسرت * قوارير أفلاك السماء بها ضغطا
فيالك شأوا بالسعادة آهلا * بأكنافه رحل العلا والهدى حطا
وكعبة مجد شادها العز فانبرت * تطوف بمغناها أمانى الورى شوطا
ومسرح غزلان الصريم كناسها * حنايا قباب لا الكثيب ولا السقطا
فلكن به ما طاب لا الاثل والخطا * ووسدن فيه الوشى لا السدر والارطا
تراه من المسك الفتيت مدبر * اذا مازجته الصبا عادبها خلطا
وان باكرته نسمة يسرى بها * الى كل أنف عرف عنبره قسطا
أقرت له الزهراء والخلد وانثنت * أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
جناب رواق المجد فيه مطنب * على خير من يعزى لخير الورى سبطا
امام يسير الدهر تحت لوائه * وترسى سفائن العلا حيثما حطا
وفتاح أقطار البلاد بفيلق * يفلق هامات العدا بالظبى خبطا
تطلع من خرصانه الشهب فانثنت * ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا
كتائب نصران جرت لملمة * جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا
اذا ما عقدن راية علوية * جعلن ضمان الفتح فى عقدها شرطا
فما للسما تلك الاهلة انما * سنابكها أبقت مثالا بها خطا
يطاوع أيدى المعلوات عنانها * فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا
يد لامير المؤمنين بكفها * زمام يقود الروم والفرس والقبطا
أدار جدارا للعلا وسرادقا * يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال أيضا مما كتب بداخل القبة المذكورة

جمال بدائعى سحر العيونا * ورونق منظرى بهر الجفونا
وقد حسنت بقوسى واستطارت * سنا يعشى عيون الناظرينا
وأطلع سمكى الاعلى نجوما * ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوى من دخان الند ألقى * على أرضى الغياهب والدجونا
علوت دوائر الافلاك سبعا * لذاك الدهر ما ألفت سكونا
فصغت من الاهلة والحنايا * أساور والخلاخل والبرينا
تكنفنى حياض ما تحات * أمامى والشمائل واليمينا
يقيد حسنها الطرف انفساحا * ويجرى الفلك فيها والسفينا
تدافع نهرها نحوى فلما * علاه البحر فى غمدا دفينا
وقد نشر الحباب على سماها * لآلى تزدرى العقد الثمينا
فخرت وحق لى لما اجتبانى * لمجلسه أمير المؤمنينا
هو المنصور حائز خصل سبق * وبانى المجد بنيانا مكينا
وليث وغى اذا زأر امتعاضا * يروع زئيره هندا وصينا

اذا أمّت كتائبه الاعادى * بعثن برعبه جيشا كمينا
يدير عليهم من كل حرب * تدقهم رحى أو منجنونا
أمام بالمغارب لاح شمسا * بها الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذى القصور الغر بدرا * تلوح بأفقهن مدى السنينا
تحف بكم عوا كف عند بابى * ملائكة كرام كاتبينا
لك البشرى أمير المؤمنين اد * خلوها مع سلام آمنينا

وقال أيضا مما كتب فى بهو هابرمر أسود فى أبيض

لله بهو عز منه تظير * لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد * قد نضدتها فى النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها * وشى وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة * قد زان حسن طرازها تشجير
واذا انصاعد نده نوأ فقى * أغناطه نوريه ممطور
شأو القصور قصورها عن وصفه * سيان فيه خورنق وسدير
فاذا أجلت اللحظ فى جنباته * يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين أمامه * حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة * ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معالا * يسرى الى الارواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها * وأساود يعلوا لهن صفير
ودحت من الانهار أرض زجاجة * وأضلها فلك يضئ منير
راقت فمن حصبائها وفواقع * يطفوا عليها اللؤلؤ المنثور
ياحسنه من مصنع فبهاؤه * باهى نجوم الافق وهى تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه * حيث التفت كواكب وبدور
ولدسته الاسمى تحير رصفه * فخر الورى وامامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة * وأقله فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة * رميت بجحفلها اللهام الكور
وجرى الى أقصى العراق لرعبها * جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبى ابن الوصى سليل من * حقن الدماء وعف وهو قدير
بحر الندى لكنه متموج * سيف العلا لكنه مطرور
طود يخف لحلمه ووقاره * وبجيشه يوم النزال ثبير
دامت معاليه ودام ومجده * طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر * يغدو عليه بها مساو بكور
ما زال منزل سعده يرتاده * نصر يرف لواؤه المنشور
وجرت به مرحا جياد مسرة * وأدار كأس الانس فيه سمير

﴿وقال بعض الكتاب﴾ مما نقش فى عضادتى باب القبة الحسينية المذكورة

ياناظرا بالله قف وتأمل * وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل * السر فى السكان لا فى المنزل

﴿وقال بعض الكتاب أيضا﴾ مما طرزت به الاستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي الاربع من القبة الحسينية وتسمى هذه الاستار عند أهل المغرب بالحائطي ﴿ففي الجهة الاولى﴾

متع جفونك في بديع لباسي * وأدر على حسني حميا الكاس
هذي الربا والروض من جرعائها * لم تغتذي بالعارض البجاس
أنى لروض أن يروق بهاؤه * مثلي وأن يجري على مقياسي
فالروض تغشاه السوام وانما * تأوي الى كنفي ظباء كناس

﴿وفي الجهة الثانية﴾

من كل حسنا كالقضيب اذا انثنى * تزري بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبي * وتطرت من شنزوالى الكاس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثا * فخرا بجتري أبي العباس
مانيط مثلي في القباب ولا ازدهت * بفتى سواه مراتب وكراس

﴿وفي الجهة الثالثة﴾

ملك تقاصرت الملوك لعزه * ورماهم بالذل والاتعاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة * ليث الحروب مسعر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها * قطب الجمال أخو الندى والباس
ملك اذا وافى البلاد تأرجت * منه الوهاد بعاطر الانفاس

﴿وفي الجهة الرابعة﴾

واذا تطلع بدره من هالة * يعشى سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلت كلها * أبهى من الاعياد والاعراس
لازال للمجد السني يشيده * ويقيم مبناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وكللت * درر الندى في جيده المياس

﴿وقال أبو فارس الفشتالي﴾ مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور وكان أنشأها في جمادى الاولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة

يا كرلدى من السرور كؤوسا * وارض النديم أهلة وشموسا
واعرج على غرفي المنيف سماؤها * تلق الفراقد في حماي جلوسا
واذا طلعت بأوجها قمر العلى * لاترتضي غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها الماجنات * مني على بسط الرياض عروسا
واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما * ورد الخيس من بديعي خيسا
ملك أرى كل الملوك مما لكا * لعلاه والدنيا عليه حبيسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة * تلقى برايتها طلائع عيسا

وقال أيضا مما كتب في بعض المباني البديعية

معاني الحسن تظهر في المغاني * ظهور السحر في حدق الحسان
مشابه في صفات الحسن أضحت * تمت بها المغاني للغواني
بكل عمود صبح من لجين * تكون في استقامة خوط بان
مفصلة القدود مثلثات * مواصلة العناق من التداني
تردت سابري الحسن يزري * بحسن السابري الخسرواني

ونعطو الخيزرانة من حماها * بسالفة القطيع البرهماني
لجدك تنتمي لكن غماها * الى صنعاء ماصنع اليدان
يدين لك ابن ذي يزن ويعنو * لها غمدان في أرض اليمان
غدت حرما ولكن حل فيها * لوفدكم الامان مع الاماني
مبان بالخلافة آهلات * بها ياتو الهدى السبع المثاني
هي الدنيا وساكنها امام * لاهل الارض من قاص ودان
قصور ما لها في الارض شبه * وما في المجد للمنصور ثاني

﴿وقال مما نقش في بعض الابواب﴾

هذي وفود السعد نحوى ترتقي * وطلائع البشرى لبابي تنتمي
وسمت الى عفاة عرفك مثل ما * يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بصر ابي السعود بشائرا * لاحت على الشرفات مثل الانجم
وأوان صنعي أن تقول ولا تبل * بديع أحمد جنة المتنعم

﴿وقال الفشتالي﴾ لما عرضت عليه هذه الابيات استحسنها الا انه كره لفظة جنة وتغير منها كثيرا * وقال الوزير الاديب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي مما كتب على مباح قبة الزجاج
ان شئت تاريخا كمال البديع فقل * ايوان أحمد ايوان السعادات
وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد أبواب البديع
باب أتى كبراعة استهلال * وكأنما القصر القصيد التالي
ولذاك سمي بالبديع وجا بال * اغراق والتجنيس والاغال
وأتى التمام فقلت في تاريخه * بيتا بلا عقد ولا اشكال
صرح على تقوى من الله انبني * في طالع السعد والاقبال

﴿وقال أيضا في تمام البديع مهنئا﴾

يا مليكا ملكه فيه ملك * كطلوع القمر من بعد الحلك
تم هذا القصر فاسكنه على * حسن حال بدوام الملك

وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف وفي تاريخه يقول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع
الحسن لفظ وهذا القصر معناه * ياما أميلح مرآه وأبهاه
فهو البديع الذي راقت بدائعه * وطابق اسم له فيه مسماه
صرح أقيمت على التقوى قواعده * ودل منه على التاريخ معناه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكلؤه * تاريخه من تمام قل هو الله

﴿وقال في نفح الطيب﴾ اخترع المنصور من المصانع ثلاثة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهي البديع والمسرة والمشتهى وفيها يقول المنصور مورّيا
بستان حسنك أبدعت زهراته * ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينثني * يا حسن رمان به للمشتهى اھ

﴿وقال اليفرني﴾ والذي ذكره صاحب كتاب البيان المعرب عن أخبار المغرب وهو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عذارى الاندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني منه أن أول من أنشأ المسرة التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين قال وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها

فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة ﴿قال ابن اليسع﴾ وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش اهـ ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وبنوه بقدره وفى ذلك يقول أبو فارس الفشتالى

هذا البديع يعز شبه بدائع * أبدعتهن بمجاء غريبا
أضحى الغزالة حسنه حسدا له * أبدى عليها للاصيل شحوبا
وانقضت الزهر المنيرة اذ رأت * زهر الرياض به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا * أعجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت فى كل الفخار لغاية * أدركتهن وما مسست لغوبا
فانعم بملكك دام فيه مؤبدا * تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق برده وتطريز حلته صنع مهرجانا عظيما ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز مالم يعهد منه قبل ذلك وكان ممن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح فى الوقت فقال له المنصور مباسطا كيف رأيت دارنا هذه يا فلان فقال له اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطير منها وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور فالله أعلم ﴿قال اليفرنى﴾ وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى اسمعيل ابن الشريف فانه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه وفرق ما كان به من جموع الانس وعاد حصيدا كأن لم يغن بالامس حتى صار مرعى للكلاب والمواشى ووكر الصدى والبوم وحق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شئ من أنقاض البديع ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخى الاندلس أن الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر وهى من عجائب الدنيا مر عليها فى أيام المنصور بعض أهل البصائر وهى فى نهاية العمران والازدهاء بسكانها فقال يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك فى كل دار قال فضرب الدهر ضربانه وسلط عليها أيدى العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها الى العراق ﴿قال اليفرنى﴾ ولما دخلت البديع مقفلى من الرحلة ورأيت ما هالنى أنشدت أبياتا أنشدها الشيخ محيى الدين ابن عربى فى كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة وهى

ديار بأكناف الملاعب تلمع * وما ان بها من ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب * فتصمت أحيانا وحينا ترجع
فخاطبت منها طائرا متفردا * له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى * فقال على دهر مضى ليس يرجع

وأنشدت ما أنشده ابن الابار فى تحفة القادم

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ثم قال اليفرنى رحمه الله ﴿لطيفة﴾ تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر وهذا القدر هو الذى بقى فيه البديع قائما فانه فرغ منه سنة اثنتين وألف وشرع فى هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف فمدة عمره مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق

فسبحان من دقت حكمته وجلت قدرته وعمت رحمته لا اله الا هو الحكيم العليم

﴿ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله﴾

كان الناصر هذا في حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلا ونواحيها ولما توفي أبوه المذكور وقام بالامر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلا عنده سائر أيامه الى ان قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن اليه فلم يزل عنده في أرغد عيش الى أن توفي المعتصم يوم وادي المخازن وأفضى الامر الى المنصور ففر الناصر الى آصيلا وكانت للنصارى يومئذ ثم عبر البحر منها الى الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة الى أن سرحه الطاغية الى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين واحداث الشقاق بينهم فخرج الناصر بمليلية ونزل بها الثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا اليه يزفون فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب باسره لذلك ﴿وذكر اليفرني في الصفوة﴾ أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتابا الى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاعة له فوقع الكتاب في يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطابة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين ثم ان الناصر خرج من مليلية قاصدا تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت اليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم فتألبوا عليه وتمالؤا على اعزازه ونصره ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم ان النصارى يغرمون حتى على البيض ولما سمع المنصور بخبره أقلقه ذلك وتخوف منه غاية لان الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النفوس اليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية ﴿وقال في ابتهاج القلوب﴾ في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن علي بن منصور البوزيدي المعروف بابي الشكاوي دفين شالة أنه كان سائرا يوما على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم يا فقراء أتسمعون ما تقول بغلتي انها لتصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر واني أرى غير ذلك فكان الامر كما قال اهتز لقيام الناصر كل شيء ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر اه ثم ان المنصور بعث اليه جيشا وافرا فهزمهم الناصر واستفحل أمره وتمكن ناموسه من القلوب فامر المنصور ولي عهده المأمون بمنازلته فخرج اليه من فاس في تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب ومر على وجهه فاحتل بالجابة بلدة من عمل بلاد الزبيب فلحق به ولي العهد فلم يزل في مقاتلته الى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به الى مراكش وكان ذلك سنة خمس وألف وقيل سنة أربع وألف ﴿وقال في نشر المثاني﴾ كان مقتل الناصر وادخاله مقطوع الرأس الى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الاصح ﴿وذكر الشيخ أبو علي اليوسي في المحاضرات ما نصه﴾ حدثوا عن صلحاء تادلا أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي ان الناصر يدخل تادلا يعني دخول الملك فلما بلغ الخبر الى الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي التادلي قال مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها فكان الامر كذلك فانه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وحمل الى مراكش فدخل تادلا في طريقه اه ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي قال

تهنأ أمير المؤمنين فقد جرت * بسطوتك الاقدار جري السوابق
أضاءت لك الايام واحلولكت على * عدوك وارتجت رؤس الشواهق

وذلك

وذاك الذي قد خيب الله سعده * تردّى فلم تنفعه نصرة مارق
فكان كما قد قيل لكن رأسه * أتى سابقا والرجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم في الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوبا منكوس الرأس

لقد طمح المهر الجموح لغاية * تقطع أعناق الجياد السوابق
جرى فجرت رجلاه لكن رأسه * أتى سابقا والرجل ليست بسابق

وكتب المنصور بخبر هذا الفتح الى الآفاق (وفيما) كتبه للشيخين الامامين أبي عبد الله محمد زين العابدين البكري وأبي عبد الله محمد بدر الدين القرافي رسالة يقول فيها مانصه من عبد ربه المجاهد في سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسني الى الفاضل الذي اعتجر بالتقوى وهو زين العابدين وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين والسالك الذي برز في الطريقه وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقه ففات شأو السابقين والعارف الذي تجرد عن رعونة الاهواء النفسانيه فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي السيد بدر الدين القرافي والشيخ العارف الواصل السري الكامل سلالة العلماء سبط الفضلاء أبي عبد الله زين العارفين ابن الشيخ السامي المقام قطب المشايخ الاعلام فخر علماء الاسلام الشهير البركة في الانام أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن الصديقي أبقاكما الله وأرواحكما تتعطر برياحين الانس في حضرة القدس وتشم النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج الانس ومعارج النفس وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد حمد الله مفيض أنوار عناية أحد على صاحبه الصديق مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبه في الغار والعريش والطريق والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق وأصحابه الذين فاضت أنوار هداياتهم على الغرب والشرق وببركتهم انتسق لنا الفتح اتساق الاسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك فكتبناه هذا اليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله وصنع الله لها مفعم السجال وواسع المجال وعزمتها الماضية تبعث الى العدا رسل الاوجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى ان تطوى ملاءة الدهور هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذي صدحت على أفنان البلاغة سواجعه وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت في كل معنى من المعاني أفانينه ومنازعه وتألفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه وأينعت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيح وأجارعه ومعه المنظومات التي سحبت بالحكم ديمها ورسا في البلاغة قدمها وربا في منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا في مطلعها والبدر ليلة تمامه اعجابا بها وتنويها بهديها وابتهاجا بالخوارق التي أطلق الله على لسان مبديها والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تنفق فيه على الدوام ان شاء الله نفائس بضائعكم وتموقيه مع الايام سعود مطالعكم وتموفيه على كل مقام مقاماتكم وتستوضح فيه على المحبة الصميمة اماراتكم الواضحة وعلاماتكم فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر وتشتد الاواخي والاواصر بعز الله ومنه ثم مما نسطر لكم ذكره على جهة البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للاسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام لما أنس من تلقاء جانبنا نار العزم تلتهب منا التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا وهممنا قد همت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكفلة بالجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين مطول وعلم أن الحديث اليه يساق والى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق رام

خذله الله مكافأتنا على ذلك نبأ أمل أن يغتب به فى عضدنا الاقوى وعزمنا الذى بعناية الله يزداد و يقوى
فرمى بمخذول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما اليه الى
مليلة احدى الثغور المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التى الى كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة من
بعدنا الامير الاجل الارضى صارم العزم المنتضى وحسام الدين الامضى أبى عبد الله محمد الشيخ
المأمون بالله وصل الله راياته التأييد والظهور والعز الذى يستخدم الايام والدهور فالتف عليه من
اغترابا طيله الواهية البناء من أوباش العامة والغوغاء ومن قضى له من أجناد تلك الناحية بالشقاء
جموع تكاثر الرمل وتفوت الحصا والنمل لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته اذ صدقته منيته
فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التى اليه وبعساكر تلك الممالك التى ألقينا زمام تدبيرها فى يديه
فارتاع الشقى الا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الاجدل وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود وتفلق
الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد الله الحين وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغر محجل وساعة أنزل الله
فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل فاستأصلتهم الشفار وحصدت هشيمهم المصوح أسنة
النار وقبض على الشقى فى يوم كان شفاء الصدور ومنتزها لحلة السيوف وربات الخدور وأحرز الله
تعالى فخر هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لولدنا أعزه الله عز وجل فى خاصة أجناده ونهض وحده
باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون وأجنادنا فى أوطارنا لاهون ومفتنون فلم يحتج الى
انجاده من قبلنا ولا امداده والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفنا كم لتأخذوا بحظكم من
السرور بهذه البشرى التى سرت الاسلام وساءت بحمد الله عبدة الاوثان والاصنام وتعلموا مع ذلك
ماعليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ آراء الحزم واعمال عوامل الجزم
الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التى عادت عليه أسفا ولهفا واعادة ما كان أسلف من ذلك
ان شاء الله بالمكيال الاوفى وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا ان شاء الله بأدعيتكم الصالحة فى أوقات الاجابه
وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خضوع وانابه أن يؤيدنا الله على عدو
الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته
أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين
فى أرضها بكلمة الله التى طالما سكت عنها ناداوه وخرس وشرق بريقه فنص وخنس فبيده الحول
والقوه وعنايته العناية المرجوه ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلميه
برسم خزانتنا الكريمة الامامية العليه ثم الاتحاف بديوان الشيخ والذكر التماسا لجيل بركاته وتمسكا
بما سبق من الاجازة العامة فى سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته وهذا موجبه اليكم والسلام
الاتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته فى ربيع النبوى سنة خمس وألف اه وهذه الرسالة من املاء
المنصور على ماقيل (ومما كتب به أيضا) بخط يده الى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبى المحاسن
حسن بن أبى نمى بن بركات مانصه من عبد الله المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أحمد أمير المؤمنين
ابن أمير المؤمنين الشريف الحسنى الى الاصالة التى تبجحت من ذؤابة هاشم فى صميمها وتوغلت من
غرفات حرمة الله بين زمزمها وحطيمها وتمنعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاريجة وشميمها اصالة
السلطان الاثيل الاثير الاسنى الاسمى الازكى السلطان حسن ابن أبى نمى أبقاكم الله والبيت ذو الاستار
تتفيؤن ظلاله وتلثمون من الحجر الاسود الاسعد خاله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (أما بعد) حمد الله
الذى أعز هذه المثابة العلويه الامامية النبويه العزيزة الانصار السامية المحتد والنجار الساحبة
أذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامى المقدار سكان الحمى والذين تبوؤا الدار والصلاة
والسلام على مولانا محمد الذى أطلع شموس الهداية الساطعة الانوار والرضا عن آله الذين تتضاءل

لمجدهم السامى المنار الشموس والاقمار وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بعواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى "الامامى" المنصورى "الحسنى" بنصر تجنى الفتوح من قضب رماحه وتجرى الاقدار على وفق اقتراحه فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال فى ميادين السجال والايام بعز صولتها وبين دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور بعز الله وعنايته هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذى ليس بعاف ولا محيل وهب "له من محارم الله نسيم عليل وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل مد الى على" مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مرتحله ومحله يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد والمصدر ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر فحملناه هذه الجمالة لترعوا له ان شاء الله عنها الحق المعتبر وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر ومما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الاحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس وشرق بريقه فغص وخنس فذلك دعاء لا يرد لانه يجرى من أهله فى محله ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى (وقوله) حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله

﴿ذكر احتفال المنصور بالمولد الكريم واعتنائه بسائر الاعياد﴾

﴿قال الفشتالى﴾ كان ترتيب المنصور فى الاحتفال بالمولد النبوى الكريم انه اذا اطلعت طلائع شهر ربيع الاول صرف الرقاع الى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين فى الاسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين من كل من يبارى النحل فى نسج أشكالها لطفا وادماجا فيصوغون أنواعا من الشمع التى تحير النواظر ولا تذبل زهورها النواضر فاذا كان ليلة المولد تهيأ لحملها وزفاف كواعبها الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون فى أجمل شارة وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها فيمكثون الى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رؤسهم كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن وهى عدد كثير كالنخل فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الاعناق وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الاطبال والابواق وأصحاب المعازف والملاهى حتى تستوى على منصات معدة لها بالايوان الشريف فتصطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وأمامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدمى وحمر جليت فى ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع المسك والمباخر ما يلهى المحزون ويدهش الناظر ثم دخل الناس أفواجا على طبقاتهم فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع فى ذلك باختصار فاذا فرغ اندفع القوم فى الاشعار المولديات فاذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششترى وأشعار الصوفية ويتخلل ذلك نوبة المنشدين البيتين فاذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة فيتقدم قاضى الجماعة الشاطبى بلبل منابر الجمع والاعياد فينشد قصيدة يفتتحها

بالتغزل والنسيب فاذا تم تخلص لمدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولي عهده فاذا قضى نشيده تقدم الامام المفتي المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال فاذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي ثم تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ويليه الكاتب محمد بن علي الفشتالي ويليه الاديب محمد بن علي الهوزالي النابغة ويليه الاديب الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي فاذا طوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فاذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم هكذا كان دأبه في جميع الموالد ولا يحصى ما يفرغ فيه من أنواع الاحسان على الناس اه من كتاب مناهل الصفاء ﴿وقال صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية﴾ وهو العلامة المشارك أبو الحسن علي بن محمد التامجروتي حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لايوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المشيد المحتوي على قباب متقابلة عالية وقدمد فيهما من فرش الحرير وصفت النمارق وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب على كل باب قبة وحنية كل سرير ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رئيت قط في عهد الاوائل وتلك القباب مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤس بالذهب الذائب مفروش جلها بالمرمر الابيض مخططا بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وأصناف الاجناد فيخيل لكل منهم أنه في جنة النعيم والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الابصار بالتعظيم والاكبار ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الاجناد والطلبة وسكنت بعد حين الجلبة وأتى بانواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والاواني التركية والهندية وأتى بالطسوس والاباريق وصب الماء على أيدي الناس ونصبت مباخر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها من ماء الورد والزهر وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن اليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير * واذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول وهذه سيرته دائما اه وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري وذلك أنه كان اذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا في كل يوم سفر الا يوم العيد وتاليه فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيأ له السلطان أحسن تهيئ الان العادة الجارية عندهم في ذلك أن القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل ويلقي من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فاذا تعالى النهار ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكمله سردا في بيته ومن الغد يبتدئ سفرا آخر وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع ﴿وقال الفشتالي﴾ وكان المنصور يعطي أموالا لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان ويقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء وكل من ختن منهم أعطي أذرعا من كتان وحصة من الدراهم وسهما من اللحم اه ﴿وأما ترتيب جيش المنصور﴾ وعادته في أسفاره فسنذكرها في الفصل بعد هذا ان شاء الله ولنذكر بعض القصائد الميلادية التي أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الاشارة اليه فمن ذلك قول القاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي رحمه الله

ما بال طيفك لا يزور لماما * ويخصني الاحشا ضربت خياما

أيعيش فيك عواذلى لسلوّهم * وأموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من أدمعى * أوليس نهر السائلين حراما
ماذقت ماء لمائك فى سنة الكرى * الا انتبهت فكان لى أحلاما
عرض اذا حدثت عن بان الحمى * فحديث قلبى بالاجارع هاما
أروى حديث الرقتين مسلسلا * عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلق من جيب النسيم تحية * أضحى الهوا بردا لها وسلاما
ياجيرة العلمين دعوة شيق * للسفح يذعيش بالغضا ودواما
نخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد * ألف الاقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثارى أهل نجد انهم * سلبوا الفؤاد وأدنفوا الاجساما
فى كل غرب دموع عينى مشرق * لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رنت الى * انسانها فى لجة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقا لمن * وقفت عليه صلاتها وسلاما
خير الانام محمد الهادى الذى * أردى الضلال وجب منه سناما
كنز العوالم سر طينة آدم * ولحفظ ذاك السر جاء ختاما
وأجل أرسال الاله ومن به * قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده اعدادهم * فلذا تقدم فى الحساب اماما
أسرى الى السبع الطباق فأقبلت * زمر الملائك وفده اعظاما
فى ليلة غصت بأملاك السما * فتسير خلف ركابه وأماما
ياخير من بهر المعاند شأنه * بمعجز افحم بريقه الخصاما
أعيا جلالك أن يحيط بوصفه * وصف البليغ وأخرس الاقلاما
صلى عليك الله ما زار الحيا * روضا فتح زهره الاكماما
ما الذى فى مدح غيرك مخلصا * الا بمدحى من بنيك اماما
خير الورى واما مها المنصور من * فى ظل دولته الانام أناما
أضفى على الارضين ظل مهابة * فحمى بها حام العباد وساما
وسما على الدنيا عقاب تنوفة * فانقض يفترس الاسود بهاما
قل للملوك هبوا الممالك كم فدى * وخذوا الانفس كم لديه ذماما
هذا الذى يحيى البلاد بعدله * ويعيدها ثمرا وكن رماما
هذا الذى وعد الاله بانه * يطوى البلاد ويفتح الاهراما
يامشبه المهدى فى آرائه * حزما وفى عزماته اقداما
أنت الذى بنيه ابناء العلى * أرسى البلاد ووطد الاسلاما
فكأنها من حولك الاشبال فى * غاب الوشيج تبوّأت آجاما
وأمينها المأمون عضب سمامها * علم اناف على الهضاب سناما
وأجل مضطلع بخيره الورى * بعد الامام فقدموه اماما
وحباه أحمد عهد أمة أحمد * فوفى فكان لرعيه المتاما
لا بد دون النصر سيفك انه * سيف يحوط الدين والاسلاما
خذها بنم على العبير مديحها * ويفض عن مسك الختام ختاما

وقال العلامة مفتي الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف الفيلالى

أرقت وشاقتني البروق اللوامع * وذكرى خليط هيجتها المرابع
مرابع عفتها الرواسمس والسما * تراق من الاشواق فيها المدامع
كان لم تكن من قبل قدما أواهلا * اذ السلك منظوم وشملى جامع
تذكرني عهد الاجازع واللوى * وأين اللوى مني وأين الاجازع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة * وجفن الردى عنا وعاشاك هاجع
وقفت بها بالبزل والليل دامس * أنازعها الشكوى بها وتنازع
أسائلها عن جيرة بان حيهم * وضمت هواهم بعد ذاك الاضالع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم * ولاح لهم برق من الغور لامع
يخبر عن دار الرسول وقربها * عراص بها الوحي فاضت ينابع
ديار بها حل الحبي سيد الورى * وهبت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل * ويا خير من تثني عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما * وأنت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي * لاهواله كل النبيين جازع
فآدمهم والكل تحت لوائكم * وليس لنا والله غيرك شافع
فجازاك رب العرش ما أنت أهله * جزاء به يشجى المناوى المخادع
وجازى اماما قد غذته اليكم * أصول وآباء كرام فوارع
سميك وابن السبط حقا ومن له * عوارف في أعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائف مفردا * اليك اشتروها وغيرك بائع
ودام ولي العهد بعدك صارما * يخب الى نيل العلا ويسارع
هو الامن المأمون من كل فتنة * لفيض الندى من راحتيه تدافع
ففيك أقول والنصوص شواهد * أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا * وفاضت بحور العلوم هوامع

أشار بهذا الى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الامة أمر دينها وحمله بعض الائمة على ان المجدد من الملوك وقيل من العلماء وقيل من الاولياء والصواب الاطلاق وقال الوزير القائد أبو الحسن على بن منصور الشيظمى رحمه الله تعالى

من بعد أهل قبا وأهل كداء * شوقي يزيد وعز ذاك عزائي
ولى الشفاء بقربهم وهم جلا * ما في الخواطر من صدى وصداء
لكنه بعد المزار فأين من * تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم * ذات السنا والزند والاضواء
وشدا بهم حادي الركاب فكاد أن * تدع القلوب جسومها بفضاء
يا سعد لو ان الزمان مساعدى * ومجيب داعي البعد بعد ندائي
لركبت حرفا كالهلال منافرا * للهمز الا في المنادى النائي
ولجبت أحياء الفلا وطويتها * طي الملا بنجيبة فوداء
تختاض في جوف الظلام كأنها * سر تولج في ضمير خفاء
وتخال في لجج السراب سفينة * تجري القلوع بها بريح رخاء

هل أنزلن بها المحصب من منى * وأزور بعد معاهد الزوراء
فأحط عنها الرحل ثم مخيما * فى ظل أحمد بغيتى ومنائى
وأمرغ الخدين ملتثما ثرى * وطئته رجلا خاتم النبئاء
محيي الهدى ماحى الضلالة والردا * بالبيض والخطية السمراء
صلى عليه الله ما نسخ السنا * لوما وما أجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام وآله * أكرم بهم من سادة فضلاء
أكرم بوارث مجده وعلائه * سبط الرسالة غرة الابناء
خير الخلائف أحمد المنصور من * حاز الكمال وشرط كل علاء
الصارم الهندى فى عنق العدى * والكوكب الوقاد فى الظلماء
يا أيها الملك الذى بسيوفه * حاط الهدى وبرأيه الوضاء
نثر الاله لك الفتوح وصانها * كالزهر فى الاكمام والاوعاء
لابد من فتح بروقك واضح * كالصبح يدروفى نحور عداء
وسعلك الحرم الشريف ويتقى * للواثك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد أتت منقادة * بظبي بنيك السادة النجباء
وتقر عينا بالخليفة منهم * وزر البرية عدة الامراء
بمحمد المأمون خير من ارتقى * درج الكمال ودب للعلياء
فرع سيحكى أصله ولقد حكى * بمقاصد قد سددت ودهاء

وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى رحمه الله تعالى

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى * وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى
وهم أضرموا فى مهجتى ذم الهوى * فلم يثنهم عن سفكها حبى الجانى
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسى * فشوقهم أضحى سميرى وندمانى
وان غادرتنى بالعراء حمولهم * كفى أن قلبى جاهد اثر أظعانى
قف العيس وسئل ربعهم أية مضوا * ألجزع ساروا أم لجين أم البان
وهل بأكروا بالسفح من جانب اللوا * ملاعب آرام هنالك وغزلان
وأين استقلوا أهل بهضب تهامة * أناخوا المطايا أم على كثب نعمان
وهل سال فى بطن المسيل تشوقا * نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
وان زجروها بالعشى فهل ثنى * أزمتها الحادى الى شعب بوان
وهل عرسوا فى دير عبدون أم سروا * يؤم بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجا صبغ المطارف فانثنى * بأحداجهم شتى صفات وألوان
وأدلج فى الاسحار بيض قبابهم * فلحن نجوما فى معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الارض خطوة * اذا زمها بدنا نواعم أبدان
أرحها مطايا قد تغنى بها الهوا * تمشى الحيا فى مفاصل نشوان
ويمم بها الوادى المقدس بالحمى * به الماء صدا والكلا نبت سعدان
وأهد حلول الجزع منه تحية * تفاوح عرفا ذاكى الرند والبان
لقد نفحت من شيح يثرب نفحة * فهاجت مع الاسحار شوقى وأشجانى
وقفت منها الشرق فى الغرب مسكة * سعت بها فى أرض دارين أردانى

وأذكرني نجدا وطيب عراره * نسيم الصبا من نحو طيبة حياني
أحن الى تلك المعاهد انها * معاهد راحاتي وروحي وريحاني
وأهفو مع الاشواق للوطن الذي * به صح لي أنسي الهني وسلواني
وأصبو الى أعلام مكة شائقا * اذا لاح برق من شمام وثهلان
أهيل الحمى ديني على الدهر زورة * أحث بها شوقا لكم عزمي الواني
متى يشتفي جفني القريح بنظرة * يزح بها في نوركم عين انساني
ومن لي بان يدنو القاكم تعطفا * ودهري عني دائما عطفه ثاني
سقى عهدهم بالخيف عهد تمده * سوافح دمع من شؤني هتان
وأنعم في شط العقيق أراكة * بافيائها ظل المنى والهوى داني
وحيا ربوعا بين مروة والصفا * تحية مشتاق لها الدهر حيران
ربوعا بها تتلو الملائكة العلا * أفانين وحي بين ذكر وقرآن
وأول أرض باكرت عرصاتها * وطرزت البطحا سحائب ايمان
وعرس فيها للنبوة موكب * هو البحر طام فوق هضب وغيطان
وأدى بها الروح الامين رسالة * أفادت بها البشرى مدائح عنوان
هنالك فض ختمها أشرف الورى * ونخر نزار من معد بن عدنان
محمد خير العالمين باسرها * وسيد أهل الارض والانس والجان
ومن بشرت بالبعث من قبل كونه * نوامس كهان وأخبار رهبان
وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت * سماء ولا غاضت طوائح طوفان
ولا زخرفت من جنة الخلد أربع * تسبح فيها أدم حور وولدان
ولا طلعت شمس الهدى غب دجية * تجهم من ديجورها ليل كفران
ولا لحقت بالمذنبين شفاعة * يذود بها عنهم زباني نيران
له معجزات أخرست كل جاحد * وسلت على المرتاب صارم برهان
لها انشق قرص البدر شقين وارتوى * بماء همى من كفه كل ظمآن
وأنطقت الاوثان نطقا تبرأت * الى الله فيه من زخارف ميان
دعا سرحة نجما فلبت وأقبلت * تجر ذيول الزهر ما بين أفنان
وضاءت قصور الشام من نوره الذي * على كل أفق نازح القطر أو داني
وقد بهج الانوا بدعوته التي * كست أوجه الغبراء بهجة نيسان
وان كتاب الله أعظم آية * بها افتضح المرتاب وابتأس الشاني
وعدى على شأو البليغ بيانه * فهيهات منه سجع قس وسحبان
نبي الهدى من أطلع الحق أنجما * محى نورها اسداف افك وبهتان
بعزتها ذل الاكاسرة الالى * هم سلبوا تيجانها آل ساسان
وأحرز للدين الحنيفي بالظبا * تراث الملوك الصيد من عهد يونان
وتقمع من سمر القنا السم قيصرا * بجرعة منه مجاجة ثعبان
وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعا * يناغي الصدا فيهن هاتف شيطان
وأصبحت السمحا تروق نضارة * ووجه الهدى بادي الصباحة للرائي
أيا خير أهل الارض بيتا ومحتدا * وأكرم كل الخلق عجم وعربان

فمن القوافي أن تـ . . . م * . . . بقام داعم حسان
اليك بعثناها أمانى أجدبت * لتسقى بمزن من أياديك هتان
أجرنى اذا أبدى الحساب جرائمى * وأثقلت الاوزار كفة ميزانى
فأنت الذى لولا وسائل عزه * لما فتحت أبواب عفو وغفران
عليك سلام الله ماهبت الصبا * وماست على كثبانها املد قضبان
وحمل فى جيب الجنوب تحية * يفوح بمسراها الشذا كل تربان
الى العمرين صاحبيك كليهما * وتلوهما فى الفضل صهرك عثمان
وحيى عليا عرفها وأريجها * ووالى على سبطيك أوفر رضوان
اليك رسول الله صممت عزمة * اذا أزمعت والشحط والقرب سيان
وخاطبت منى القلب وهو مقلب * على جمرة الاشواق فيك فلبانى
فياليت شعرى هل أزم فلا نصى * اليك بدارا أو أقلقل كيرانى
وأطوى أديم الارض نحوك راحلا * نواحى المهارى فى صحاصح قيعان
يرنحها فرط الحنين الى الحمى * اذا غرد الحادى بهن وغنانى
وهل تمعون عنى خطايا اقترفتها * خطى لى فى تلك البقاع وأوطان
وماذا عسى يثنى عنانى وان لى * بآلك جاها صهوة العز أمطانى
اذا صد عن زوارك الباس والغنى * فجود ابنك المنصور أحمد أغنانى
عمادى الذى أوطا السماكين أخمصى * وأوفى على السبع الطباق فأدنانى
متوج املاك الزمان وان سطا * أسل سيوفا فى معاقد تيجان
وقارى أسود الغاب بالصيد مثلها * اذا اضطرب الخطى من فوق جدران
هزبر اذا زار البلاد بنجره * تضاءل فى أخياسها أسد خفان
وان أطلعت غيم القتام جيوشه * وارزم فى مركومه رعد نيران
صببن على أرض العدا . . . * أسلن عليهم بحر نسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى لصدعت * صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل أروع معلم * وكل كمى بالردينى طعان
اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا * هدتهم الى أوداجها شهب خرصان
من اللاء جزعن الـ . . . الرد * وعفرن فى وجه الثرى وجه بستان
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت * تؤدى الخراج الجزل أملاك سودان
امام البرايا من على نجاره * ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
دعائم ايمان وأركان سودد * ذووهم قد عرست فوق كيوان
هم العلويون الذين وجوههم * بدور اذا ماحلوا لكن شهب أزمان
وهم آل بيت شيد الله ملكه * على هضبة العلياء ثابت أركان
وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت * بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فروع ابن عم المصطفى ووصيه * فناهيك من فخرين قربى وقربان
ودوحة مجد منتمى الروض بالعلا * يجاد بأمواه الرسالة ريان
بجدهم الاعلى الصريح تشرفت * معد على العرباء عاد وقحطان
أولئك فخرى ان فخرت . . . الورى * ونافس بيتى فى الولا بيت سلمان

المراد به سبستيان ملك البرتقال لكنه عربه فقال بستان

اذا اقتسم المداح فضل فخارهم * فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان
امام له في جبهة الدهر ميسم * ومن عزه في مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمة * يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع في آفاق المعالي خلافة * عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوق الاسرة وارتدى * على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق * وشاهدت كسرى العدل في صدر ايوان
وان هزه حر الثناء تدفقت * أنامله عرفا تدفق خلجان
أيا ناظر الاسلام ثم بارق المنا * وبا كر روض في ذرا المجد فينان
قضى الله في عليائك أن تملك الدنا * وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانك تطوى الارض غير مدافع * فمن أرض سودان الى أرض بغدان
وتملاها عدلا يرف لواؤه * على الهرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا * ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم * أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان
ولو نشر الاملاك دهرك أصبحت * عيالا على عليائك أبناء مروان
وشايعك السفاح يقتاد طائعا * براتيه السوداء أهل خراسان
فما المجد الا ما رفعت سماكه * على عمدى سمر الطوال ومران
وهانيك أبكار القوافي جلوتها * تغازلهن الحور في دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها * لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاطمن حسنا أن يقال شبيهها * فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زالت الدنيا تحوط جهاتها * وللدين تحميه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزرا * تقادلك الاملاك في زي عبدان

انتهت القصيدة الفريدة *قال في نفح الطيب* أخبرني ناظمها أنه أراد بقوله *ونافس بيتي في الولا بيت سلمان* قبيلة سلمان التي منها لسان الدين ابن الخطيب اشارة الى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي رضي الله عنه انتهى وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذا لم يذكر في المنتقى من الامداح المنصورية غيرها وقد أثنى عليها في نفح الطيب جدا وتتبع ما قيل في هذا الاحتفال واقامة المولد العديم المثال من الامداح يفضي الى الطول وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق

﴿ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره﴾

﴿قال الفشتالي﴾ كانت السيرة على عهد أبي عبد الله المهدي وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب في الجيش والمآكل والملابس وغير ذلك ولما ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح اليها في سائر شؤونه لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها فأنكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفا مع العوائد فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتي العرب والعجم واصطفى من العجم موالي رباهم بنعمته وأسمهم درور احسانه منهم مصطفى باي ومعناه بلغة الترك قائد القواد ويختص به قائد الاصباحية وكان برسم حراسة الباب العالي ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الاموال ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج والباشا جوذر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة

وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج وتليهم طائفة أخرى منها بختيار وبغا ثم ان جيش العجم من الاترك والعلوج قسمه الى أقسام (منها البيالك) وهم أهل القلانس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه (والسلاق) أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ويناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيفون اليها وقت الحزام أجنحة طوالا يؤلفونها أيضا من ريش النعام الباقي على أصل خلقته ويركزونها في الجعاب المنوطة بالقلانس من أعلى الجباه ويرسلونها الى وراء ويقف هؤلاء خلف البيالك (وبلبدروش) وهم أهل القاقيف وهي رماح قصيرة غليظة العصي مغشاة بالحديد مرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتي كل سنان منها أضلاع مستقيمة ويقف هؤلاء خلف السلاق (والشنشرية) وهم أهل الطعام وضعا ورفعا الاغير وقائدهم بختيار من سبي وادي المخازن (والقبجية) وهم أهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها وقائدهم مولود المشاوري وطائفة من هؤلاء تحرس ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بالدار ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسي والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالايوان وتعاهد اغاطا الجلوس وكنسها (والشواش) وهم الذين يتولون ضبط الجيوش في المصاف في حرب أو سلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر ﴿قال الفشتالي﴾ وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول فاذا خرج في يوم عيد أو ملاقاة أو تهنئة خرجوا مترتبين وكل قائد يقف عند مبدا انبعاث حبل جيشه تحت ألوية محفوفا بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم بالكباشات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه وهكذا يمتد الى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه الى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل الى ذلك لو أراده ﴿قال الفشتالي﴾ والترتيب الذي جرى به العمل في عساكر النار أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي من العلوج ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم وهذان يسيران صفين متساويين لاستواء مرتبتهما وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء غير ان الموالي يكونون في الميمنة لمزية الولاء وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان ويتقدم قائداهما محمود قائد الموالي وجوذر قائد الاندلس وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بلكباشات ثم يتصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المؤلفة من البيالك والسلاق وبلبدروش فتسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفا متساوية فأما البيالك فيلوون ركابه يحفون به يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه البرتية المنصوبة أمامه ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حاله ركوبه أقربهم درجة لقائدهم ابرويز واذا مشى المنصور الى جامع المنصور من جهة قبور الاشراف أو للمشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله ابرويز بنفسه ثم يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق ويسير عن يمين هؤلاء وشمالهم بلبدروش أهل القاقيف يوتة كيف من الجميع صورة تزرع الرعب في القلوب وتسير الجنائب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوبة صفا صفا الى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودها صنف يدعون السراجة ركبانا وكانت جنائب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية وجيش الصباحية الذي الى نظر الارباى ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب الذي يرفع اللواء العظيم الابيض المدعو باللواء المنصور وعلامة على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه وهنالك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة وأمامه الطبل العظيم الذي يسمع دويه من مسافة بعيدة ومن خلفه الطبول الاخر معها الغيطات واحدتها غيطة يتولى النفخ فيها قوم من العجم أسانيد يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها على شيء دون الحرب فانها تشجع الجبان وتقوي جاش

الخائف حكمة فيلسوفية وهنالك من أمير آخر وجماب طوال الصفرية على مقدار النفير تسمى الطرنباط مما أحدثه أيضا في دولته وزادت بدولته فخامة وضخامة ثم يردف هذه الالوية والآلات من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم فهذا ترتيب جيش المنصور وانتهى باختصار من كتاب مناهل الصفا وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعدية كما زعمه بعضهم بل كان ذلك موجودا في الدول القديمة شرقا وغربا ﴿قال اليفرني﴾ وما ذكره الامام الفشتالي من توافر أجناد المنصور وتكاثر جيوشه وكذلك وقد أولعت العامة ... خبروا ... وزراء المنصور ... الى الرملية بظاهر مراكش ولم تعلم أصحابه بخروجه فخفين علموا بخروجه تبعوه خفافا وثقالا فأمر بعد ما معه هنالك من الجيش فوجده ثمانين ألف فاقة قال ياسبحان الله قد خاطرنا ... هذا العدد ... ولا يخفى ما في هذا الكلام من الافراط والذي ذكره الشيخ أبو العباس أحمد افغاي الاندلسي في كتابه المسمى برحلة الشباب الى لقاء الاحباب ما معناه قال ان جزيرة الاندلس التي ... تردد ... الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش في أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفا فاوتحركت همته لفتحها الاستولى عليها في الحين اه ... اه كلام اليفرني ﴿وأما بيان حالة المنصور في السفر﴾ فقد قال شارح زهرة الشماريخ ان المنصور كان قليل الاسفار وانما سافر الى فاس مرتين لا غير وانما كان متفرغا للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته ﴿قال اليفرني﴾ وبه يعلم أن ما شاع على الالسنة من انه كان يمكث بفاس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم وكان المنصور اذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن في التهيئة ما شاء ﴿قال صاحب النفحة المسكية﴾ كان له قصر من عود مسمر بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة وقد أحدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان وزخرفة بنيان وفي داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضاء وسوداء وحمراء وخضراء كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش وعلى بابهي الغرش وللسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثم ينتهي منها الى القصر الذي فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكية التي لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين اه ﴿ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالي في المناهل﴾ قال خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين باغمات قال فتأخرت وراءه فلحقني المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأتاني آخريات الناس فانشده أبا فارس

بان الخليط وودعوا فتتابعوا ❊ ولو احسن الصبر مني شيعوا

فقال وغرد حادي البين وانشقت العصا ❊ وكاد فؤادي للنوى يتقطع

فقلت الى الله أشكو فرقة منهم وقد ❊ تجرعت من كاس النوى ما تجرعوا

ثم زدت ائن شرد السلوان عني بعدهم ❊ ففي صحبة المنصور أنسي أجمع

ثم قال تدور عليه هالة لقبابه ❊ ومركزها قصر الخلافة أجمع

فقلت سماح به بحر الندى متموج ❊ ومن أفقه شمس الامامة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات في شارة حسنة ... أغمات ... يومين وفي الثالث نهض الى زيارة الامام أبي عبد الله الهزميري وعاج على ضريح الشيخ سيدي ... وقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما تيسر وفرق أموالا على ذوي الحاجات على يد القاضي الشاطبي والفقيه الامين أبي الحسن علي بن سليمان التاملي وكان معه الفقيه القاضي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه وكان الحميدي لوذعيا خفيف الروح وفي هذه السفرة صدرت منه الابيات التي تبارى في معارضتها شعراء الدولة وقد ذكرها في النزهة ... هنالك ﴿ومما يتعلق باخبار الحميدي

المذكور

المذكور ﴿أن المنصور سافر مرة الى تارودانت ومعه جماعة من الاعيان كالقاضي الحميدي وأبي العباس المنجور وغيرهما فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أخبيتهم فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة ويقال ان هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالي الروداني فوطئ على طنب من أطناب خباء القاضي الحميدي فصاح القاضي من هذه البقرة التي قوضت على خيمي فتهكم الرجل فالقى اليه الرجل قرطاسا فيه أبيات وقال البقرة من لا يجيب عن هذه ونص الابيات

الى بابك العالي مسائل ترتقي * تفطن لهن ياحميدي واصدق
فما الحكم في الاوزاغ هل ساغ أكلها * وما الحكم في موتى المجانين فانطق
وهل جاز للمسبوق بعد تشهد * دعاء اذا رام اكمال ما بقي
وما وزن ليس يا أديب وأصله * وما جمع فعلة لصاع محقق
وما وزنه شمسرولاتن واثنتا * بجمع سواء والمقيد أطلق
وبين لنا من في أعوذ بربنا * من ابليس والتخمين في الكل فائق

فبدا للحميدي مالم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب فرفعت القضية الى المنصور فاستغربها وقال هذا رجل من أهل البادية فضح قاضي قضاة الحواضر وأمر المنجور فأجاب عنها يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل ونص الجواب

جوابك في الاولى اباحة أكلها * بمذهبنا فاجزم بذلك وصدق
كذا ابن حبيب في الخشاش أباحه * لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل في الاوزاغ يحرم أكلها * وذلك في الكافي ليوسف فادق
ومستقذر يحكي المخالف منعه * وأنكره التنبيه فانهض موفق
ورجح ما يحكي المخالف بعض من * له العزو للتحقيق لا للتشدق
وميت مجنون جرى خلف حكمه * بعلم كلام لا تكن غير مفتق
وتحقيقها ان الجنون الذي طرا * يصير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعد البلوغ طروه * وحينا يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة اثر الصلاح وقوعه * وحينا به عصيان الكبيرة يلتقي
وحينا يدوم للممات وتارة * يفيق فخذ حكم الجميع وحقق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد * وذا في امام في المناجاة فارتق
وليس له فعل كقال وأصله * بكسر لياء فاكسر الغين ترتقي
وجمعك صاعا في القليل بأصوع * وأصوع بهمز الواو فاهمز ووفق
وان شئت فاقلبه فيرجع آصعا * لذلك تصريف فللعلم شرق
وصاع كعام عينه فرع ضمة * وتحريكه فتح فوزنه يحقق
وجمع سواء فالذي منه جامد * بأسوية سماعا فلا تفرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه * وأسوية نقل فبالحق فانطق
ومقصد من في العوذ بدء الغاية * فابليس مبدا العوذ عند الموفق

﴿انتقاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل اليه أمره في ذلك﴾

كان المأمون كما تقدم ولي عهد أبيه المنصور وكان خليفته بفاس وأعماله سائر مدة أبيه وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل ان المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال الا قال جعل

الله فتحه على يد الشيخ رجاء أن يقوم بالامر بعده فلم يساعد القدر وخرج الامر كما قال القائل

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فأساء المأمون السيرة وأضر بالرعية ﴿قال اليفرنى﴾ وكان فسيقا خبيث الطوية مولعا بالعبث بالصبيان مدمنا للخمر سفاكا للدماء غير مكترث بامور الدين من الصلاة وشرائطها ولما ظهر فساده وبان للناس عواره نهاه وزير أبيه القائد أبو اسحق ابراهيم السفيانى عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته فاعاد عليه اللوم فلج فى مذهبه ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور ومما أنكر عليه انه قبض على كاتب أبيه أبى عبد الله محمد بن عيسى وهو مؤلف كتاب الممدود والمقصور من سنا السلطان المنصور ووظف عليه أموالا وابتز ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة بخس من الملف المختلف الالوان فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لابيه كتب اليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه فما زاده التحذير الا اغراء فلما رأى المنصور أنه لم يكترث بامره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه الى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعا له فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لاصحابه وكان عدد جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفا كلهم بكساوى الملف والحرير على أحسن شارة وأكمل زى وعزم انه ان بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه فى أصحابه الى تلمسان ويستجير بالترك فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش وكتب الى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما وقال له قد سوغتكه ولا أطالبك فيه ومراده بذلك أن تسكن نفرته ويرجع اليه عقله فأظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يؤم سجلماسة فما انفصل عن فاس بشئ يسير حتى ندم ورجع اليها وعاد لما كان عاكفا عليه فبعث اليه المنصور أعيان مراكش وعلمائها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق ولم يألوا جهدا فى نصحه فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم مغمور الذهن بخلاف قولهم الا أنه أظهر الرجوع عما كان عازما عليه من الفرار عن أبيه وأقصر فى الظاهر عن بعض تلك المساوى فرجع الوفد الى المنصور وقالوا له انه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وانه واقف عند الامر والنهى فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم لعل هذا اطفاء لنار الشحناء وكذب لا صلاح الباطن وصمم على المكر بالشيخ فكتب اليه كتابا طويلا يلومه فيه على بعض الاشياء وفى ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة ﴿ونص الكتاب﴾ من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أوامره وظفر عساكره الى ولدنا وولى عهدنا الامير الاجل الافضل الاكمل الاعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله أما بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد الا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة هذا والذى أوجبه أسعدكم الله وكلاكم انه بلغنا انكم قد استخدمتم هنا كم جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخى على بن محمد وأخى على بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم فى اعطاياتهم نحو خمسة آلاف والى هذا أى مصلحة ظهرت لك فى استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض بل ما فى ذلك الا الفساد البين لان هذا الذى تعرضتم له لا يفى به المغرب ولا يقوم معه بكم شئ ومسئلة هؤلاء أولاد طلحة ان كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليدنا فى ذلك واقتفاء سير تنافيه فاعلم ان بيننا وبينكم فى هذه المسئلة فرقا من وجوه منها ان مراكش ليست كفاس وان خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هنالك وأيضا هؤلاء الناس أنا أعرفهم وكنت فى بلادهم وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها منى وأنا هنالك فوعدتهم اذ لا يمكننى وأنا ببلادهم الا مساعفتهم فلما جاؤا اليوم وطالبونا بالوعد لم يمكن الا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها

وعلى هذا الشرط استخدمناهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة وكنت فى ذلك على خطأ اذ كان الاولى أن كنا حاسبناهم وتركناهم من الخدمة وأما أنت ففى مندوحة عن هذا كله لانه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به ويمكنك أن تحيلهم على اذ ناوه شورتنا فنكفهم منك بالشرط الذى شرطناه عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم من استخدمنا والى هذا فالذى نؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تستخدم منهم حتى فارسا واحدا أصلا من الذين ذكرنا لك ومن غيرهم من كافة أولاد طلحة وأمرناك أن تنتصل لهم فيها وتقول لهم ان السلطان منعني من استخدامكم هنا وتقرأ عليهم كتابنا الواصل اليكم صحبته هذا لتتفادى منهم ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم والذى شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبرا عليه هو ما وجدناهم قد اطلعوا عليه أعنى أولاد طلحة على بن محمد وغيره من أحوالكم وأخباركم وألفيناهم قد توصلوا من ذلك الى مالم يتوصل اليه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا الان أهل بلادنا أحباء مالهم بحث الا فى صالح أنفسهم وهؤلاء اغيار ينتقدون ويبحثون عن الغرة وعورات المملكة فاذا بكم تتخذونهم بطانة وأصدقاء وتطالعونهم باحوالكم وأموركم مع ان القوم لاز الوا ببلاد العدو وبين أظهرهم ومايطلعون عليه تحتاج تقطع وتجزم بان الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا بأنفسهم عليه وأيضا لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا الا خيرا فالقوم عرب لا يتحفظون على مايطلعون عليه ولا يفهمون مايحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا يتم الكون قولا ولا نطقا وبالجملة فقد أحرقتنا هذه المسئلة وتفطرت لها أكبادنا وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بان الناس كانوا يتحفظون فى أقل الامور أن يطلع عليها الاجانب وان كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب وهل ما عندكم علم بان أخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جدا أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر فى المجلس منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بازائه لئلا يكون عيب فى ذكر ذلك بحضره فعليه شاور القائد دحو ابن فرج كان بازائه فقال له هذا الرجل برانى ولا تطلب شيأ قدامه على ان منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ماليهم من خواص الخدام أهل بساطنا محبة وقربا لانه أسلف معهم خدمة عظيمة فقد كان عدو للترك وبينه وبينهم أرواح وحضر مع أخينا بابا حمو الحزان جميع ما كان فى تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الاوسط ثم مع بابا عبد القادر كذلك وشرب معهم الحلوة والمرة ولما جاء من تلمسان جاء باولاده منها راحلا كما جاء منها بابا عبد الله باولاده وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد ودوام زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن بلغ الى ان قلدوه حاضرة تازا ثم بلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الا لاقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم ومع بلوغه الى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعا حتى انه فى دخول صالح رئيس مدينة فاس رحل باولاده مع السلطان الى هنا كما فعل أهل هذه البلاد وحين دخلناها نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضا مع صاحب الجبل الى مراكش ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب أبدا فى الحديث والقديم ثم ان الناس استبعدوا ان يطلبوا أقل المسائل بحضره وقالوا انه برانى فضلا عن هؤلاء الذين مازالوا الى اليوم فى بلاد العدو يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطالعوهم على أموركم ويتوصلوا الى المعرفة باحوالكم فاتعالكها هذه المسئلة ولا وجدنا عليها صبرا ومن جملة الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور أن على بن محمد كان يتكلم يوما معنا وأخذ يثنى عليكم فى نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخائكم عند الحاجة ثم قال الا ان الخيل ليست عنده لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية لان القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه وهى التى غاظتنى

وقلت كيف يتوصل الرجل البراني الى أمثال هذه الامور حتى انا ما وجدنا الا الرد عليه وعكس ما عرفنا انهم اعتقدوه وقلنا اللهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتمادهم خلوا البلاد من الخيل لا نافهم منا منهم ذلك ولهذا أجبته وقلت له ان ولدنا لم يعطهم شيأ وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين باكل المال وعدم الحزم ولو أعطى تلك القبائل لحشرها اليه لان أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف وعند أولاد أبي عزيز نحو ألف ونصف وعند ... وعند أولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبي رأس وعند أحمر وعند المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبوا وجمعت أعداد له قبائل السوس وقبائل ... وأحصى له ... وقلت له لو أنصفهم لحرك منهم معه ستة عشر ألفا أو أكثر ويكون قدم لا بهم تلك البلاد وسال عليها منهم سيل العرم لا في الحركة الاولى ولا في الثانية ولو وجه اليهم المحركين والرماة لاتوه أيضا بالاخلاص والى هذا نوصيكم على المحافظة من أولائك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا ان الخالط وجهوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث يهددهم بالفساد والخلاف وكنا ننتشب معهم بالعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمعوا فيه مع ان هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسماع فقط ولا طويلة عهد حتى تنساها بالامس ... ولو رأيت فالذي أنسالك فعلهم وما زال يرجعهم الآن لم يبرأ الآن خروج القائد ... الخارج الآن ما كان الا اليهم والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى في هذه المسئلة وقد سمعنا أيضا أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخنيق الى دار الدبيبغ وكأنكم نسيتم أيضا ما عمل أولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد في البلاد حتى نزلوا تلك المنازل والى هذا فساعة وصوله اليكم نقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصا أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذي كان أبوه حاجبا عند المريني فهو أصل الفساد ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا وزد القائد مؤمن بن ملوك ألف درهم ليستوفي لكم الغرض في هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به لان بقاء الرماة هنالك ما فيه الا الاشتغال بالفساد في المدينة فتحتاج ان تتولاهم بالقتل كل يوم باطلا فكان خروجهم اذ ذاك دفعا لمضرتهم وجلبا للصالح بهم وحتى الكاتب اللائق بامثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لان كتبكم تأتي بخط سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخط الكريني وهو باهل مع انك انما كنت خليفتنا ولي عهدنا كنت بصدد أن يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى وكل من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب اليك ويكون أيضا ممن يوثق به في المحافظة على أسراركم والى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وصاحب مشورتك وعند ... المظالم كما هنا هو عندنا السيد على بن سليمان واعلم ان مما تحتاج أن ننبهك عليه مسئلة القواد الذين يريدون أن يحملوك أعمال أولادهم مثل ما فعلت في أولاد القائد بركة واخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية فنؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحدا فما أعطيناه سلا الا ليرفع فيها أولاده واخوته وكذلك الحكم في أمثاله ممن أعطيناه عملا وقلدناه القيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامه في الرماة أهل الجبال من أهل العصفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحدا والا فاعلموا انكم ما أردتم حينئذ ان يغرموا اليكم ولا يعطوكم شيأ وان أردتم الخدمة فها هم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم واذا لم يكن من هؤلاء وكان ولا بد من غيرهم في أهل فاس سكان الحاضرة وأما من عداهم فلا على ان الرماة أهل السوس ها هي ... كثيرة فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم اليك ونضيفهم الى خدمتك

ونؤكد

ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هذه الامور كلها فصلا فصلا مع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولابد ولابد وهذا موجبه اليكم والله يحرس بمنه علاكم والسلام وفي مهل جمادى الاولى من عام احد عشر وألف اه ثم لم يلبث المنصور ان بعث الى ولده زيدان وكان خليفته على تادلا يأمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تاقبالت وكل من وجدوه قاصد الغرب من ناحية مراكش يردونه وأرسل مولاه مسعودا الدورى على طريق سلا يفعل مثل ذلك وخرج المنصور من مراكش في اثنى عشر ألفا أوائل جمادى الاولى سنة احدى عشرة وألف وجد السير في بعض الأيام قلائل حتى نزل بالدوح موضع قريب من فاس والشيخ في جميع ذلك لاشعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه فبعث بما عيونه يرصدون له من قدم من مراكش ويكشفون عن الخبر فما راعهم الا الاباطح تسيل بأعناق الجياد وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الاودية والوهاد لانهم كانوا قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور السابلة فرجعوا الى الشيخ مسرعين والرعب يفت في أعضادهم ويطفئ جذوة عزائمهم فقعد واعلمه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا فعلم أنه محاط به فلم يمكنه الا الفرار فركب من حينه وفر الى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورغة وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفي قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما في المرآة فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الاحداث وقرناء السوء فبلغ خبره المنصور فبعث اليه الباشا جوذر امع القائد منصور النبيلي وحلف لهما بأغلظ الأيمان ان لم يأتياه به ليمكرن بهما ويجعلهما عبرة فذهبا اليه فامتنع من الدخول في يدهما وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال وترامو ابالنبال ثم قبضوا عليه وأتوا به الى المنصور في خبر طويل فامر به الى مكناسة فسجن بها ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير اراقة دم وتصدق في ذلك بأموال عظيمة وكتب بذلك الى ولده أبي فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله من الظفر والنصر (ونص الكتاب) الى ولدنا الاجل الارضى الاكمل الاسعد الاصعد الامجد الاسمى الاسنى بابا أبي فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فكتابنا هذا اليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقر ولاشئ الا ما جرت به الاقدار وحكم به الفاعل المختار وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار وهي قضية أخيكم التي ثارت الى بها صروف الدهر من مكمني وطلعت على من مأمني الا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولا ثم شفانا آخرا فلله الحمد دائما والشكر واظبا وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم السوء أن الحال كان انتهى في معالجة أمره الذي تجاوزنا في وجوه الخير اليه حد الاستقصى وأتينا في محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجح بما لا يحصى الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وأبحنا له التوجه اليهما بجماته وجمعه رجاء أن تسكن بالانتباذ اليهما انفرته وتطمئن نفسه ويثوب اليه قلبه الطائر ويراجعه أنسه الحائر فاظهر أولا التوجه اليهما ونهض مرتحلا عن فاس مورياً بالقدوم عليهما ثم بدا له على الحين فكر راجعا الى فاس ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس وثاب لنفسه السكون والاستئناس فاذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر فأبدى ما أضمر فما كان الا ان طرأ عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك ان أقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه اقلاعا أزعجه من الدار فريدا وطارت به النفرة الى ان حل بزاوية الشيخ أبي الشتاء وحيدا فتلاحق به من جيش رماته اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم وعدد من كثرته لا يريم فبادرت حينئذ بتجهيز جوذر باشا من غير اغفال في خمسمائة صبائحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسمائة فارس ثم أردفناه ببعوث أخر تألبت اليه وتنالت عليه تناهز الالفين ورماة بابا زيدان حفظه الله فأحدقت به من كل الجهات وملكوا عليه الفجاج والثنيات ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة

درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك أنه كما ذكرتم ولكن لما أوقع الاختيار عليه لأمرين الأول الذمة لأنه عاله ولا نخشى ان شاء الله على مالنا الثاني ان خراج درعة سهل معلوم ولعله يكره هذه الولاية ويصعب الجلوس بداره ويغرى من يتكلم فيه عندكم فان كان من ذكره لكم مثل مسعود أو تاودي فاتهمه وقد طال العناق جريدتكم انكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام وهذا الذي ذكرتم ما نعلم انا كتبنا لكم عليه قط وانما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحر برسم المحلة التي هنا كم بحنق الوادي فان كان هو هذا فنحن أردناه للمحلة وان كان غيره فعرفنا بقضيته فان زرع المعاصر انما يلزم اليهود والنصارى المكترين للمعاصر وفيها أيضا ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة وانكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الامر لانكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الاصلاح الذي أمرنا به فعرفنا لنكون على بصيرة من ذلك وفيها أيضا مسئلة أولاد طلحة فدبروا عليهم اماما من عند اديسي أو غيره حتى لا يرجعون الينا شاكين وولد ابراهيم بن الحداد الى الآن لم يصل وزمام الاسرى وصل وأما الدرابة التي ذكرتم فيها السلتة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا فوجه ابيوسف العبد حتى تكلمه ومره يخرجها من عنده وركبها في موضعها ولا تركب التي عندكم بل تمسكونها لانفسكم واعلم اني تركت عند أولئك المعلمين أعني معلى بركاضو اسلاتي برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها وحيث يفرغون من الدرابة اجمعهم عليها كي تجد ذلك طالعا ان شاء الله فانا قد أمرنا بنسج درابق تلكم السلاتي هذا والمراد ان تجد السلاتي قد فرغ منها ان شاء الله وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهم بهما وحاول أن تسقفوا ذلك البلاط الذي يوالى سور القصبة من قدام الخيل والقبة التي فيه لنجده كاملا ان شاء الله عند قدومنا اليكم وحتى سوارى الرخام ركبوها في تلك الجهة اذا سقفتم ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الاشغال في الموضعين المذكورين وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزداد أمله بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه في ذهابه وايابه لداره والمسرة وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله وأوصيكم أيضا اذا ظهر المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج عين وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا والدكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله وأمر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج اليه من الترياق الجديد الذي كان بقية المشور ويدخل على أيديكم لدارنا واستدعوا أم المال قهرمانة الدار واعطها اياه برسم أهل دارنا وأمرها أن تعطيهم اياه في كل رابع من اليوم الذي يأكلونه فيه وهي أيضا تأكل منه والعبد يوسف أيضا يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعني مسعود ابن مبارك والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا تضيع لديه الودائع وأنتم في أمان الله وحفظه والله سبحانه خليفتي عليكم أنتم في عين الرحمن وكلتا يديه يمين والسلام الاتم عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ونسلم على ولدنا الاعز الارضى بابا عبد الملك وعلى ابنتنا الرضية سيدة الملك ونحن في غاية الاشتياق والتوحش لها جمع الله بكم الشمل جميعا آمين بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله خير آل والسلام اهـ ❊قال مؤلفه عفا الله عنه❊ قد وقع في كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان الى التنبيه عليهما الاول اذنه لولده أبي فارس في الخروج من مراكش اذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيأ يسيرا وهذا الامر محظور في الشرع كما هو معلوم ومصرح به في الاحاديث والثاني أمره اياه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وانما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس في الخل وهذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة وقد اتفق لي فيها كلام أذكره هنا تتميما للفائدة وذلك انه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا

سفر الى حضرة السلطان المولى أبي على الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة
بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الاول من السنة المذكورة ومررنا في طريقنا على المحب القائد الانبل
أبي عبد الله محمد بن ادريس الجراري بثغر الجديدة وهو يومئذ متول لعمله فاحتفل بقدومنا على
عادته حفظه الله في محبة العلم ومن ينتمي اليه وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت وكانت السنة سنة وباء
فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى في أمر الكرنتينة من حبس المسافرين وشد اذا لآفاق عن
المرور بالسبل والدخول الى الامصار والقرى ومنع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم وحصل
التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة
أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوي المصري في أخبار باريز فرأيته ذكر في صدرها
انه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد المناعي التونسي المالكي المدرس بجامع الزيتونة
ومفتي الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد البيرم في اباحة الكرنتينة وحظرها فقال المالكي
بحرمتها وألف في ذلك رسالة واعتماده في الاستدلال فيها على ان الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء
وقال الحنفي باباحتها واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي
النظر في حكم هذه الكرنتينة وظهر لي ان القول باباحتها أو حرمتها منظور فيه الى ما اشتملت عليه من
مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ماهو المعروف من مذهب مالك رحمه الله ثم يوازن بينهما وأيهما رجح
على الاخرى عمل عليها فان استوتا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول
الفقه ونحن اذا أمعنا النظر في هذه الكرنتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة ﴿أما المصلحة﴾
فهي سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة
لانه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وانه مهما استعملها أهل قطر أو بلد الا ويسلمون لا دائما
ولا غالبا بل الكثير أو الاكثر انهم يستعملونها ويبالغون في اقامة قوانينها ثم يصيبهم مافروا منه كما هو
مشاهد ومن زعم ان السلامة مقرونة بها دائما أو غالبا فعليه البيان اذ البينة على المدعي فنتج من هذا
ان مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة واذا كانت كذلك فلا يلتفت اليها شرعا بل ولا طبعا لانها
حينئذ من قبيل العبث ﴿وأما المفسدة﴾ فهي دنيوية ودينية أما الدنيوية فهي الاضرار بالتجار وسائر
المسافرين الى الاقطار بحبسهم وتعويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها
كما هو معلوم وأما الدينية فهي تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح في توكلهم وايهام ان ذلك دافع
لقضاء الله تعالى وعاصم منه وناهيك بهما مفسدتين محققتين مرتكبتين لشئ يكون أولا يكون فان العامة
لقصور أفهامهم قد تذهب أوهامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها ويقعون في ورطة ضعف الايمان
عياذا بالله ﴿فان قلت﴾ هذا الكلام فيه ميل الى سوء الظن بالعامة وهم جمهور الامة ﴿قلت﴾ ليس فيه
ميل الى سوء الظن بهم وانما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ماشاؤا
أو يفعل بهم مايضرهم في دينهم ودنياهم مع أن سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لا سيما في المذهب
المالكي ولامرة اجاءت الشريعة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد ونحوها ورد
الاسباب والمسببات كلها الى الله تعالى مع ما في استعمال هذه الكرنتينة من الاقتداء بالاعاجم والتزيي
بزي الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم الى الاصابة والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من
العوام فاما اذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهي الفتنة والعياذ بالله فاي مفسدة أقبح من هذه
فالحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها وجلب النصوص
الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلاني في تفسير سورة
النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن

تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم مانصه دل ذلك على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب اهـ وهو يقتضى بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأى وجه كان ولا يخفى انه يتعين تقييده بالوجه الذى ليس فيه مفسدة شرعية كعدم القدوم على الارض التى بها الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة فى ابانه المنقولة عن أئمة الطب اما بالوجه الذى يشتمل على مفسدة أو مفاسد كهذه الكرنتينة فلا هذا ماتحرر لنا فى هذه المسئلة والله أعلم ولما وقف على هذا الكلام أخونا فى الله الفقيه العلامة الاستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى وهو اليوم قاضى حضرة مراكش كتب الى بما نصه وأما حكم الكرنتينة فهو ماذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التى لا تفى بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة فى الجهات المتعددة ولا يخالف فى هذا الحكم الامكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق الا الضلال ثم جلب حفظه الله من النصوص مايشهد لذلك تركناها اختصارا والله تعالى الموفق بمنه

﴿وفاة المنصور رحمه الله﴾

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع الى مراكش فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص الى ان دخلت سنة اثنتى عشرة وألف فانتشر الوباء فى بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به على مانذكره ﴿قال صاحب الاصليت﴾ وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسى المعروف بأبى محلى كنا نسمع أن السلطان المنصور اذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس لا يرجع الى مراكش وذاع هذا الخبر فى الناس قبل نزوله فكان الامر كذلك ثم لا أدرى من أين للناس بذلك هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الاشبه والله أعلم قال ومن هذا ماذكره بعضهم أيضا لكن بعد الوقوع والنزول ان دخول رايات أبى العباس المنصور فى حياته للسودان واستيلاءه على سلطانها سكية فى دار امارته كاغو امع تنبكتوا وأعمالها كل ذلك من أمارات خروج الامام المهدى الفاطمى وكذلك الوباء المنتشر فى هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء فى سائر البلاد حتى الآن وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران اما على يده أو باذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر اهـ وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدى عميرة يوم الاربعاء حادى عشر ربيع النبوى سنة اثنتى عشرة وألف ودخل الى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتمل بها بعد الغروب وتوفى هنالك ليلة الاثنين الموالى لتاريخه ودفن بازاء مقصورة الجامع الاعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة عليه مفتى فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار ﴿قال اليفرنى﴾ كانت وفاة المنصور بالوباء ﴿وقال الشيخ﴾ أبو محمد عبد الله بن يعقوب السملالى فى شرحه لجامع شامل بهرام كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع الى سنة ست عشرة وألف وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الاعيان وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره ﴿قال اليفرنى﴾ وبه تعلم أن ماشاع على الالسنة من ان المنصور سممه ولده زيدان باشارة من أمه الشبانية فى باكور أوائل ظهوره وقطع عنه الاطباء الى ان هلك وان المنصور لما أحس بذلك قال استعجلتها يازيدان لا هنالك الله بها أو كلاما هذا معناه قالوا وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية فانه انهزم فى زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له لان المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به

ماشاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة اهـ ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه الى مراكش فدفن بها في قبور الاشراف قبلي جامع المنصور من القصبة وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيل ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات

هذا ضريح من غدت * به المعالي تفتخر
أحمد منصور اللوا * لكل مجد مبتكر
يارحمة الله اسرعي * بكل نعمى تستمر
وبا كرى الرمس بما * من رضاه منهمر
وطيبي ثراه من * ند كذكره العطر
وافق تاريخ الوفا * ة دون تفنيد ذكر
مقعد صدق داره * عند مليك مقتدر

﴿ بقية أخبار المنصور وبعض سيرته ﴾

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازما يقظا مشاورا في مهمات الامور وكان قد اتخذ يوم الاربعاء للشورة ويسماه يوم الديوان تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الامور وعظيم النوازل وهنالك يظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول الى السلطان قالوا ومن حزمه انه كان متطلعا لاخبار النواحي بحاثا عنها غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب ويقول كل شيء يقبل التأخير الا مجاوبة العمال عن رسائلهم وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم الا في أوقات مخصوصة ﴿قال الفشتالي﴾ ولقد كنا بالباب يوما يعني معشر الكتاب قبل ان يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي بان ولدا له في النزع فلم يملك نفسه ان ذهب الى داره فخرج المنصور على اثره فسأل عنه فقيل انه ذهب الى داره فاستشاط غضبا وبعث اليه يجيء به من عجل وما شككنا في عقوبته فلما مثل بين يديه قال له ما الذي ذهب بك فذكر له أمر ولده وانه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب فرق له وقال ان أمراض الصبيان قلما ينجع فيها الاطباء العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن ومن حزمه انه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه أحد يخرج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقا فاذا سقط ووقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه فكان اذا جهز أحد أولاده ناوله خطا من تلك الخطوط يفك بها رسائله اليه ويكتب عنوانه كذلك ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقي فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد في خط المشارقة ومما وقع له في ذلك انه بعث بطاقة بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبي عبد الله ابن عيسى يستدعي منه كتابا فبعثه ابن عيسى اليه وبعث معه بهذين البيتين

سقتني كؤس السمر وردها قا * خطوط أتتني في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحرا * فجاءت اليه من المشرق

وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها وزاد الامر على ما كان عليه في عهد أبيه حسبما مر وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها اجحاف منه ومن عماله وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة فيها ﴿قال اليفرني﴾ وتتبع ما وقع في ذلك يناقض المقصود من الاغضاء عن العورات والستر على الفضائح وقد ألمعنا لك بما يكون دالا على ما وراءه ﴿وذكر﴾ أن بعض عمال المنصور عدى على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالا فقدمت المرأة على المنصور

مراكش تشكوله ما تنالهـا من عامله فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت الى أولادها بالباب وقالت لهم انصرفوا فاني كنت أظن ان رأس العين صافية فاذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها ﴿ويحكى﴾ ان الفقيه القاضي أبا مالك عبد الواحد الحميدي قد سافر في جمع من فقهاء فاس وأعيانها الى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هي العادة فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا في سلسلة واحدة وفيهم امرأة قد أخذها الطلق وهي في كرب المخاض فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم فبقي ذلك في نفس القاضي فلما جلس الى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياما ثم ان القاضي تلطف في القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدّها بادرة فقال له المنصور لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة فان أهل المغرب مجانين مارستانهم هي السلاسل والاغلال ولقد وفد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقا وأصحاب الاغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة فاخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصعة أعطاه اياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وقال الآخر أجازني بكذا ثم لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء فقال القاضي لئن بلغت فاسا لاردن أولادي الى صنعة الموسيقا فان صنعة العلم كاسدة ولولا أن الموسيقا هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين ورجع المغني بشبابة الابريز فنقل الى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام ﴿وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته﴾ عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه الى المنصور فقال له كم تساوي ضيعتك قال سبعمائة أوقية قال خذها وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان فرجع صاحب الضيعة وأبلغ الى العامل كلام المنصور فامسك برأسه ساعة ثم قال له الحق بضيعتك وغرم له كل ما أكل منها اهـ ﴿وقال في المناهل﴾ كان للمنصور مصانع اخترعها وما ثر خلفها منها المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس أحدهما خارج باب عجيسة والآخر قبالته بباب الفتوح وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون وهما من الاتقان بحيث لا يعرف قدرهما الا من وقف عليهما وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وتسعمائة ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح وهما أيضا في نهاية الوثاقة والحسن ومن ذلك معاصر السكر فانه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة ﴿قال العشتالي﴾ وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة وقد تقدم أنه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر ومن ما ثره البيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور وقد تقدم الخبر عنها ﴿وقال ابن القاضي في المنتقى المقصور﴾ ان اللباس المسمى بالمنصورية وهو لباس من الملف لم يكن مستعملا قبله وهو أول من اخترعه وأضيف اليه فقيل المنصورية اهـ وكان في مدة المنصور من الاحداث انه ﴿في سنة سبع وثمانين وتسعمائة﴾ وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول ﴿وقال في المرآة﴾ لما انتهب الناس غنيمة وادي المخازن كان أناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ أصاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه وكان الرجل لا يزال يسعل الى ان تفيض نفسه فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة ﴿وفي سنة احدى وتسعين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة الى جنوة من بلاد الفرنج كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية وسبب اسلام والده ما حكاه أبو العباس الاندلسي في رحلته انه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير ان يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم

ثم بادر باخراج الفرس ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا ان المسيح جاء البارحة على فرسه الى الكنيسة وراث فيها فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى فى شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر الى بلاد الاسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم فنشأ مثلا فى العلم والولاية ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وكان رضى الله عنه يقول﴾ خرجت من بين فرث ودم أخذ الطريقة عن أبى محمد الغزوانى وقدم عليه مراكش ثم عاد الى فاس فمات بها فى السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح ﴿وفى سنة خمس وتسعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ العلامة الامام أبو العباس أحمد بن على المنجور كان متبحرا فى العلوم خصوصا أصول الفقه أخذ عن اليسيتنى وأبى زيد سقين العاصمى وأبى الحسن بن هرون وأبى مالك الوانشريسى وغيرهم ﴿وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ أبو الشتاء الشاوى دفين جبل آمركو امن بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكنى بأبى الشتاء لان الناس قحطوا ولجؤا اليه فسقوا ثى الحين وهو من أصحاب الشيخ الغزوانى ويقال مالقيه الا امرة بقبيلتها الشاوية فعينه ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان ﴿وفى ثامن عشر ربيع الثانى سنة ثلاث وألف﴾ توفى القاضى أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدى ودفن بروضة الشيخ أبى زيد الهزميرى خارج باب مصمودة من عدوة فاس الاندلس وقد تقدمت بعض أخباره ﴿وفى سنة أربع وألف﴾ توفى الشيخ أبو الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بأبى الشكاوى دفين شالة وبها كان سكناه أخذ عن الشيخ المجذوب وأبى الرواين المحجوب وغيرهما وأولاده ينتسبون الى عيسى بن ادريس الحسنى دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم ﴿وفى سنة ست وألف﴾ توفى الشيخ الربانى أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعرى دفين تاستاوت من مشاهير الاولياء كان أول نشأته بمكاسة الزيتون ثم خرج الى البادية بعد ان صعبت عليه القراءة ورأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له انك لن تقرأ ولكنك شيخ فخرج الى البادية وكان يظن أنه يكون من أشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبى عمرو القسطلى ورجع الى باديته فبنى مسجدا فى الموضع الذى عين له شيخه لسكناه فيقال انه لما قيل له جعلت محرابه منحرفا عن القبلة أشار بيده الى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شئ قدير وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الشرقى معاصرا له فقيل له ان الشيخ ابن مبارك قال أهل زماننا محسوبون علينا فقال اشهدوا انا من أهل زمان ابن مبارك ﴿وفى هذه السنة أيضا﴾ كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطال فيها ومات به جمع من الاعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور ﴿وفى سنة تسع وألف﴾ فى جمادى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس ثم فى شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الاول تهدمت منه الدور والحوانيت وتهدم سد الوادى بفاس على وثاقته واحكامه وهذا السد هو الذى كان جدده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى ثم جدده المنصور فى هذه المرة من أحباس القرويين ﴿وفى سنة عشر وألف﴾ توفى الشيخ العارف بالله الربانى أبو عبد الله ويقال أبو عبيد محمد الشرقى ابن الولى الصالح أبى القاسم الزعرى الجابرى ثم الرتمى هكذا نسبه صاحب المرآة وغيره ورفع أبو على المعدانى فى كتابه الروض الفائح نسبه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبى عبد الله محمد الصالح ابن المعطى مانصه ان الشيخ سيدى محمد الشرقى لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما اعثرنا عليه أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت فى اجازاتهم وكذا فى تمليكاتهم اهـ وهذا الشيخ أعنى أبا عبد الله الشرقى كان من أكابر أهل وقته يقال انه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الاولياء وبعث اليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على ان وفد عليه زائرا ومدحه بقصيدة ذكر بعضها

﴿وفى نشر المثانى﴾ عن الشيخ أبا عبد الله المسناوى فى نسب الشيخ المذكور السميرى وهكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى تقييد المؤلف الممتع مانصه هو من بنى جابر ثم من ورديغة ثم من الرغة ثم من أولاد بحير ثم من أولاد سمير وكلهم ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

اليفرني في الصفوة وله مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات ووقع بينهما كلام طويل انظر ابتهاج القلوب أخذ رضي الله عنه عن والده عن الشيخ التباع واعتمد على الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد ابن عمر والمختاري من أحواز مكناسة وأخذ أيضا عن ابن مبارك الزعري وأبي محمد بن ساسي وتوفي أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجيدان وقبره شهير نفعنا الله به وبسائر أهل الله

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى﴾

لما توفي المنصور رحمه الله وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان وقالوا ان المنصور استخلفه في حياته ومات في حجره وكان ممن تصدى لذلك القاضيان قاضي الجماعة بفاس أبو القاسم بن أبي النعيم والقاضي أبو الحسن علي ابن عمران السلاسي والاستاذ أبو عبد الله محمد الشاوي والشيخ النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار وغيرهم ﴿ويحكى﴾ أن القاضي ابن أبي النعيم قام في الناس خطيبا وقال أما بعد السلام عليكم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات اجتمع الناس على أبي بكر رضي الله عنه ونحن قد مات مولانا أحمد وهذا ولده مولانا زيدان أولى بالملك من اخوته فبايعه الحاضرون يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الاول سنة اثنتي عشرة وألف قالوا وكان زيدان لما توفي والده كتم موته وبعث جماعة للقبض على أخيه الشيخ المسجون بمكناسة فذهبوا من ذلك الباشا جوذر كبير جيش الاندلس وحمل الشيخ موثقا الى مراكش حتى دفعه الى أخيه أبي فارس وكان شقيقاله فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من أمره ما يأتي كذا قال بعضهم ﴿وقال في شرح زهرة الشماريخ﴾ ان زيدان لما اشتغل بدفن والده احتال القائد أبو العباس أحمد ابن منصور العلج فذهب بنصف المحلة الى مراكش نازعا عن زيدان الى أبي فارس ومر في طريقه بمكناسة فاخرج الشيخ من اعتقاله واحتمله معه الى أبي فارس فسجنه فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم

﴿انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لابي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة﴾

كان المنصور رحمه الله قد فرق عمالات المغرب على أولاده كما مر فاستعمل الشيخ على فاس والغرب وولاه عهده واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها واستخلف عند نهوضه الى فاس ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها وكان يكاتبه بما مر بعضه من الرسائل فلما اتصل باهل مراكش وفاة المنصور وكتب اليهم أهل فاس ببيعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس لكونه خليفة أبيه بدار ملكه التي هي مراكش ولان جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل الى أبي فارس لان زيدان كان منتبذا عنهم بتادلا سائر أيام أبيه فلم يكن لهم به كثير المام ولا مزيد استئناس مع انه كان جديرا بالامر لعلمه وأدبه وكمال مروءته رحمه الله الا ان السعد لم يساعده وقد قيل في المثل قديما قاتل بسعد والا فدع ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ابن أبي النعيم ومفتيها أبي عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما وكانت بيعة أبي فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وألف وهو شقيق الشيخ المأمون أمهما أم ولد اسمها الجوهر ويقال الخيزران واسم أبي فارس هذا عبد الله وتلقب بالواثق بالله وكان أكولا عظيم البطن مصابا بمس الجن ويقال انه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ أبي العباس السبتي وشيد مناره وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الشيخ بالبرء من تلك العلة وكان مع ذلك يميل الى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله

﴿نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بام ربيع ثم فراره الى تلمسان﴾

لما بايع أهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض اليه فخرج من فاس يؤم بلاد الحوز واتصل الخبر بابي فارس فجهز لقتاله جيشا كثيفا وأمّر عليهم ولده عبد الملك الى نظرة الباشا جؤذر فقيل له ان زيدان رجل شجاع عارف بمكائد الحرب وخدعه وولدك عبد الملك لا يقدر على مقاومته فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان أقرب للرأى لان أهل الغرب لا يقاتلونه لانه كان خليفة عليهم مدة فهم آنس به من زيدان فاطلق أبو فارس أخاه المأمون من ثقاف السجن وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا ثم سرحه فى ستمائة من جيش المتفرقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعثهم الى كاغو من أعمال السودان وقال له ولاصحابه جدوا السير الليلة كى تصبحوا بمحلة جؤذر على وادى أم الربيع فلما انتهى الشيخ الى المحلة المذكورة وعلم الناس به أهرعوا اليه واستبشروا بمقدمه ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له حواتة عند أم ربيع ففرّ عن زيدان أكثر جيشه الى المأمون وحنوا الى سالف عهده وقديم صحبته فانهزم زيدان لذلك ورجع ادراجه الى فاس فتحصن بها وكان أبو فارس قد تقدم الى أصحابه فى القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان فلما فرّ زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم اليه من جيش أهل الغرب وامتنع على أصحاب أبى فارس فلم يقدروا منه على شئ وانتعش أمره واشتدت شوكته ثم سار الى فاس يقفو أثر السلطان زيدان ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه اليه راود أهل فاس على القيام معه فى الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التى هى مقتضى بيعتهم التى أعطوا بها صفقتهم عن رضى منهم فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعته لقديم صحبتهم له ولما أيس زيدان من نصرهم وقد أرهقه الشيخ فى جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجيا بنفسه وتبعه جمع عظيم من أصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شئ وذهب الى تلمسان فاقام بها الى ان كان من أمره ما نذكره وأما الشيخ فانه لما وصل الى فاس تلقاه أهلها ذكورا وأناثا وأظهروا الفرح بمقدمه فدخلها ودعا لنفسه فاجيب واستبد بملكها ثم أمر جيش أهل مراكش أن يرجعوا الى بلادهم فانقلبوا الى صاحبهم مخفقين وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستبداد بالامر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضى الجماعة أبى القاسم بن أبى النعيم ومفتيها أبى عبد الله محمد ابن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفى أخيه أبى فارس ان أولاد الاماء لا يتقدمون فى الامر على أولاد الحرائر وكان أبو فارس والشيخ ولدى أمة اسمها الخيزران كامر وزيدان أمه حرة من الشبانات وعزم أن ينكل بهما ثم بعث بهما مع جيش مراكش الى أخيه أبى فارس ليرى فيهما رأيه * فأما الشيخ القصار فتوفى رحمه الله على مقربة من مراكش بزاوية الشيخ ابن ساسى وحمل الى مراكش فدفن بقبة القاضى عياض وذلك فى أواسط سنة اثنتى عشرة وألف * وأما القاضى أبو القاسم فاجتمع بابى فارس فقبل عذره وصفح عنه ورده مكرما الى فاس هكذا ذكره بعضهم وقيل ان الذى بعث بالشيخ القصار الى مراكش هو السلطان زيدان على وجه يخالف هذا والله أعلم

﴿نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبى فارس واستيلاؤه على مراكش﴾

ثم ان الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار أهلها فاستسلف منهم مالا كثيرا وأظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ثم تتبع قواد أبيه فنهب ذخائرهم واستصفى أموالهم وعذب من أخفى من ذلك شيأ منهم ثم جهز جيشا لقتال أخيه أبى فارس بمراكش وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف وأمّر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلته فى موضع يقال له أكليم ويقال فى مرس الرماد فوقعت الهزيمة على أبى فارس وقتل نحو المائة من أصحابه ونهبت محلته وفرّ هو بنفسه الى

مسفيوة ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد ومن يشابهه أباه فـ الظلم حتى حكي انه زنى بجواري جده المنصور واستمتع بحظاياه وأكل رمضان وشرب الخمر فيه جهارا وعكف على اللذات وألقى جلباب الحياء عن وجهه وكان دخوله مراكش في العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف

﴿مجيء السلطان زيدان الى المغرب واستيلاؤه على مراكش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها﴾

كان السلطان زيدان لما فر من فاس الى تلمسان كما مر أقام بها مدة وكان قد بعث الى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطؤا عليه وطال عليه انتظارهم فلما يئس منهم توجه الى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ثم انتقل عنها الى درعة ومنها الى السوس فكتب اليه أهل مراكش وقد ندموا على ما فرط واقبه من أمره والدخول في طاعته فكتبوا اليه أن يأتيهم ولو وحده فتوجه اليهم ودخل عليهم ليلا فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ الا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وتقدموا الى قائدهم عبد الله أعراس الذي ولاه عليهم الشيخ فقتلوه وخرج عبد الله فارا بجموعه من أهل فاس والغرب فحاصرهم أهل مراكش بين الاسوار والجنات وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله من جيشه فأتى القتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس وذلك في أواخر سنة خمس عشرة وألف وفر عبد الله ابن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس في أسوأ الحالات مفلول العساكر مهزوم الجموع معتاضا عن جيش النصر بجيش الدموع

﴿عود عبد الله بن الشيخ الى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها﴾

لما قدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس سليبا مهزوما قامت قيامته ورأى ان يهيئ عسكرا آخر ويجدد جمعا ثانيا فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته واستحى أن يستسلف من التجار لانه كان استسلف منهم فلم يردلهم شيأ ولما أعيته الحيلة رجع الى قوّاده فقلب لهم ظهر المجن ونهب أموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار فاجتمع له من ذلك أموال عريضة فرقها في جيشه وتهيأ عبد الله للسير الى مراكش وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من اخوانهم بها ونادوا بأخذ ثارهم حتى ان بعضهم خرج مع عبد الله من غير أخذ مرتب ولا جامكية فخرج عبد الله بجموع عديدة وجيوش حفيلة ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث اليه العلج مصطفى باشا في جيوش كثيرة ﴿قال في شرح زهرة الشماريخ﴾ كان بعث مصطفى باشا وخروجه من مراكش في شعبان سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بموضع يقال له تافلفلت على طريق سلا فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراكش نحو التسعة آلاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس الى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى ثم توجه عبد الله الى مراكش فبرز اليه أهلها في ستة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له رأس العين فانهزم أهل مراكش وتقدم عبد الله بن الشيخ فاقتحمها بجيشه وفر زيدان الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فبقي متنقلا هنالك الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان الى مراكش﴾

لما دخل عبد الله بن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الاولى وهربت شرذمة من أهل مراكش الى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية واتفق رأيهم على

ان يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وكان رجلا خيرا دينا صينا وفوا فبايعه أهل مراكش هنالك والتفوا عليه فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الادبار فخرج من مراكش مهزوما سادس شوال سنة ست عشرة وألف وترك محلته وانفاضه وعدته وجل الجيش وأخذ على طريق تامسنا وامتحن أصحابه في ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقية والخبزة من نصف رطل بربع مثقال ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مروا عليه من الخيام والعمود ويسبون البنات الى ان وصلوا الى فاس في الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة وأما محمد بن عبد المؤمن فانه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل الغرب من جيش عبد الله بن الشيخ وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش ونقموا عليه ابقاءه عليهم وكانوا نحوا لالف ونصف فكتبوا سرا الى السلطان زيدان بالجبل فاتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد فخرج محمد بن عبد المؤمن الى لقائه فانهزم ابن عبد المؤمن ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ ﴿وذكر في شرح زهرة الشماريخ﴾ ان هذا الثائر بجبل جيليز اسمه أبو حسون من أولاد السلطان أبي العباس الاعرج والله أعلم ولعل هذا الصواب بدليل ما يأتي في رسالة زيدان ان شاء الله

﴿خروج جالية الاندلس من غرناطة وأعمالها الى بلاد المغرب وغيرها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة وأعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة وان أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطوها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف وان عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة وكان أهل الاندلس من أجل ذلك كثيرا ما يهاجرون من بلاد الكفر الى بلاد الاسلام أثناء هذه المدة السالفة غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا باخلاق العجم وأثر فيهم ذلك أثرا ظاهرا الطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم فكانت تصدر منهم في بعض الاحيان مقالات قبيحة في حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم لاسيما اذا نالهم منهم بعض الظلم ولقد رأيت في كتاب المعيار وغيره سؤالات وفتاوى صدرت من علماء المغرب في حق هؤلاء الصنف منهم وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جندا كبيرا وبهم فتح المنصور اقليم السودان واستمر الحال على ذلك الى ان كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ﴿وقال في نفح الطيب﴾ كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا الى ان كان اخراج النصارى اياهم أعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل منهم من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا قراها الخالية وبلادها اهـ ﴿وقال صاحب الخلاصة النقية في أمراء افريقية ما نصه﴾ وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس فاوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه وأباح لهم بناء القرى في مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفههم اهـ ﴿ثم قال في نفح الطيب﴾ وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور وهم الآن بهذا الحال ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى

والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام اهـ كلام نفح الطيب وقوله وحصنوا قلعة سلا يعنى بها رباط الفتح اذهى يومئذ مضافة الى سلا ومعدودة منها والله تعالى أعلم

﴿استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها الى العرائش ثم الى طاغية الاصبنيول﴾

كان الشيخ بن المنصور عفا الله عنه على ما تقدم من قبح السيرة والاساءة الى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس ورفضته القلوب وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعا وكان قد بعث ابنه عبد الله مرة ثالثة الى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها فخرج عبد الله من فاس آخر ذى الحجة سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بوادى بوركراك فكانت الهزيمة على عبد الله وفر فى رهط من أصحابه وترك محلته بما فيها بيد السلطان زيدان فاستولى عليها وانضم اليه جيش عبد الله من أهل فاس وغيرهم ميلا اليه ورغبة فى صحبته فعفا عنهم وتألفهم واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه فخاف الفضيحة وأصبح غاديا فى أهله وحشمه الى ناحية العرائش فاحتل بالقصر الكبير وهنالك لحق به ابنه عبد الله مهزوما من وقعة بوركراك وانضم اليهما أبو فارس بن المنصور رفانه بعد فراره من حرس الرماد الى مسفيوة أقام بها مدة ولما استولى السلطان زيدان على مراكش كما مر شدد فى طلبه ففر الى السوس ولما أعيت عليه المذاهب وزيدان فى طلبه لحق بشقيقه الشيخ فكان معه الى هذا التاريخ ثم ان السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا الى فاس فانتهى اليها ونزل مخيما بظهر الزاوية ووجد لاصحاب الشيخ زروعا كثيرة فارسل مصطفى باشا عليها جيشه فانتسفوها ودخلت فاس فى طاعته ثم نهض الى ناحية القصر الكبير ناويا القبض على الشيخ وحزبه واتصل بالشيخ خبره ففر الى العرائش ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على السلطان زيدان وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته وذلك فى ذى القعدة سنة سبع عشرة وألف وانتهى مصطفى باشا الى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد الله وأبو فارس فنزلا بموضع يقال له سطح بنى وارتين فبلغ خبرهما الى السلطان زيدان فجاء حتى نزل قبالتهما بموضع يقال له آروران ففر من كان معهما الى السلطان زيدان ولما بقيا أوحش من وتد بقاع فرا الى دار اليهودى ابن مشعل من بلاد بنى يزناسن فاقاما بها واختصر صاحب المرآة هذا الخبر فقال كان السلطان أبو المعالى زيدان بن المنصور التقى مع ابن أخيه عبد الله بن الشيخ صاحب فاس برؤس الشعاب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة سبع عشرة وألف فانهزم عبد الله بن الشيخ وفر الى محلة أبيه بالعرائش ثم رجع الى جهة فاس وانتهى الى دار ابن مشعل واستولى عمه السلطان زيدان على محلته وسار الى فاس فدخلها وأقام بها اهـ وفى دخلة السلطان زيدان هذه الى فاس قبض على الفقيه القاضى أبى الحسن على بن عمران السلاسى رحمه الله ﴿قال اليفرنى فى الصفوة﴾ كان القاضى المذكور ممن أخذ عن الشيخ القصار وكان مع ذلك لما ولى القصار الفتوى والخطابة بجامع القرويين يسعى عند السلطان فى تأخيره حتى أخر وولى هو مكانه مدة يسيرة ثم أعيد القصار وكانت بينهما شحناء عظيمة بسبب فتوى تنازعا فيها ثم أفضت الحال بالقاضى أبى الحسن الى أن قبض عليه السلطان زيدان بسبب أنه عثر له على كتاب كتبه الى بعض اخوته ينتقصه فيه ويوهن أمره فاوغر ذلك قلب السلطان عليه فسطا به وسجنه ونهب داره وأثاثه ثم سقاه سما على ما قيل فكان فيه حتفه وقد حكى هذا الخبر فى موضع آخر من الصفوة مطولا فقال كان القاضى أبو الحسن على بن عمران السلاسى شديد الانحراف عن الشيخ العارف بالله أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى سيئ الاعتقاد فيه ولم يزل يسعى به ويكيده فاتفق ان اجتمع بالشيخ فى بعض الليالى بعض من يتعاطى العلم فتكلموا فى مسائل من صفات الله فنقل كلام الشيخ الى القاضى على غير وجهه فانكر

ذلك وركب من حينه الى السلطان زيدان وهو يومئذ بفاس منتهز للفرصة فقال ان ههنا رجلا يعلم الناس البدع ويلقنهم آراء الفرق الضالة فقال له السلطان من هو قال فلان قال أخو سيدي يوسف قال نعم قال ٭ معنا أنه أعلم من أخيه ثم بعث السلطان اليه وهو مستشيط غضبا الخبر بلغه من ثورة بعض أقاربه عليه فجاء الشيخ أبو زيد ولم يخلع نعله حتى بلغ بساط السلطان فسلم عليه ومد يده فصافحه ثم تكلموا في المسئلة فانقطع القاضي ولم يجد ما يقول الا أن الناقل لم يحسن نقلها فقال له الشيخ فهلا تثبت وكان بعض علماء مراكش حاضرا فبالغ في عتاب القاضي وقيل للشيخ ما سبب الوحشة بينك وبين هؤلاء فقال لا شيء الا الاستغناء عنهم فقالوا يا سيدي هذا وصف يوجب الحب فانفصل الشيخ عن السلطان حتى اطلع على ما يوجب القبض على القاضي فقبض عليه ونهب داره في الحين فنزل الشيخ من فاس الجديد فالتقى اثاث القاضي في الطريق جيء به منهوبا وبقي في السجن الى أن مات مسموما رحمه الله وكان الاديب الكاتب أبو عبد الله المكلاتي قد كتب اليه بأبيات يقول فيها ما نصه

أما الهلال غاب عنا سفور ٭ فيجلى به خطب دجاه تنور
فصبرا لدهر رام يغضك الاسى ٭ فانت عظيم والعظيم صبور
سيظهر ما عهدته من جمالكم ٭ فللبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيي رسوم المعالي تغيرت ٭ فللميت من بعد الممات نشور
أباحسن اني على الحب لم أزل ٭ مقيما عليه ما أقام ثبير
ففي الفم ماء من بقايا ودادكم ٭ وذلك عندي سائغ وغدير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا ٭ وغنت بأغصان الرياض طيور

قال منشئها وقد أنشدتها بين يديه بمحبسه فبكى حتى ظننت انه سيهلك ثم أفاق وقال لله الامر من قبل ومن بعد ثم راجعني رضي الله عنه بأبيات يقول فيها

تفتق عن زهر الربيع سطور ٭ فما هي الا روضة وغدير
هزمت من الصدر الجريح همومه ٭ فانت على جند الكلام أمير
محمد هل في العصر غيرك شاعر ٭ له معكم في الخافقين ظهور
فاني على صفو الوداد وانني ٭ سأشدو وقلبي بالهموم كسير
متى وعسى يثني الزمان عنانه ٭ بنهضة جد والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب ٭ وتحدث من بعد الامور أمور
عليك سلام الله مني فانني ٭ غريب بأقصى المغربين أسير

وكانت وفاة القاضي المذكور رحمه الله في جامع المشور في مهل ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف

﴿عود عبد الله بن الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله﴾

لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها الى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فنهض اليها مزعجا واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا ولما اتصل خبر نهوضه بعبد الله بن الشيخ وهو بدار ابن مشعل زحف الى فاس فيمن انضم اليه فبرز اليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس من ناحية باب الفتوح ﴿قال في المرآة﴾ وعرض لابي الحسن علي بن يوسف الاندلسي المعروف بالبيطار غرض من الامور والعامة كان يتردد فيه الى المحلة فركب اليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فانجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا وفقد أبو الحسن بن البيطار ﴿وقال في النزهة﴾ لما رحل زيدان الى

مراكش بسبب مابلغه من قيام بعض الثوار عليه هنالك قدم عبد الله بن الشيخ وعمه أبو فارس الى فاس نفرج مصطفى باشا لقاتلتهما فعثر به فرسه وقتل وأخذت محلته باسرها وهلك من لا يحصى من الناس ووقع النهب حتى انتهب من البقر التى تحلب نحو ستة آلاف ودخل عبد الله بن الشيخ فاسامع عمه أبى فارس وذلك سابع عشر ربيع الثانى سنة ثمان عشرة وألف

﴿تلخيص خبر أبى فارس ومقتله رحمه الله تعالى﴾

تقدم لنا أن أبا فارس بن المنصور بويع بمراكش وبعث أخاه الشيخ لقتال السلطان زيدان فنكث الشيخ عهده واستبد عليه ثم بعث اليه ابنه عبد الله فهزمه الى مسفيوة ثم فرمنها الى السوس فاقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى ثم لما بلغ زيدان فى طلبه فرالى أخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ الى أن قتل مصطفى باشا ودخل عبد الله فاسا فاستولى عليها كما ذكرناه آنفا فاتفق رأى قواد شراكة على قتل عبد الله وتولية عمه أبى فارس فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبى فارس ليلا مع حاجبه جوابن عمر فوجده على سجادته وجواريه حوله فاخرجهن وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه الا أن مات وذلك فى جمادى الاولى سنة ثمان عشرة وألف هذا هو الصواب لا مافى نشر المثانى على اضطرابه فأسف الناس عليه لانه كان يردّه عن المناكر ويزجره عن كثير من القبائح وذكر فى المنتقى أبياتا من انشاء الكاتب أبى محمد عبد القادر بن أحمد بن القاسم الفشتالى مما كتب تطريزا على نجاد الواثق بالله أبى فارس المذكور وهى

أتيه وأزرى بكل نجاد * بروق على حلة اللابس
اذا كنت يوم الوغا محملا * لعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى * سليل الوصى أبى فارس

﴿عود السلطان زيدان الى فاس واستيلاؤه عليها ثم اعراضه عنها سائر أيامه﴾

لما سمع السلطان زيدان وهو بمراكش بمقتل مصطفى باشا نهض الى فاس وجاء على طريق الجبل وكان نصارى الاصبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك باذن الشيخ كما سيأتى وكان عبد الله بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيؤا لذلك وعزموا على النهوض اليها فاراعهم الا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية ادخسان وقد أنزل بها محلته وتقدم الى جهة فاس وضرب بانفاضه فانهزم الناس عن عبد الله ودخل شراكة فاسا فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد وأمر المنادى أن ينادى بنصره فنزل المنادى الى أن بلغ باب السلسلة فقام فى وجهه بعض السباب من أهل العدوة وضربه بجرحه ورجع المنادى وبطل الامر فبلغ الخبر السلطان زيدان فامر باطلاق السبيل فى أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ثم ندم فامنهم وسكن روعتهم ونزل زيدان بوادى فاس فخرج الناس للقائه وهو غضبان عليهم وقد استولى على فاس وتمكن منها فاخذ بسبب أعيانهم وهم بقتلهم ولكن الله سلم ثم ان العرب اجتمعوا عند قنطرة المهدومة فى نحو ثمانية آلاف فخرج اليهم زيدان ومعه عرب الشرق فانهزموا عنه ولم يبق معه الا رهط يسير فرأى زيدان أمامه خيلا قليلة فقصدها فاذا فيها عبد الله بن الشيخ وقد رأى زيدان مقبلا اليه ففر مع ان زيدان انما قصد الفرار اليه من غير علم له به فاستتب أمر زيدان وتراجع اليه أصحابه ومن الغد رجع الى فاس فخرج اليه أهل فاس يهنؤنه كبارا وصغارا فاتهمهم بانهم يستهزؤن به فامر بهم فسلبوا رجالا ونساء فكان بعضهم ينظر الى عورة بعض وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة ودخل أصحاب زيدان

فاساقنهبوها وفعلوا فيها الافاعيل ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والامان وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف فلما كان اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء فخرج اليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة وفر الى محلته التي ترك بادخسان وكان ذلك آخر رجوع زيدان الى فاس فانه لما أعياه أمر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته الى ضبط ما خلف وادي أم ربيع الى مراكش وأعمالها وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده وبقي عبد الله بن الشيخ يقاطع الايام بفاس الى أن هلك وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيأتي على ما نذكر

﴿وفي﴾ كتاب ابتهاج القلوب في أخبار الشيخ المجذوب ما صورته تكلم الشيخ سيدي كذار بوما في ملوك وقته فقال أما الشيخ معطى العرائش فان أهل الله قد دقوا أوتاده هنالك حتى يموت فلم يتجاوز محله الى أن قتل به حوز تطاوين كما سيأتي وأما زيدان فانه لما أطلق السبيل في أهل فاس ضربه مولاي ادريس بركلة صيرته وراء أم ربيع فلم يتجاوزه بعد ذلك اهـ

﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على العرائش والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من انه فر الى العرائش ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان فابى الطاغية أن يمده فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنا ويعينه بالمال والرجال حتى اذا ملك أمره بذل له ما شارطه عليه ولم يزل به الى ان شرط عليه الطاغية أن يخلي له العرائش من المسلمين ويملكه اياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتى نزل بحجر باديس في ذي الحجة سنة ثمان عشرة وألف ثم تقدم فنزل ببلاد الريف ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكته وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم والشريف أبي اسحق ابراهيم الصقلي الحسيني وغيرهما للاقاته وتهنئته بالقدوم فلما وصلوا اليه فرح بهم وأمر قبطان النصارى أن يخرج مدافعه وأنفاضه ارهابا واظهارا لقوة النصارى الذين استنصر بهم ففعل حتى اصطكت الآذان وارتجت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلما رأوه مقبلا أمرهم الشيخ بالقيام له فقاموا اليه أجمعون وجازوه خيرا على ما فعل مع الشيخ من الاحسان والنصرة وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى وأنكر الناس على أولئك الاعيان قيامهم للكافر وضربوا بعصا الذل حتى انهم في رجوعهم الى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعا ما عدا القاضي ابن أبي النعيم فانه عرف بزي القضاء فاحترموه ثم ان الشيخ انتقل الى القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فاقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه ان يقفوا معه في تمكين النصارى من العرائش ليفي له الطاغية بما وعده من النصرة فامتنع الناس من اسعافه في ذلك ولم يوافقه على غرضه الا القائد الكرني فانه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ اليها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحدا من المسلمين فذهب الكرني المذكور وكان أهلها قد علموا ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبكون تخفق على رؤسهم ألوية الصغار ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرني الى أن دخلها النصارى واستولوا عليها في رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض لاخذ العرائش أمر عظيم وأنكروا ذلك أشد الانكار وقام الشريف أبو العباس أحمد بن ادريس العمراني ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف اليه أقوام وعزموا على التوجه لذلك ففت في عضدهم قائدهم حمو المعروف بابي دبيرة وصرف وجوههم عما قصدوه في حكاية طويلة وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وانكار الخاصة والعامة عليه اعطاءه بلدا من بلاد الاسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالا الى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه

أنه لما وغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها أكرها باولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش وانهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنا على ذلك فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا فاجابوه بان فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من يد العدو الكافر باعطاء بلد من بلاد الاسلام له جائز وانا موافقون على ذلك ووقع هذا الاستفتاء بعد أن وقع ما وقع وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك الا خوفا على نفسه وقد فر جماعة من تلك الفتوى كالامام أبي عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر على المختصر وكالامام أبي العباس أحمد المقري مؤلف نفح الطيب فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما وبسبب هذه الفتوى أيضا فر جماعة من علماء فاس الى البادية كالشيخ أبي علي الحسن الزياتي شارح جمل ابن المجراد والحافظ أبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي وغيرهما

﴿بقية أخبار الشيخ ومقتله رحمه الله وتجاوز عنه﴾

ثم ان الشيخ بن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه لمة من أهل الدعارة والفساد على شاكلته فنهض بهم الى تطاوين فاستولى عليها وأخرج منها كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقسيس ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها الى ان ملته القلوب وتمالأ أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته وتمليكه ثغر الاسلام للكفار فقتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقي صريعا مكشوف العورة أياما حتى خرج جماعة من أهل تطاوين فحملوه مع من قتل معه من أصحابه كالدبيريين وبعض أولاده ودفنوهم خارج تطاوين الى ان حمل الشيخ الى فاس الجديد مع أمه الخيزران فدفنا به وكان مقتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف ﴿وقال منويل﴾ انه وصل الى قرب تطاوين وبني هنالك افراكا وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج الى عين ماء هنالك فاستلقى قربها في نبات أخضر أعجبته خضرته فجاءه اناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشدخوا رأسه بصخرة فقتلوه ويقال ان قتله كان باشارة الثائر أبي محلي الآتي ذكره وانه كتب الى المقدمين النقسيس وأبي الليف يحضهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان شيأ كثيرا ومن جملة ما نهب منه نحو المد من الياقوت وبقي من اثاثه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة فاستولى عليه نصاراها من البرتقال لما قتل وكان للشيخ عفا الله عنه مشاركة في العلم ويد في مبادي الطب أخذ عن أشياخ الحضرتين وله شعر متقارب ومن كتابه الاديب المتفنن أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي وأبو العباس أحمد بن محمد الغرديس التغلبي وكان من أهل الاجادة والتبريز في صناعة الانشاء ﴿قال الشيخ﴾ أبو زيد الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله وكان لي جار نساخ ما نصه وقد كان الشيخ الكاتب الرئيس أبو العباس أحمد الغرديس شيخ كتاب الانشاء بحضرة فاس رحمه الله استعار مني كتاب الانباء في شرح الاسماء للاقليشي ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند رأسه ومعه كراريس منسوخة وأخرى معدة للنسخ فقال لي اني اذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فاذا غلبني ما بي أمسكت فقلت له ولم تتكلف هذا فقال اني عصيت الله بهذه الاصابع مالا أحصيه فرجوت أن يكون ما أعانيه على هذه الحال من نسخ هذا الكتاب خاتمة عملي وكفارة لذلك فكمل الله قصده وأتم الكتاب وتوفي من مرضه ذلك وقد طال به سنة عشرين وألف اهـ ولهذا الكاتب يقول الشاعر

تمتعت يا غرديس والدهر راقد * وأنت بفاس وابن حيون واجد
بسعدك راحت خيزران لقبرها * مصائب قوم عند قوم فوائد

(رياسة

﴿رياسة ولي الله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك﴾

هذا الرجل هو ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي ونسبته الى بني مالك بن زغبة الهلاليين وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب كان رحمه الله مستوطنا مدينة سلا وكان من تلامذة الولي العارف بالله تعالى أبي محمد عبد الله بن حسون السلاسي دفين سلا وكان ابتداء أمر أبي عبد الله انه كان ملازما لشيخه المذكور من أقرب التلامذة اليه وأسرعهم الى خدمته وأولهم دخولا عليه وآخرهم خروجا عنه وكان مع ذلك كثير الورع قليل الكلام مدمنا للصيام وقراءة القرآن فكان الشيخ ابن حسون ملتفتا اليه ولم يزل الامر على ذلك الى ان شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه فأهدى له يوما بعض أشياخ القبائل فرسا فامر الشيخ باسراجه وقال أين محمد العياشي فقال ها أنا ذا يا سيدي فقال الشيخ اركب بحول الله فرسك ودنياك وآخرتك فتقهقر تأدبا فحلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده وقال له ارتحل عني الى آزمور وانزل على أولاد أبي عزيز ولا بد لك من الرجوع الى هذه البلاد وسيكون لك شأن عظيم فودعه أبو عبد الله ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير فقصد ناحية آزمور ونزل حيث عين له شيخه المذكور وذلك لاول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة وألف فلم يزل أبو عبد الله العياشي مثابرا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفا بوجوه المكائد الحربية بطلا شهما مقداما في مواطن الاحجام وقورا صموتا عن الكلام فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من التضييق على نصارى الجديدة وكانوا يومئذ قد أمر أمرهم ففرح بذلك قائد آزمور ولم يزل الامر على ذلك الى ان توفي قائد الفحص والبلاد الآزمورية فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له سيدي محمد العياشي فكتب اليه بالتولية فقبل ونهض باعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده وكانت له مع نصارى الجديدة وقائع وضيق عليهم حتى منعهم من الحرث والرعي فبعث النصارى الى حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم أبا عبد الله المذكور لما ضايقهم فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه على عزله وأظهروا له انه مسموع الكلمة في تلك النواحي وانه يخشى على الدولة منه وكان أبو عبد الله العياشي كلما بعث بالغنائم وما يفتح الله به عليه من الاسارى الى مراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه فوغر بذلك قلب زيدان وحنق عليه فبعث اليه قائده محمد السنوسي في أربعمائة فارس وأمره بالقبض عليه وقتله وألقى الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث اليه خفية ان أنج بنفسك فانك مغدور فخرج أبو عبد الله العياشي في أربعين رجلا فرسانا ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين وألف ولما انتهى السنوسي الى آزمور ولم يجد له أثرا أظهر العناية بالبحث عنه وعاقب شرذمة من أهل الفحص على افلاته تعمية على السلطان واقامة لعذره عنده فقبل السلطان زيدان ذلك والله غالب على أمره

﴿ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلي﴾

﴿قال في كتابه اصليت الخريت﴾ ما ملخصه كانت ولادتي سنة سبع وستين وتسعمائة بسجلماسة والذي تلقيته من أبي وكافة عمومتي ان أولاد أبي محلي من ذرية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأما جدنا الاشهر المكنى بأبي محلي بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها ياء تحتية ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي الآن بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله بعد البحث عنه قال وبخطة القضاء اشتهر نسبنا فنعرف باولاد القاضي وزاويتنا بزاوية القاضي ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصا دار أبي اه ﴿وقال صاحب البستان﴾ أبو محلي هذا اسمه أحمد بن عبد الله وينتسب الى بني العباس ويعرفون في سجلماسة باولاد

ابن اليسع أهل زاوية القاضي انتهى ﴿قلت﴾ أما الانتساب الى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقد أنكر ابن خلدون وجود النسبة العباسية في المغرب قال في فصل اختلاط الانساب وما بعده ما نصه ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسي الى أحد من شيعة العلويين اهـ ثم قال أبو محلي في الكتاب المذكور فلما انشأت في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمي وقد كانت أمي رأت وهي حامل بي وليا من أولياء الله تعالى أحد شيوخ التربية ببلادنا وهو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله السجلماسي قد سقاها قدحا من لبن وأوجو الله صدق تأويلها بالعلم والدين وحق اليقين قال وكان خروجي لطلب العلم بفاس في حدود الثمانين وتسعمائة وأنا يومئذ مراهق أو بالغ الحلم لا همة لي الا في العلم فأقمت بفاس نحو خمس سنين الى ان جاء النصارى الى وادي المخازن فدهش الناس واستشرت أخا من الطلبة فدلني على الخروج الى البادية حتى ينجلي ثم ار الامن فخرجت الى كريكرة فحفظت فيها الرسالة وقد كنت ما حصلت بفاس الا النحو ثم رجعت الى فاس بعد ان زال الدهش بهزيمة النصارى وولاية المنصور والنحو صنعتي وفي الفقه رغبتي وقد كنت في الخرجة الاولى الى البادية زرت قبر الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه فطلبت الله عنده أن أكون من الراسخين في العلوم بأسرها وتوبة يتقبلها فادا وعلى تمام الحول الا وأنا بزاوية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن مبارك الزعري لا عن قصد لكوني اذ ذاك مولعا بالعلم أما طريق الفقر فلا تخطر لي ببال لان المعتمد يومئذ في فقراء الوقت اخلاق الضلال فكنت أشد الناس حذرا منهم الى ان انكشف الستر فرأيت ما رأيت ووعيت فصاحبت شيخي الذي لولاه مع فضل الله لهلكت ولولا هدايته باذن الله لضللت أعني أبا عبد الله مولاي محمد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وهو رضي الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زعير بصيغة التصغير والنسب اليها زعري على التكبير وهي قبيلة من عرب السوس بالمغرب الاقصى قال فبقيت في صحبة شيخي المذكور نحوا من ثمان عشرة سنة وما فارقته الا عن أمره اذ هو الذي وجهني الى بلادي سجلماسة من غير اختيار قائلا لي صلاحهم فيك ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب مني لشئ من ذلك وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع فلما استوطنت بلادي عن اذنه زرته منه احدى عشرة مرة وفي الاخيرة منها وذلك بعد مقفلي من الحجة الاولى التي كانت سنة اثنتين بعد الالف دعا لي بقوله بلاك الله أكثر مما بلاني فتأولتها باقبال الخلق كما ترى وقد صاح عندها صيحة عظيمة لم أر مثلها منه منذ صحبته اذ عادته كانت الطمأنينة ولما توفي رحمه الله بقيت نحوا من ثلاث سنين عاطلا ثم تحلى النحر بدر لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما أسدى وله الشكر فيما أولى ثم ذكر بقية أشياخه كالشيخ أبي العباس المنجور والشيخ أبي العباس السوداني والشيخ سالم السنهوري وغيرهم ممن يطول ذكرهم قال ثم كملت الفائدة بعد المقفل من الحج فرجعت الى الديار المغربية ونزلت بوادي الساورة ثم تحولت بجميع عيالي الى الوادي المذكور هذا ملخص أوليته منقولا من كتابه المذكور ﴿وقال الشيخ أبو العباس أحمد التواتي رحمه الله تعالى في رسالته التي سماها مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي وهي رسالة طويلة مسجعة قال كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيها صرفا ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الاحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجا وقصدوه فرادى وأزواجا وبعد صيته وكثرت أتباعه قال فلما سمعت بذلك ذهبت اليه وجلست عنده مدة الى ان وجدته يشير الى نفسه بانه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الاحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء اهـ ﴿وقال الشيخ اليوسي في محاضراته﴾ وقد تكلم على الدعوى الفاطمية ما نصه ومن ابتلي بها قريبا أحمد بن عبد الله بن أبي محلي التستاوتي خاض في الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق وألف فيها كتابا يدل على ذلك ثم نزغت به هذه النزغة فحدثونا انه كان في أول أمره معاشر المحمد

ابن أبي بكر الدلائي وكان البلد اذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت فقال ابن أبي محلى لابن أبي بكر ذات ليلة هل لك في ان نخرج غدا الى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر فلما أصبحا خرجا فأما ابن أبي بكر فانطلق الى ناحية النهر فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلاق وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها وأما ابن أبي محلى فتقدم لما هم به من الحسبة فوقع في شر وخصام اداه الى فوات الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء ومن أتى منكرا فالله حسيبه أو نحو هذا من الكلام وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه ثم لم ينته الى ان ذهب الى بلاد القبلة ودعا النفسه وادعى أنه المهدي المنتظر وانه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام واتبعوه اهـ وصار ابن أبي محلى يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة ويشيع انه الفاطمي المنتظر وأن من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فوبق وربما كان يقول لأصحابه محرضا لهم على نصرته أنتم أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لانكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل وهم قاموا به في زمن الحق ونحو هذا من زخارف كلامه والى ذلك أشار الفقيه أبو زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي في بعض قصائده معترضا بابي محلى المذكور فقال

يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم * فيمن مضى اسوة من سائر العلما
نسيتم دين خير الخلق وافترقت * آراؤكم فغدا الاسلام منقسما
أتحسبون بان الله تارككم * سدى وخلقكم قد تعلمون لما
ناشدتكم بالذي في العرض يجمعنا * أما فطنتم ومالاكم من فهما
بان مغربكم قد عمه سخط * من المهيمن بالله معتصما
ان قيل للناس ان الهرج يوبقكم * قالوا الفقيه فلان قبلنا اعتزما
لولم يكن جازما أفتى الامام به * ولا أتاه ألا تبنوا الذي انهدما
ومن يقل قال خير الخلق قيل له * ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما
ونحن أفضل من صحب الرسول لنا * أجر يضاعف في اجفار ناظما
وزخرفوا ترهات القول فانفعلت * لهم نفوس عوام رشدها عدما

﴿نهوض ابن أبي محلى الى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليهما ثم على مراكش بعدهما﴾

كان أبو العباس بن أبي محلى عفا الله عنه لما كثرت جموعه وانثال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس ويقول ان أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فني الناس فيما بينهم وانتهبت الاموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم ولما بلغه ما فعل الشيخ من اجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضبا وأظهر انه غضب لله لا لشيء سواه فخرج يؤم سجلماسة وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير فخرج عامل زيدان لمصادمته وهو في نحو أربعة آلاف وابن أبي محلى في نحو أربعمائة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان وأشاع الناس ان الرصاص يقع على أصحاب أبي محلى باردا لا يضرهم ونفخ الشيطان في هذه القرية فسكنت هيبته في القلوب وتمكن ناموسه منها ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنؤنه وفيهم الفقيه العلامة أبو عثمان سعيد الجزائري المعروف بقدورة شارح السلم وهو من تلامذة ابن أبي محلى كما ذكره في الاصليت ولما بلغ خبر الهزيمة الى زيدان وانتهى اليه فلها جهز اليه من مراكش جيشا وأمر عليه أخاه عبد الله بن المنصور المعروف

بالزبدة فسمع به أبو محلي فسار اليه فكان اللقاء بينهما بدرعة فوقعت الهزيمة على عبد الله بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف فقوى أمر ابن أبي محلي واشتدت شوكته وجمع بين سجلماسة ودرعة وكان القائد يونس الايسي قد هرب من زيدان لامر نقمه عليه وقصد الى أبي محلي فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهون عليه أمره ومازال به الى ان أتى به الى مراكش فبعث زيدان اليه جيشا كثيفا فهزمه أبو محلي وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها وفرّ زيدان الى ثغر آسفي وهم بركوب البحر الى البرالعدوة هكذا في النزهة ﴿وذكر لو يز البرتقالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة﴾ ان نصارى الجديدة بعثوا الى السلطان زيدان بعباثتين من مقاتلتهم اعانة له على عدوه من غير ان يطلب منهم ذلك فلما وصلوا اليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين لكنه أحسن اليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردّهم مكرمين هذا كلامه والحق ماشهدت به الاعداء وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ماشاء وولد له هنالك مولود سماه زيدان ويقال انه تزوج أم زيدان وبني بها ودبت في رأسه نشوة الملك ونسي مابني عليه أمره من الحسبة والنسك وفي المحاضرات للشيخ اليوسي رحمه الله ماصورته وزعموا ان اخوانه من الفقراء ذهبوا اليه حين استولى على مراكش برسم زيارته وتهنئته فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنئونه ويفرحون له بماحاز من الملك وفيهم رجل ساكت لا يتكلم فقال له مه شأنك لا تتكلم وألحّ عليه في الكلام فقال الرجل أنت اليوم سلطان فان أمنتني على ان أقول الحق قلته قال له أنت آمن فقل فقال ان الكرة التي يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلفها وينكسر الناس ويجرحون وقد يموتون ويكثر الصياح والهول فاذا فتشت لم يوجد فيها الاشراوط أي خرق بالية ملفوفة فلما سمع ابن أبي محلي هذا المثل وفهمه بكى وقال رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه انتهى

﴿استصراخ السلطان زيدان بابي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي رحمه الله﴾

لما التف الرعاع من العامة على أبي محلي وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب الى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم الداوودي مستغيثا به ثم وفد عليه بنفسه وكان يحيى بزاوية أبيه من جبل درن وله شهرة عظيمة بالصقع السوسي وله أتباع فأتاه السلطان زيدان وقال له ان بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناواني فلبى أبو زكرياء دعوته وحشر الجيوش من كل جهة وخرج يؤم مراكش في ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف ولما انتهى الى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب اليه أبو محلي بمانصه بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبد الله الى يحيى بن عبد الله أما بعد فقد بلغني انك جندت وبندت وفي فم تانوت نزلت أهبط الى الوطاء ينكشف بيننا الغطاء فالذئب ختال والاسد صوال والايام لا تستقيم الا بطعن القنا وضرب الحسام والسلام فاجابه يحيى بمانصه من يحيى بن عبد الله الى أحمد بن عبد الله أما بعد فليست الايام لي ولا لك انما هي للملك العلام وقد أتيتك باهل البنادق الاحرار من الشبانة ومن انتمى اليهم من بني جرار ومن أهل الشرور والبوس من هشتوكة الى بني كنسوس فالموعد بيني وبينك جيليز هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزيز ثم زحف يحيى الى مراكش في جموعه فنزل بقرب جيليز جبل مطل على مراكش وبرز اليه أبو محلي والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي فهلك مكانه وابذعرت جموعه ونهبت محلته واحتز رأسه وعلق على سور مراكش فبقي معلقا هنالك مع رؤس جماعة من أصحابه نحوا من اثنتي عشرة سنة وحملت جثته فدفنت بروضة الشيخ أبي العباس السبتي تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع وزعم أصحابه انه لم يمت ولكنه تغيب ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني من أثق به من أهل وادي الساورة ان فيهم الى الآن من هو على هذا الاعتقاد ﴿وذكر الشيخ اليوسي في

المحاضرات﴾ أن أبا محلي كان ذات يوم عند أستاذه ابن مبارك فورد عليه وارد حال فتحرك وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فقال له الاستاذ يا أحمد هب انك تكون سلطانا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ووقع في يوم آخر للفقراء سماع فتحرك أبو محلي وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فتحرك فقير آخر وجعل يقول ثلاث سنين غير ربع ثلاث سنين غير ربع قال وهذه هي مدة ملكه اه ﴿ويذكر﴾ أنه لما طاف بالبيت في وجهته الحجازية سمع وهو يقول يارب انك قلت وقولك الحق وتلك الايام نداولها بين الناس فاجعل لي يارب دولة بينهم قالوا ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الامر الى ما أبرمته يد القدرة وكان أبو محلي رحمه الله فقيها محصلا له قلم بليغ ونفس عال وله تآليف منها الوضاح والقسطاس والاصليت والهودج ومنجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور وجواب الخروبي عن رسالته الشهيرة لابي عمرو القسطلي وغير ذلك وقد وقعت بينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجيات نظما ونثرا كقوله

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعي * بزورشعار الفحول الاوائل

كدعواك في بيت النبوة نسبة * وأنت دنيء من أخس القبائل

ووجهك وجه القرد قبح صورة * ورأسك رأس الديك بين المزابل

ويزعمون أن يحيى كان معاشرا لابي محلي أيام الطلب بالمدرسة بفاس ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني صاحبنا القاضي أبو زيد السكتاني أنه وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر في غرض الهجاء وغيره وقد رمز تاريخ ثورة أبي محلي ووفاته الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد المريدي المراكشي فقال قام (طيشا) ومات (كبشا) ولا يخفى ما فيه بعد افادة التاريخ من حسن التلميح وبديع التورية ولما قتل ابن أبي محلي دخل يحيى مراكش واستقر بدار الخلافة منها والتي بها عصا تسياره ورام أن يتخذها دار قراره فكتب اليه السلطان زيدان يقول أما بعد فان كنت انما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني فقد أبلغت المراد وشفيت الفؤاد وان كنت انما رمت أن تجر النار لقرصك وتجعل الملك من قنصك فأقر الله عينك به والسلام فتجهز يحيى للعود الى وطنه وأظهر العفة عن الملك وانه انما جاء ليدافع عن السلطان الذي بيعته في عنقه وانقلب الى بلاده ورجع زيدان الى مراكش فاستقر بدار ملكه وقد قيل ان يحيى رام الملك وان أجناده من البربر لم يساعدوه في قصة طويلة والله أعلم

﴿بقية أخبار أبي زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي وما دار بينه وبين السلطان زيدان رحمهما الله﴾

هو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداوودي المناني وكان جده سعيد واحد وقته علما ودينا وهو الذي أحيا الله به السنة بالسوس وانتعش به الاسلام فيه وتوفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فخلفه ولده أبو محمد عبد الله وجرى على نهجه وسبيله بل كان بعض الناس يفضله على أبيه وتوفي سنة اثنتي عشرة وألف ودفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته ولما مات جلس ولده أبو زكريا يحيى موضعه وانتهج سبيله وكان فقيها مشاركا رحل الى فاس وأخذ عن شيوخها كالمنجور وغيره وعن الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد الحسني على ما وجد بخط السوساني الشهير باد فال دفين درعة وهو معتمده أخذ عنه كثيرا من الفنون وأجازه في علوم الحديث اجازة عامة وكان يحيى شاعرا محسنا وكانت له شهرة عظيمة بالصلاح وله أتباع كوالده وجده وتوجهت الى زيارته الهمم وركبت اليه النجائب الا أنه وقع له قريب مما وقع لابي محلي فتصدى للملك وخاض في أمور السلطنة فتكدر مشربه وقد قال بعض العلماء أن الرياسة اذا دخلت قلب رجل لا تقصر عن اذهاب رأسه ولذلك قال صاحب الفوائد في حقه انه قام لجمع الكلمة والنظر في مصالح الامة فاستمر به علاج ذلك الى أن توفي ولم يتم له أمر وكان يراسل السلطان زيدان ويكثر

عليه ويجير عليه من استجار به ويروم الى مناصحته ابتغاء ويسر من ذلك حسوا فى ارتغاء وكان زيدان يتحمل منه أمرا عظيما فما كتب به يحيى اليه مانصه من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه آمين اللهم انا نحمدك على كل حال ونشكرك يا ولى المؤمنين على دفع اللواء والحال ونصلى ونسلم على صفيك أفضل من شدت اليه الرحال ونستوهبك يا مولانا جميل لطفك وجزيل فضلك فى المقام والترحال عائذين بوجهك الكريم من مؤاخذتنا بسوء أعمالنا يا شديد المحال هذا وسلام الله الاتم ورضوانه الاعم ورحمته وبركاته على المولى الامام العلم المقدام العلوى الهمام كيف أنتم وكيف أحوالكم مع هذا الزمان الذى شمر عن ساقه لسلب الاديان وألح فى اقتضاء هواه على كل مديان فانا لله ولا حول ولا قوة الا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبعد فالباعث به اليكم فى هذه البطاقة أمور ثلاثة مدارها على قوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولخاصة المسلمين وعامتهم فالاول بيان سبب الركون الى جانبكم والثانى الحامل على دفع مناويكم والثالث ملازمة نصحكم وتذكيركم والضجر مما يصدر منكم ومن أعوانكم للرعية أما الاول فله أسباب كثيرة منها مراعاة الجناب النبوى الكريم فى أهل بيته ورضى الله عن أبى بكر الصديق القائل ارقبوا محمدا فى أهل بيته والقائل لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى ان أصل من قرابتى

يا أهل بيت رسول الله حبكم * فرض من الله فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم المجد أنكم * من لم يصل عليكم لا صلاة له

ومنها نصح خاصة المسلمين الذى هو الدعاء بالهداية لهم وورد القلوب النافرة اليهم ونصحهم بقدر الامكان مشافهة ومراسلة ومكاتبة وقد بذلنا الجهد فى الجميع أخلص الله القصد فى الجميع وأما الثانى فلما جرى القدر بتغلب ذلك الانسان المتسلط على النفس والحريم والاموال وأدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس فى المذهب وتعدى خصوص الولاة الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ومد مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالايمان البتافى الانفس والاموال فناشدناه كما تقرر فى فتاوى الائمة رضى الله عنهم حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان فكان الامر كما قدر الله تعالى ولله الامر من قبل ومن بعد وأما الثالث فالكتاب والسنة والاجماع أما الكتاب فسورة والعصر قائمة البرهان فى كل أوان وعصر وقال تعالى فى قضية كليمه رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين وقد استشهد به بعض العلماء فى برى قلم لكاتب بعض الامراء المتقدمين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقوله جل من قائل وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وأما السنة فالحديث الاول وقوله صلى الله عليه وسلم المعين شريك وقوله من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يقدر فبلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك أضعف الايمان وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغيير العملى اليكم حتى جذبتمونا اليه ودللتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه وقوله من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وقد قال المواق فى شرحه على المختصر من أعان على عزل انسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم فهو شريك فى دمه ان سفك ثم أتى بالحديث المتقدم استعظاما لذلك الامر الفظيع فانا لله وانا اليه راجعون على انا انخدعنا بالله حتى كنا نأمن بالقطع سفك الدماء اذ ذاك حيث كتبت اليناء مرارا وأمنت وأرسلت وكنت أتخوف من هذا الواقع اليوم بآزمور وآسفى ومراكش والغرب ولذلك كنت ألحت عليكم فى تقرير العهد حتى أتانى القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انه لسلطان تلمسان فى جرم صغير وقال لى أمرنى السلطان أن أحلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه من تأمين كل من أمنته وامضاء كل ما رأيته صلاحا للامة ثم لم أكتف حتى أتى القاضى فكتبت الى معه ان كل ما رأيت فيه الصلاح للامة أمضيته وانك أمنت كل من أمنته ثم بعد استقرارك فى دارك

كتبت الى كذا بالنبأ الباقي على ما تعاهدنا معك عليه من الامور كلها على معيار الشريعة فسارا عني الا وقد
أخفرت في ذمة الله وأماني الذي عقدته للناس فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلد وأخبار
أخر ترد الينا من جهة السواحل وان الناس تباع فيها العدو دمره الله ولم نر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه
أمور الثغور فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع أو لم يبلغك فاعلمناك لتطمئن قلوبنا فاني
أكاتبك في ذلك فلا أرى جوابا انقضيت والله من الامر عجبا فان عددت ما من الله به عليك من رجوعك الى
سرير ملكك واجتماعك بسرير ملك آمنا من قبيل النعم فقيده بما تقيد به كافي كريم عملك وان رأيته بنظر
آخر فان لله ما في السموات وما في الارض وأما الاجماع فلم نر من العلماء من نهى عن نصح خاصة المسلمين
وتنبيههم على ما يصلح بهم وبالرعية بل عدوه من الدين للحديث الاول وغيره وأما ما استشعرناه من
امتعاضكم من عدم الانة القول في مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعيا لذلك ولو بنصف ما خاطب به
الائمة الاول أهل زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك ولم تروه ويكفيكم نصح
الفضيل وسفيان وأمامنا مالك رضى الله عنهم لمعاصريهم من الولاة ومنهم من بكى وانتفع ومنهم من
غشي عليه وتوجع ومنهم من ندم واسترجع الى غير ما ذكرنا على اختلاف الاعصار وتنوع الدول
والاقطار فبذلك اقتدينا وبما كان عليه أشياخنا وأسلافنا لكم ولاسلافكم عملنا كالفقيه شيخ والدنا
رحمه الله سيدي عبد الله الهبطي لجدكم المرحوم بكرم الله فطمعت بنجح النصح ونفعه دنيا وأخرى فهذا
أصل قضيتنا معكم وهلم جرا والذكرى تنفع المؤمنين على كل الاحوال والحمد لله على كل حال والصلاة
والسلام على سيدنا محمد وآله خير آل وبتاريخ أواخر ربيع النبوي الانور كتبه عن اذنه رضى الله عنه
عبد ربه محمد بن الحسن بن أبي القاسم لطف الله به بمنه اه فاجابه السلطان زيدان رحمه الله بما نصه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما﴾

من عبد ربه تعالى المقترف المعترف زيدان بن أحمد بن محمد بن محمد الى السيد أبي زكريا يحيى بن
السيد أبي محمد عبد الله بن سعيد أعاننا الله واياكم على اتباع الحق ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات
أعمالنا وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر
فصوله ثم اننا ان جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربما غيركم ذلك وأدى الى المباغضة والمشاحنة
فيحكى عن عثمان رضى الله عنه أنه بعث الى علي رضى الله عنه وأحضره عنده وألقى اليه ما كان يجده من
أولاد الصحابة الذين اعصوصبوا باهل الردة للذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصديق رضى الله عنه
وهو في كل ذلك لا يجيبه فقال له عثمان رضى الله عنه ما أسكتك فقال يا أمير المؤمنين ان تكلمت فلا أقول
الا ما تكره وان سكت فليس لك عندي الا ما تحب ولكن لما لم أجد بدا من الجواب أرى ان أقدم لك
مقدمة قبل الجواب فاعلم أن الحجاج لما ولاه عبد الملك العراق وكان من سيرته ما يغني اشتهاره عن تسطيره
هنا فاول ابن الاشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وأمثاله من أولاد
الصحابة رضى الله عنهم ولما قوي عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصري لذلك فقال لا أفعل فانني أرى
الحجاج عقوبة من الله فنفزع الى الدعاء أولى ﴿قال بعض فضلاء العجم﴾ يؤخذ من هذا ان الخروج على
السلطان من الكبائر وجواز المقام تحت ولاية الظلم والجور وقد علمت ما كان من أمر عبد الرحمن
ابن الاشعث وسعيد وأمثاله وعلمت قضية أهل الحرة لما أوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف
ولما بلغه الخبر أنشد ليت أشياخي ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الاسل
وشاع ذلك عنه وذاع وكان على عهد أكابر الصحابة وأولادهم ولا تعرض أحد منهم لنكير عليه ولا تصدى

لقيام ولا خاطبه بملام وأما ما يرجع الى جواب الكتاب فأما ما حكيت عن الصديق رضي الله عنه في أهل
البيت والاحاديث الواردة فيهم وانه يجب تعظيمهم واحترامهم وتبجيلهم لاجل النبي صلى الله عليه وسلم
فان كان يجب عليكم تعظيمهم فان تعظيمهم يجب علي أولى وأولى عملا بقوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا
الا المودة في القربى وأجرى الله تعالى عادته انه ما تصدى أحد لعداوة هذا البيت النبوي الا كبه الله لوجهه
وأما ما أوردتم من الاحاديث النصح فاني والله أحب أن تنصحني سرا وعلانية مع زيادة شكري عليه
وأراها منك مودة وأعدها محبة ولكني أفعل ما أقدر عليه لان الله سبحانه يقول لا يكلف الله نفسا الا
وسعها ولهذا قال أكثر العلماء في صدور تصانيفهم ولم آل جهدا في كذا لان النفوس الشريفة العالية
لا تترك من فعل الخير والجد في اكتسابه الا ما عز تناوله عليها وصعب اكتسابه وأما ما ذكرتم من أمر أبي
محلي وسيرته وما كان تسلط عليه أما ما كان من استنهاضكم اليه المرة بعد المرة وتكررت في ذلك اليكم
الرسل حتى أجبت اليه فلا نحتاج فيه الى اقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم
من أراد أن يشق عصاكم فاقتلوه كائنا من كان والا فلو دخل الملك من بابه وبايعه أهل الحل والعقد وأخذ
ذلك بوسائط مثل بيعة جدنا المرحوم التي تضافرت عليها علماء المغرب وأهل الدين المشاهير فلو كان وصل
الى ذلك بمثل هذه الوسائط لم يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم لان السلطان لا ينعزل بالفسق والجور
والا فان الصحابة في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم وما تصدى أحد للقيام عليه ولا قال بعزله والا
فانهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشير وأما أبو محلي فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك اعانتنا
عليه لانك في بيعتنا وهي لازمة لك فالطاعة واجبة عليك واعلم أيضا أن والدك أفضل منك بدليل آباؤكم
خير من أبنائكم الى يوم القيامة وكان عمنا مولاي عبد الملك رحمه الله وسامحه على ما كان عليه واشتهر به
اعلانا وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا
أنكر ولا اعترض بما يسوء سلطان الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضيا بفعله فهو مثله وان لم يرض فما
وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى الجزولي كادت تكون قطعية
واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولاي عبد الله
برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته
بالبقاء ويظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل وكان قد شرد منه الجزاوية الشيخ المذكور
المرابط الاندلسي وولد أصناك وأمثالهم وكان الشيخ المذكور يقدم الشفاعة فيشفع ولا يتعقب
ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها
حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره
ابن شقراء وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطي والزرهوني وعبد الصادق
ابن ملوك وغيرهم ممن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط
الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ومحمد
الشرقي وأبو عمرو القسطلي ومحمد بن ابراهيم التامنارتي والشيظمي وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين
الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة
ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور
عليهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ
افريقية وبعض أهل المغرب عبد العزيز القسنطيني الشيخ المتكلم الصوفي صاحب الآيات البينات
قد كان من سكان تونس وكان ملوك تونس ومن انضاف اليهم على الفساد الذي لا ينحصر واشتهر أمرهم
حتى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدى لتغيير المنكر والامر

بالمعروف

بالمعروف حتى قبضه الله اليه وأما ماذكرتم من أن من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله هذه حجة عليك لا علينا لانى ما سعيت فى قتل أحد يعلم الله ولا قتل من قتل الا بامر القضاة وأهل العلم ان كان واعلم انه اذا كان هذا يكون وعيدا فى قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتى لا يقف القتل على المئين والآلاف ونهب الاموال وكشف الحريم الى غير ذلك أما تعلم ان فتنة أبى محلى قد هلك بسببها من النفوس والاموال ما لا يحصى عدده ولا يستوفى نهايته كاتب وكان كل ذلك على رقبته لانه هو المتسبب الاول الفاتح أبواب الفتنة لانه كان يقتل كل من انتمى الينا حتى قتل بسببه فى يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قتيل ولولا أبو محلى ما قتلوا وأعظم فى حرمة النفوس من هذا الذى قلت قوله تعالى كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وليس فى قول المواق ما يحتج به على السلطان وانما هو فى أصحاب الخطط على الترتيب الذى كان على عهده مثل أصحاب الشرط كصاحب الشرطة الذى ينفذ أحكام القاضى وصاحب شرطة السوق الذى ينفذ الاحكام عن قاضى الحضرة وغير ذلك من الولايات وولاية أبى محلى لا تعد ولاية حتى يعتبر عزله وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه عن الاشياخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة ولست ممن ينطبق عليه قوله أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه ولكن لماذا تحتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا اليك به فى يونس اليوسى وقلنا لك قال صلى الله عليه وسلم الحرم لا يجير عاصيا قال الابى وهذا يحتج به على أهل الزوايا وأضربت عن الجواب وليس ذلك من أدب الجدل ولكن أخبرنا عن الوجه الذى منعت به يونس اليوسى من الشرع فان متاعنا عنده وأما أهلنا فى داره الى يوم الوقعة وترتب فى ذمته للمسلمين من الاموال والدماء ما علمت فان كنت ممن يريد العدل فهلا عدلت فيه فحينئذ نعلم انك لا ترعى جهته ولا تذهب بك النفس مذهبا الاجرم حينئذ نكون عند ما تريد ومع هذا لما أمسكناه وجئته وكتبت لنا فيه اسرحناه ساعة وصول خطابك من غير توقف فلو كنت عنادا للعبث بها عبثه هو بأماء أهلى وأهل دارى على انى ما رددت شفاعتك منذ عرفتك بعثت لى على ابراهيم بن يعزى فسرحناه لغرضك على انه ترتب فى ذمته ما ينيف على خمسين ألف أوقية وذلك المال انما يقال له بيت مال المسلمين وانما كان يجب تخليده فى السجن وأهل الحصن أخرجناهم منه عن آخرهم وأنفذتم كتابكم بردهم فامرنا بردهم عن آخرهم وابن يعقوب أوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرك من غير اذننا ولا مشورتنا وبعثنا مكانه فانفذت الكتاب فيه فرددناه لمكانه ما هو الامر الذى سافرت كتبك فيه ولا أسرعنا فيه خفافا وأما مسئلة أهل آزمور فلما جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده ورددنا الخيل وقضية الجناشة الناس فى شأنهم بالاجتهاد وقضية العرب اعلم أن العرب قد أفسدوا الارض واستطالوا اسواء هذه البلاد والغرب والذى يليق بهم ما أفتى به سحنون فى عرب افريقية والمغرب ولو طالبناهم بمجرد العشر مدة هذه الفتنة فى المغرب لأتى ذلك على أموالهم والناس قد خرجوا عن أطوارهم وأحبوا الفتن طلبا للراحة وانظر كتاب الافادة كذا للقاضى واستطالتهم فيه عليه فى قضية شرعية مشروحة فى رسمها القديم على انهم أضعف الناس قلوبا انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خرجوا عن الطاعة وتساوى الشيخ والصغير فى ذلك فان كنت تصغى لمقالاتهم واسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر منهم لحديكم ورأيت أن أقدم لك مقدمة أمام هذا وان كانت أدبية قيل لابن الرومى وهو على بن العباس لم تقل كقول ابن المعتز

كأن آذريوننا * والشمس فيه عاليه مداهن من ذهب * فيها بقايا غاليه

الجناشة كانوا يبيعون أولاد المسلمين للنصارى

فأجاب بأن قال لا يقدر أن يقول هو مثل قولي في وصف الرقاقة

ما أنس لا أنس خبازا مررت به * يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة * في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال كل منا وصف أواني بيته ورب البيت أعلم بما فيه وأهل مكة أدرى بشعابها والصيرفي أعرف بنقد الدينار وقصة الخضر والكليم صلوات الله على نبينا وعليهم فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار والكليم يرد عليه في كل ذلك حتى أنبأه الله بسر ما لم يعلم على أن علم الخضر في علم موسى كحلقة ملقاة في فلاة هكذا قال بعض العلماء وقال بعضهم كل منهم على علم خصه الله تعالى به ومن هنا جوز ابن عربي الحاتمي في بعض كتبه وأحسب أن ذلك في الفصوص أن الولي الذي يتخذه الله ويصطفيه بمحبته يطلعه على علم لم يطلع عليه الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال مشيرا الى نفسه أطلعني الله على علم لم يطلع عليه آدم فمن دونه واعلم أن السلطنة لها أسرار لا بد منها وسياسة ينكر ظاهرها ولكن نرجع الى غرضك ومرادك أخبرنا كيف تحب أن يسلك الناس في العرب فإن كنت تحب أن يسلك الناس فيهم مسلك مولاي عبد الله فالزمان غير الزمان والاسعار قد طاعت وبلغت النهاية والله تعالى قد بعث أنبياءه وأنزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة وأخذ العلم من أفواه الرجال وأدبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام على بعض ما أورد الناس في الخراج أما ما بنوا عليه فرضه في صدر الاسلام والدول العظام فلا نطيل بذكره لشهرته وأما في المغرب خصوصا فأول من فرضه عبد المؤمن بن علي وجعله على أقطاع الارض بناء على أن المغرب فتح عنوة واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول أن السهل فتح عنوة والجبل فتح صلحا فاذا تقرر هذا وعلمت ان أهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا وبقي السهل كله إرثا لبيت المال تعين أن يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو السلطان والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لاول الدولة الشريفة على حسب وفق أئمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الامر على السنن القويم الى ان هبت عواصف الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل والد الله مولانا الامام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك وامتدت به الفتنة في الجبل الى أن هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله من مولانا المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال فقدر رضي الله عنه الاشياء حق قدرها ورأى أن المغرب غب تلك الفتن قد فغر فه لالتهامه عدوان عظيمان الترك وعدو الدين الطاغية فاضطر رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية والاجحاف بالرعية أمر يستنكف رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول أيامه فلم يمكن له حينئذ الا أن أمعن النظر رحمه الله في أصل الخراج فوجد بين السعر الذي بني عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطيه الرعية منذ زمان الفرض وبين سعر الوقت أضعافا فحينئذ تحرى رحمه الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شيء بوجهه ودفع ما يساويه بسعر الوقت فاختاروا السعر مخافة أن يطلع الى ما هو أكثر فأجابهم اليه رضي الله عنه وعرف الناس الحق فلم ينكره أحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة ليت شعري لو طلبنا نحن الرعية بسعر الوقت الذي طلع اليوم الى أضعاف مضاعفة ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك والحاصل راجعوا رضي الله عنكم ما عند الامام الماوردي في الاحكام السلطانية في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك وأما

ما تقتضيه

ماتقضيه من العجب لتعطل أجوبتنا عنك فنحن نراجع أقل منك ولكن كتابك آكد مبناه على قصة أهل آزمور فانفذنا من أخرج الذى كان به وأقصاه عنه وشرد من كان عنده فتوقف الجواب حتى رجع الخديم فحينئذ أجبنا كم بما وصلكم وتعجيل الاجوبة وبطؤها فاعلم أن الذى يقتضى ذلك أمور منها أن يكون الامر الذى ورد الخطاب فيه منكم ما سمعت به ولا بلغنى فنتوجه للبحث عنه والفحص عن أسبابه فربما أوجب ذلك البطء بحسب الاماكن والبلدان فيكون جوابنا على أساس وبنيان وان كان عندنا خبر ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتأخر وقد وقع هذا منا غير مرة وكون تعطيله منشؤه ما من الله به علينا من رجوعنا الى سريرملكنا واجتماعنا بسربنا آمنين اعلم أن أهل هذا المغرب لما تمالؤوا على وخرجت الى المشرق والتقيت بالترك والاروام وجالستهم وخاطبونى وخاطبتهم فنهم مشافهة ومنهم مراسلة وكنت أيام مقامى فى أرضهم كمقامى على سريرملكى لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤسهم كان يشجع فضلى ويمد كفه رغبة فى نعمتى وواسيت الجميع عطاء مترفا مع قلة الزاد والذخيرة وترفعت عن مواساة الاماثل والاكابر من العجم والعرب ولاركنت لاحد بل تجودت بما قدرت عليه من الاخبية حتى جعلت محلة برماتها وخيلها فتزاحمت على العجم بالرغبة وبسطوا أكف الضراعة فى المقام عندهم والدخول فى جلتهم وعرضوا على الاقطاعات السنية والبلادات الملوكية بلطف مقال وأدب خطاب حتى قال لى القبطان مراد رئيس المجاهدين وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك بأموالنا وأنفسنا وبما لنا من السفن حيث أردت وأحببت وما انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بخطى أنى أحمل أهلى وحاشيتى وأرجع اليهم الا أن تمكن لى الدخول فى الملك والغلبة على البلاد أو بعضها وقفلت من عندهم ولم يتعلق بثوب عفافى ما يشينه معهم ولا مع العرب ولا كان لاحد على منة ولا نعمة الا فضل الله سبحانه وكان فضل الله علينا عظيما ثم انى دخلت سجلماسة على رغم أنف أهلها وواليها ومنها دخلت السوس وجعلت ولى الله العارف به أبا محمد عبد الله بن المبارك واسطة بينى وبين أخى حتى اجتمعت باهلى ومالى ثم بعث الى الترك باحد بلكباشات اسمه مصطفى صولجى الى السوس راغبين فى انجاز الوعد وجنحت للسير اليهم فرأيت الاهل والاتباع قد عظم الامر عليهم واستعظموا الخروج فاسعفت رغبتهم فى المقام بالمغرب وشيعت الرسول قافلا الى قومه من سجلماسة عند الدخول الثانى لها ومغالبة أهلها عليها وعززته برسول من عندى اليهم بتحف وأموال ورد بها عليهم مع رسولهم ثم انى اقتحمت مراكش على أهل فاس على كثرة عددهم وعددهم وقاتى ففتح الله ثم خرجت الى السوس مرة أخرى وأوقعت بولد مولاى أحمد الشريف وجموع مراكش وقد تعصبوا عليه لانهم شيعة جده ففضضته على رغمهم ونازلته بالسهل والحزن حتى أمكن الله منه وحكم بينى وبينه ثم نجم الغوى أبو محلى وغلبت على الرأى وقد قال من هو أفضل منى مولانا على كرم الله وجهه لا رأى لمن لا يطاع ودخل هذه البلاد وخرجت أنا الى السوس ريثما تجتمع قبائلنا فى المكان الذى كان اجتماعهم فيه الى أن بلغتهم وقصد اليهم أبو محلى فقاتلوه ورحل عنهم بعد أن أثخنوا فيه بالقتل ثم وافيتهم فكان الحرب بيننا سجالا فهل سمعتم خلال هذه الاحوال انى احتجت الى أحد فيما قل أو جل وهذا كله بحيث لا يخفى عليك اللهم الا أن تعدوا الوفادة التى وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا أدرى على انى ما قصدتك لطلب دنيا الا انى كنت أسمع ما أنت عليه من متانة الدين والصلاح والاقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غرو أن من كان هذا وصفه كان جديرا بأن يقصد للدعاء ولاصلاح القلب ولا شك انه ما نزلنا دارك وحللنا بكانك ولما وقع الاجتماع بك جرت المذاكرة فى أبى محلى وغيره حتى كتبت الكتاب الذى عملنا عليه وها هو بخط يدك فان نسينا بعض ما فيه ولا فعلنا فاخبرنا به نستدركه وهذه مراكش التى ذكرتم قد كنت فيها كما ذكرتم ووقفت على عبد المؤمن بن ساسى وعدته مرة أخرى فى مرضه وهل قصدته لطلب دنيا أو عرفته لاجلها ومحمد بن أبى عمر ولما وقفت

على المدرسة التي من بناه مولاي عبد الله وقفت عليه في داره وكل ذلك انما نفعله تأكيد المحبة وزيادة في المعرفة بالله ولو علمت أن ذلك يعد عيبا ويظن أنه نوع من الاحتياج ما كنت والله لاقف على أحد ولو أنه علكني الدنيا بحذافيرها الان الخير والشر بيد الفاعل المختار فهو أولى بالاضطرار اليه وأما سربي فما تروع قط حتى يأمن وأما من كان بالدار التي ذكرتم فاغاهم أهلي ومتروك أعمامي وهذه الدار التي ذكرتم فهانحن ننتقل عنها الى بعض البلاد الغربية البحرية كما قلت لك ذلك مشافهة ساعة قالت لي ينبغي للاشراف بناء الجبل لوقت ما وحكيت ذلك عن والدك وأما ما أخبركم به القاضي أيام ورودي الى السوس وقت بلغني كتابكم الذي نصه قد اجتمعت أناس وفسدت النيات وتعينت المطامع وأردنا تدبيركم لان الملوك أهل التدبير والمراد رجوعنا الاوكارنا من غير وصمة تلحق الجانبين فكل ما حل فهو عني والتزمته الى الآن الا ما طرأ علينا فيه النسيان فذكرونا به فانا لا نخرج عنه وأما يمين المصحف وأني حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا أحلف لاحد الى لقاء الله أما علمت أني حضرت بيعة الشيخ المأمون صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان واستحلفهم له الا أنا رضي الله عنه فانه قال فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم لاجله الكراهية ولكن الذي قلت لعبد الصادق أحلف بالمرابط فاني أوفي لك به ولازلت على ذلك لان الذي كنت تقول في ذلك الوقت أخاف ان تقع في أهل مراكش والاكابر ونحوهم مثل حكومة عبد القادر ونحوها أما أهل مراكش فما تعرضنا لاحد منهم حتى تركنا متاعنا لاجلكم كولد المولوع وغيره وهذا الميدان والشقراء فابعث من رضيت ينادي فيهم من له حق علينا ننصفه منه ومن خدامي أيضا وان كنت سمعت قضية منصور المكاري فالمكاري نزل أهلنا في خيمته عند وقعة رأس العين فلما أرادوا الطلوع الى الجبل تركوا أكثر مالهم في خيمته مع بعض الخدم خوفا من غائلة البربر لما كان وقع منهم لاهل بابا أبي فارس فاخذ سماطا من ذهب يزيد على ستين ألف أوقية وكان أيام أبي حسون معه وفي جملته حتى مات القائم فبذل جثته بانجاز عشرين ألفا والباقي حتى يؤديه على سعة وطلب منا أن يتعمل و يتولى بعض الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصبرنا له حتى اذا جاء أبو محلي ووقع ما وقع طالبناه بمتاعنا وهو لا يسعه انكاره وهكذا عبد الكريم الذي في زاوية تك بنفسه يعلم ان اخوته أخذوا الى سلعة في وسط حلتهم وأنا بين بيوتهم تزيد على خمسين ألفا وأخذوا الابل وها نحن سكتنا عنهم ولا طالبناهم بها وأيضا قال لك أنظر ما فعل باخوتي وصرت تكاتبنا وأنت لا علم عندك باصل المسئلة وأما الاموال فان الله سبحانه قد وسع علينا من فضله وعندنا ما يكفي الخامس والسادس من الولد وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا ولو أردت خمسمائة ألف مثقال من أصحاب أفلامنك أو من أصحاب الانجليز وكتبت اليهم في ذلك ما تأنوا في بعثه ولا لاذوا فيه بعذرة وقد كفانا الله به والحمد لله على ذلك واعلم أن الظن فيك جميل ولولا ذلك ما أعطيت خمسة آلاف مثقال وسمحت بالمال الذي حمل اليكم ابن عبد الواسع أولا وسلعة السفن أخيرا وبهذا كله تستدل على صفاء السريرة وصالح النية والله سبحانه يعلم ذلك وأما الامتعاض من عدم الانة القول وحسن الخطاب فكما قال تعالى وقولوا للناس حسنا وانك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به الائمة رضوان الله عليهم أهل زمانهم اتكالا على علمنا به وحسبي نصح الفضيل بن عياض وسفيان ومالك رضوان الله عليهم فهذه المسئلة حسبي في الجواب منك انتهى ما وقفنا عليه من هذه الرسالة وهي دالة على براعة الرجل فقها وأدبا وكمال مروءة وعلو همة رحمه الله وغفر ذنوبه

﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على المعمورة ونهوض أبي عبد الله العياشي لجهادهم﴾

﴿وانتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله﴾

قد قدمنا في أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتغال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها ثم لما استولى الاصبنيول خذله الله في هذه المدة على العرايش كما مر طمحت نفسه الى الاستيلاء على غيرها وتعززها بأختها فرأى أن المهدية أقرب اليها فبعث اليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركبا حربية فانتهوا اليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها اهـ كذا في تواريخ الفرنج ﴿وقال شارح الزهرة﴾ كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين وألف وقيل سنة ثلاث وعشرين بعدها وقيل غير ذلك وكان عدو الله الاصبنيول أراد أن يضمها الى العرائش لينضبط له ما بينهما من السواحل وتتقوى عساكره بهما فخيب الله ظنه ولقي من أهل الاسلام عرق القربة وكان أبو عبد الله العياشي بعد رجوعه من آزمور وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا في نحو أربعين رجلا وزار ضريح شيخه أبي محمد بن حسون وبات عنده فجاءه أهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من نصارى المعمورة وأن مسارحهم قد امتدت الى الغابة وأن النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فأمرهم بالتهيؤ اليهم ﴿وفي نشر المثاني ما نصه﴾ وفي أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث وعشرين وألف أخذ النصارى المهدية فكتب أهل سلا الى السلطان زيدان فبعث اليهم أبا عبد الله العياشي الذي كان مقدما بوكالته على الجهاد بدكالة وهو يقتضي أن مجيء العياشي الى سلا كان باذن السلطان لا فرارا منه والاول أصح اللهم الا أن يكون مجيئه فارا كان بعد هذا التاريخ والله أعلم وأمر أبو عبد الله العياشي أهل سلا بالتهيئ للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم الا نحو المائتين منها وكانت السنون والفتن قد أضعفتها فحضهم على الزيادة والاستكثار منها فكان مبلغ عدتهم على زادوا زهاء أربعمائة ثم نهض بهم الى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قريبا الى ان غربت الشمس فقتل من النصارى زهاء أربعمائة ومن المسلمين مائتان وسبعون وهذه أول غزوة أوقعها في أرض الغرب بعد صدوره من ثغر آزمور ومنها أقصرت النصارى عن الخروج الى الغابة وضاق بهم الحال ثم ان السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدي محمد العياشي بسلا وسلامته من غدره قائده السنوسي بعث الى قائده على عسكر الاندلس بقصبة سلا المعروف بالزعروري وأمره باغتياله والقبض عليه ففاوض الزعروري أشياخ الاندلس في ذلك فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عينا عليه وطليعة على نيته واستخبار ما هو عازم عليه وما هو طالب له فلازمه بعضهم وشعر العياشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته ثم ان الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الاندلس وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك الى القائد الزعروري أن يجهز الى درعة أربعمائة من أندلس سلا فجهزهم اليها وطالت غيبتهم بها فافتقر أكثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه فكان زيدان يبعث الى أهل الاندلس بسلا بتجديد البعث الى درعة فيأبون الانقياد اليه في ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته ثم وشوا اليه بقائده الزعروري فبعث زيدان بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الاندلس داره وكتبوا الى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقا فبعث اليهم مولاه وقائده المملوك عجيبا فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبؤا به وصاروا يهزؤن به ثم عدوا عليه فقتلوه فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان وأظلم الجو بينه وبينهم وبقي أهل سلا فوضى لا والي عليهم وكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص الى المال والحريم وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم واستمر الحال على ذلك الى ان كان من أمره ما نذكره بعد هذا ان شاء الله

﴿الانعطاف الى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من قدوم السلطان زيدان الى فاس أواسط سنة تسع عشرة وألف واستيلائه عليها

ثم خروجه عنها واعراضه عنها وعن أعمالها الى آخر دولته وكان عبد الله بن الشيخ حياة أبيه الشيخ تحت أمره يصغى اليه ولا يقطع أمرا دونه وقيل انه خرج عن طاعته سنة عشرين وألف ولما قتل أبوه ببلاد الهبط كما مر استبد عبد الله هذا بفاس وما انضاف اليها على وهن وفشل ريح وكان غالب جنده من شراقة وشراقة هؤلاء هم عرب بادية تلمسان وما انضاف اليها وسموا بذلك لانهم في ناحية الشرق من المغرب الاقصى فاهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشارقة لكن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة فكان غالب جند عبد الله من هؤلاء العرب ومن انضم اليهم فهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم حتى أعطاهم أجنة الناس ودورهم فكان الرجل من أهل فاس يأتي بستانه فيجد الاعرابي بخيمته في وسطه فيقول له أعطانيه السلطان ومدوا أيديهم الى حريم الناس ونهبوا الاسواق وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات واقتحموا على الناس دورهم حتى ان امرأة كانت تطبخ خليعا وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار أحد شراكة فهربت المرأة وأغلقت عليها مشربة لها فلم يقدر لها على شئ فراودها على النزول فأبت فقال لها ان لم تنزلي رميت الولد في الطنجير فتمادت على الامتناع فرمى به فيه فما هو الا أن رأت ولدها في وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه فاندقت رقبتها وماتت فغاظ الناس ذلك وأعظموه وقام رجل منهم يقال له أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهوني محتسبا على شراقة واعصوصب عليه كثير من العامة وقاموا بنصرته فقتل شراقة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا وحكم السيف في رقابهم ونفاهم عن فاس وحماها من اذايتهم وطهرها من رجسهم فاستحسن الناس أمره وأذعنوا اليه ﴿قال في المرآة﴾ وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الاول يعني سنة عشرين وألف ثار بفاس الشريف أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني وعضده الفقيه أبو عبد الله محمد اللطي المعروف بالمربوع وتبعهما أهل فاس بأجمعهم وأخرجوا من كان بها من جيش السلطان وقتلوا كثيرا منهم وجرت في ذلك خطوب آلت بعد سنين الى انقطاع الملك بفاس وبقي الناس فوضى الى الآن اهـ كلام المرآة وكان ابتداء أمر شراقة واشتداد شوكتهم سنة ست عشرة وألف كانوا ادالة على أهل فاس نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة أخرى وببعض الفنادق وقرب باب المسافرين الى ان قام عليهم الشريف أبو الربيع في التاريخ المتقدم وكان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة أبي الربيع وفتكه بشراقة غائبا عن سلا فلما بلغه الخبر قدم ورام أن يصلح بين أهل فاس وبين شراقة وراودهم على ذلك فقالوا الا الا فسميت تلك السنة سنة لالا ثم أمر أبو الربيع أهل فاس بشراء العدة والتهيء لقتال شراقة وخرج اليهم فاقتتلوا خارج باب الجيسة فانهزمت شراقة واستتب أمر أبي الربيع وسكنت أحوال المدينة وأمن الناس أمانا لم يعهد من زمان السلطان الغالب بالله وفي يوم الاربعاء رابع عشر جمادى الثانية سنة عشرين وألف كانت وقعة المترب موضع خارج باب الفتوح وسببها أن أهل فاس استغاث بهم الملالقة واستصرخوهم على شراقة مكيدة وحيلة فخرجوا في يوم شديد الريح وكمن لهم شراقة بخولان وأغاروا عليهم بغتة فانهزم الناس وقتل من أهل فاس نحو الالفين وفي نشر المثاني سبعمائة فقط قال وجلهم هلك بالعطش وغلقت الابواب واضطربت المدينة وهاج الشر بسبب ذلك مدة ثم خرج أهل فاس مرة أخرى لقتال عبد الله بن الشيخ فهزموه وأسروه وبقي في أيديهم فعفوا عن قتله وأطلقوه وذهبوا خلفه حتى دخل داره من فاس الجديد ولما قتل أبوه الشيخ سنة اثنتين وعشرين كما مر واتصل خبر مقتله بابنه عبد الله عزم على الاخذ بثاره من قاتليه أولاد أبي الليف وأزمع المسير اليهم ووافقه على ذلك الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع وأصحابهما وامتنعت العامة من الذهاب معهم لان الشيخ لم تبق له في نفوس المسلمين مودة حيث باع العرائش للنصارى فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع وحاصوا حيصة حمر الوحش واتخذوا رؤساء آخرين

فوقع بسبب ذلك شر عظيم أدى الى قتل الشريف مولاى ادريس بن أحمد الجوطي العمراني التونسي وبسبب ذلك ان منادي أبي الربيع مر ينادي في السوق باستنفار الناس مع عبد الله بن الشيخ فقام اليه الشريف مولاى ادريس وضربه بعصا وسبه فأقبل أبو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاى ادريس دار القيطون وقتلوه على خصتها ولما كان صباح القبر من الغد قام ولد مولاى ادريس وشكا قضيته لعلماء فاس فامروه بالصبر ثم التف عليه أهل العدوة وقصدوا دار أبي الربيع وناوشوه الحرب فرجعوا مفلولين وقتل بعضهم والامر لله وحده ووقع الغلاء حتى بيع القمح باوقيتين وربع للمد وكثرت الاموات حتى أن صاحب المارستان أحصى من الاموات من عيد الاضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة وخربت أطراف المدينة وخلت المداشر ولم يبق بلمطة الا الوحوش وكثر النهب في القوافل ولما كان المحرم فاتح سنة ست وعشرين وألف قبض الشريف أبو الربيع على أربعة من كبار شراقة ثم قتلهم فوجم لها اللمطيون وخاف الناس على المدينة وتوقعوا الشر وعظم الرعب في القلوب حتى وقعت بسبب ذلك الهزيمة في كل مسجد من مساجد الخطبة بفاس وذلك انه كان امام جامع القرويين ذات يوم يخطب والناس في صحن المسجد فوقع شؤبوب من المطر غزيرا فابتدر من في الصحن الدخول الى تحت السقف فظن الناس ان أبا الربيع قد قصده شراقة فانهزموا وخرجوا من المسجد لا يلوى أحد على أحد فبلغ الخبر الى أهل جامع الاندلس فافتقدوا بابهم وبلغ الخبر الى أهل الطالعة فكان كذلك وتتابعت الهزائم بالمساجد وفي يوم السبت الخامس من صفر سنة ست وعشرين وألف قتل الشريف أبو الربيع غدرا في جنازة رجل لمطي خرج اليها فقتله الفقيه المربوع وقتل أباه وأبناء عمه وستة من أصحابه ودفن مع والده بمسجد الجرف ولما قتل أبو الربيع بقيت فاس في يد المربوع واعصوصب عليه اللمطيون واشتدت شوكته ثم قدم جمع من عشيرة أبي الربيع من زرهون وحاولوا الفتك بالمربوع ففطن بهم ووقع بينه وبينهم قتال هلك فيه نحو مائة وثلاثين رجلا وسلم المربوع منها وقال صاحب معتمد الراوى لما قتل أبو الربيع الزرهوني قام أخوه مولاى أحمد يطلب بثاره وساق معه نحو أربعمائة من الزراهنة واقتحم بهم فاس وقاتلوا الفقيه المربوع وشيعته من اللمطيين فالتف أهل فاس على المربوع وقاتلوا معه الشريف يدا واحدة فانهزم الشريف وقتل جل من معه وكاد يقبض عليه باليد ففر الى روضة سيدى أحمد الشاوى ومعه نحو الثمانين من أصحابه فتبعهم الفقيه المربوع في جمع عظيم من اللمطيين واقتحم عليهم الروضة ففر الزراهنة الى بيوت دار الشيخ فهجم عليهم المربوع بجنده وقتلهم أجمعين ثم ان المربوع واللمطيين جاؤا برجل يقال له عبد الرحمن الخنادقي كان يتعبد بزرهون فاستقدموه في جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وألف وراموا أن يملكوه ويجتمعوا عليه فانزلوه مع أصحابه في روضة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم واتصل الخبر بالقائد أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فاتى وفتك باصحاب الرجل المذكور ولجأ هو الى ضريح الشيخ أبي حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط ميتا على القبر وبطل أمره ولما سئم أهل فاس من الفتن وكثرة الحصار وضاق بهم الحال من غارات الاعراب ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه وأظهروا المحبة له ففرح بهم غاية وتحالفت العامة والخاصة على نصره والاذعان اليه فصفح عنهم وعفا لهم عما سلف وبعث وزيره الى المربوع بالامان فلم يأمن وخاف على نفسه وصمم مع اللمطيين على قتال عبد الله وتهيؤا له حتى لم تصل الصلوات الخمس بالقرويين ثم ان القائد جوابن عمرو وزير عبد الله أمر بان ينادى بامان اللمطيين ففر اللمطيون عن المربوع حينئذ حتى لم يبق معه الا قليل ثم بعث اليه عبد الله بسبحته وخاتمه أمانا فلم يأمن وفر ليلا الى بني حسن فاخذه شيخهم سرحان وأتى به الى عبد الله فعفا عنه وعادت دولة عبد الله الى شبابها واستتب أمره وتمهدت له البلاد وذلك في جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وألف فجمع الجيوش وبعث بعض جنده لحصار

تطاوين وبعضهم لقبض الاعشار وبعث وزيره حمو ابن عمرو مع المربوع لازجن موضع من جبال الزبيب فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتمادا على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله وأسرّها فى نفسه ثم فى يوم الاثنين ثالث ربيع النبوى سنة ثمان وعشرين وألف قتل المربوع الاطى ونهبت داره ﴿وقال فى نشر المثانى﴾ قتله عبد الله بن الشيخ وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع ثم أنزله ولعبت عليه خيله ثم بعد أيام وظف عبد الله على اللطيين ثمانين ألفا فثقل عليهم أمرها فهربوا فى كل وجه فأسقط عنهم نصفها والله تعالى أعلم

﴿ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على أخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع فى ذلك﴾

﴿وقال فى شرح زهرة الشماريخ﴾ لما رأى أهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد ابن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه وكان الذى قام بدعوته الشريف أبو الحسن على بن محمد بن على بن عيسى بن عبد الرحمن الادريسى المحمدى اليونسى المعروف بابن ريسون وهى أم جده على نزيل تاجروت وبايعوه على الكتاب والسنة وعلى احياء الحق وإماتة الباطل فلما بلغ خبره أخاه عبد الله خرج لقتاله فالتقى الجمعان بوادى الطين واقتتلوا فانهزم عبد الله وتقدم محمد الى فاس فدخلها واستولى عليها فى شعبان سنة ثمان وعشرين وألف وقبض على بعض عمال عبد الله فقتلهم واستصفى أموالهم وفى آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما بعكاسة فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا فى مهل رمضان من السنة وأظهر العفو عن الخاص والعام ثم قتل أهل فاس قائده ابن شعيب وأخذوا حذرهم من عبد الله ثم وقع قتال بين أهل الطالعة وأهل فاس الجديد ودام أياما عديدة حتى اصطلحوا التاسع رجب من سنة تسع وعشرين وألف ثم ان عبد الله خرج لقتال أخيه محمد فوقعت المعركة بينهما بوادى بهت فانهزم محمد وفر شريدا الى أن قتله ابن عمه كما سيأتى ان شاء الله وفى يوم الجمعة خامس ذى القعدة من سنة اثنتين وثلاثين وألف قتل الفقيه العالم القاضى أبو القاسم بن أبى النعيم بعد ان نزل من صلاة الجمعة بفاس الجديد فقتلته اللصوص بباب المدرسة العنانية وفى نشر المثانى قتله اللطيون بالزربطانة لانهم أتهموه بالميل الى عبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شر عظيم بين أهل العدوتين من فاس ولم يزل عبد الله فى معالجة أهل فاس فتارة يميلون اليه وتارة ينحرفون عنه لفساد سيرته وقبح طويته حتى كان قائده مامى العلج ينهب الدور جهارا ويعطى عبد الله كل يوم على ذلك عشرة آلاف مما ينهب من الناس من غير جريمة ولا ذنب وقام عليه بعكاسة أيضا رجل يقال له الشريف أمغار وقام عليه بتطاوين المقدم أبو العباس أحمد النقسيس ولم يبق فى يده الا فاس الجديد وأما فاس القديم فتارة وتارة كما ذكرنا آنفا الا أنه استولى عليها الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع ولما قتلا كما ذكرناه آنفا قام بفاس محمد بن سليمان اللطى المدعو الاقرع وعلى بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان وقام أحمد ابن الاشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت فتن وحروب ثم قام الحاج على سوسان وابن يعلى وتولى أيضا بزرور ومسعود بن عبد الله وغيرهم من الثوار وكانت فاس أيام هؤلاء على فرق وشيع لا يأمن التاجر على نفسه الا ان استجار باحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس ونتن أفقها العاطر الانفاس وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها وحدث غير واحد من الثقات أنه لما دامت الحرب بين أهل العدوتين ولم يكن لاهل الاندلس غلبة على اللطيين قال الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى لا يغلب أحد اللطيين ما داموا مواظبين على قراءة الحزب الكبير للامام الشاذلى رضى الله عنه وكانت طائفة من اللطيين يقرؤونه كل صباح بزاوية سيدى رضوان الجنوى من عدوة اللطيين فسمع ذلك أهل عدوة الاندلس

فاحتالوا

فاحتالوا على ابطال قراءة ذلك الحزب بان بعثوا أحدا فاحتال على أولئك الذين يقرؤنه فاستضافهم فباتوا عنده جميعا فى منزله فلما طلع الفجر أو كاد زعم ان مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ولم يزل يعانى فتحها الى ان طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرؤا الحزب ذلك اليوم وأخبر أهل الاندلس بذلك فحملوا على أهل عدوة اللطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع انهم كانوا لم يجدوا اليهم سبيلا قبل ذلك ببركة حزب الشاذلى رضى الله عنه ﴿وذكر بعضهم﴾ أن سبب هذه الفترة ما حكى أن عبد الله بن الشيخ عزم على التنكيل باهل فاس فى بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه فاستشفعوا اليه بالصالحين المجذوب بن سيدى جاول بن الحاج وسيدى مسعود الشراط وكانا من الملامتية فلما وقفا بين يديه قال أما وجد أهل فاس شفيعا غير هؤلاء الخراثين فى ثيابهما فغضب سيدى جاول وقال والله لا تصرّف فيها يعنى فاسا أحد أربعين سنة وانصرفا فيقال ان عبد الله بن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما الى ان أتى بالشيخين فاسترضاهما فكان أمر فاس كما قال سيدى جاول لم يطأ طئ رؤس أعيانها سلطان الى ان جاء الله بالمولى الرشيد ابن الشريف السجلماسى رحمه الله كما سيأتى وانما كان يتصرّف فيها رؤساء أهل فاس الذين يسمونهم السياب قال اليفرنى وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد بفاس وملخصها ما ذكرنا ولم يزل عبد الله فى محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف الى ان توفى فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من اسرافه فى الخمر وادمانه عليه وكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا ويتعاطاه سرا وجهارا ﴿قال فى شرح زهرة الشماريخ﴾ ولما توفى عبد الله ولى بعده أخوه عبد الملك فى شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف ولم يزل مقتصرا على ما كان قد صفا لاخيه الى أن توفى فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين وألف * ومن آثار عبد الله بن الشيخ القبة التى على الخصة الكائنة أسفل المنارة التى بوسط صحن جامع القرويين فانه لم يكن فى القديم الا الخصة المقابلة لها شرقى الجامع المذكور ﴿غريبة﴾ قال اليفرنى حدثنى شيخنا الفقيه أبو الحسن على بن أحمد قال كان شيخ شيوخنا الفقيه الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة يقول ان أحمد بن الاشهب الذى تقدم ذكره قبل فى الثوار أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قال والحديث بذلك مذكور فى كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطى رحمه الله اهـ وقتل ولد ابن الاشهب رابع جمادى الاولى سنة خمس وأربعين وألف قتله على بن سعد فى جامع القرويين وهو فى صلاة العصر وقامت بسبب ذلك حرب بين أهل عدوة الاندلس واللطيين وانتهبت السلع التى بسوق القيسارية وسوق العطارين وبنى اللطيين الدرب الذى بباب العطارين واستمرت الحرب نحو ثمانية أيام ثم اصطلحوا

﴿ثورة أبى زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لابى حسون السملالى المعروف بابى دميعة على تارودانت﴾

كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى لما رجع من مراكش الى السوس حسبما مر بداله فى طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها فى حواضر المغرب وبواديه وكان المرابط أبو الحسن على بن محمد بن الولى الصالح أبى العباس أحمد بن موسى السملالى ويقال له أيضا أبو حسون قد ظهر بالصقع السوسى عند فشل ريح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت وأعمالها فلما ثار الفقيه أبو زكرياء سار الى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد أبى حسون المذكور وبعد أن وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة وكان القاضى بتارودانت يومئذ الفقيه العالم أبو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى وكان أبو زكرياء قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافقه على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب فغضب عليه الفقيه أبو زكرياء حتى أمر بقتله غيلة فيما قيل فخرج القاضى من المدينة خائفا يترقب وذهب الى مراكش فاستقر بها وعصمه الله منه

وكتب الى أبي زكريا برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ﴾

يقول الفقير الشديد الحاجة الى رحمة مولاه الغني به عمن سواه السائل منه التوفيق واللطف في ظعنه ومأواه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن السكتاني عفا الله عنه وسمح له الحمد لله الذي جعل الصدع بالحق وظيفة الانبياء وأورثه بعدهم من خلقه فريق العلماء والصلاة والسلام على من أكد أمر النصح وقال الدين النصيحة فقيل لمن يارسول الله فقال لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه وعن التابعين وتابع التابعين لهم الى وقوع القصاص بين الخليقه وبعد فاني لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية الى جبلي وجدت أهلي وأولادي مستوحشين من البادية وان كانت محل سلفي ومقر تلادي بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها وكنت في غاية الضيق والتأسف لما حل بالاولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس ممن نابه مثل ما نابني وأصابه مثل ما أصابني

أليس من القبيح مقام مثلي * بدار الخسف منكسف الجمال

أخالط أهل سائمة وسرح * وأرتع بين راعية الجمال

فأجلت فكري وان كان الكل بقدر الله وارادته فرأيت ان ذلك وفي القضاء لطف أمر انتجه كما لا يخفى على ذي بصيرة ما حل بالمغرب من افتراق الكلمة وتلاعب شياطين الانس والجن بذوي العقول منهم فصاروا أحزابا وفرقا فاتبعت كل طائفة من هواها ما كانت تعبد حتى اذا عرض لعاقل أو عرض عليه منهم الاقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه وأوروه باغوائهم وزينوا له ان ذلك يشينه لدى العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس مع انه لا بعده من السقوط الا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس وأين يغيب عن الموفق ان السقوط من عين الله هو الطامة الكبرى وأين غاب عنه ان العبرة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به آخذا بزمامه ساكنا على قلبه ولسانه وأين يغيب عنه من كتاب الله فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فقلت انا لله وانا اليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملأهم وقتلت سرواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرمهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبعدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم اللهم ياذا الطول والامتنان ياحنان يامنان ياذا الجلال والاكرام تداركنا بألطافك الخفية في ديننا ودنيانا ياخالق الارض والسماء ﴿فان قلت﴾ ما ذكرته من انتحو وجلك من الحواضر الى البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدى به من الصحابة رضي الله عنهم فتبدي صحيح وما دليلك على التلاعب ﴿قلت﴾ ما خرجه أئمة الصحاح من منع الخروج على الائمة وان الواجب في حق من رأى منهم ما يكره الصبر والاحتساب اذ غائلة الجور وان تفاحش أقل بكثير من غائلة الخروج الذي يترتب عليه فساد المهج والاموال والاعراض والاديان وهتك الحرم ولهذا صبر على الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتى لقوا الله تعالى سالمي الاديان وبعبادته مغتنمي الزمان ونذكر فابالعهد من قدم بالمرابط أبي محلي كان في قطره عالي الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه انه قطب زمانه وبلغ به الحال الى أن سولت له نفسه أو سول لها أنه يصلح به ما لم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم آخرون حتى ملأ الدنيا صياحا ودعاوي وعياطا وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل

فتمرد على المسلمين حتى لم يسلموا من لسانه و يده فقتل ونهب وسب واغتاب وحمل نفسه مالا تطيقه فاستهوته شياطين الانس والجن والنفس والهوى ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه على طائل وآفته الغفلة عن الكتاب والسنة والرضا عن النفس حتى انه حكمها فصارت تلعب به الى أن فاه وادعى بدعاوى استبيح بها ما كان معصوما من دمه وهلكت بعده بسببه نفوس وأموال وغير ذلك أيشك من ارتاض بالكتاب والسنة ونظر بعين الشريعة ان فعله ذلك مما حمله عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوى وربما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلى به أو قلده تقليدا ارديا في فعله فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين والى الآن كانوا يستصوبون فعله و يستحسنون قوله مع انه بمعزل من الكتاب والسنة ﴿فان قلت﴾ وهذه طائفة الفقراء ما بين متعصب متحزب ومتحيل متصيد ومتسور على ما استأثر به البارى من الغيوب مرتكب للآثام مصر على العيوب ﴿قلت﴾ وهذه طائفة الفقراء فيها جل ماتقدم وزيادات تضيق عن الاحاطة بها السطور والطروس قد بددتها والعياذ بالله الفتن وشردها ماتخوفته من المحن بانت العلوم واضمحلت الفهوم وتعطلت الرسوم فلا منطوق يذكر ولا مفهوم

هذا الزمان الذى كنا نحاذره * فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

﴿قلت﴾ وهذا الشيخ أبو زكرياء وهو الذى يساق الى نصحه الحديث كنا نستسقى به ونستشفى وكانت تشد اليه الرحال ولا يأنف من اتيانه النساء والرجال قد أتته من أقطار مغربنا الوفود ودانت له الذئاب والاسود وكان يعلم الجهال ويهدى الضلال ويطعم الجائع ويكسو العريان ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفان وهى سبيل يا لها من سبيل وطريقة ما أحسنها من طريقة ثم صارت تلك الجموع وكان أمر الله قدرا مقدورا أيدى سبا وتلاشت شذر مذر ما لها من نبا أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده أو تجد فى الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك فتطلبه أو سلطانا يوازيه أو يقاربه فتحاوله أين خفى عليك الشئ وهو ضرورى أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولى معقولى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم وان أبغض الكلام الى الله أن يقول الرجل للرجل اتق الله فيقول عليك نفسك وهو طرف من حديث خرجه النسائى قد وعظتك وذكرتك ان نفعت الذكرى قال جل من قائل وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين

فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام

فان قال شيطان من شياطين الانس أو الجن هذا ما أريد به وجه الله قلت الله الموعد ايا كم والظن فان الظن أكذب الحديث وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وان خطر هذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه الله والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم قلت أدل دليل على انى قصدت محض النصيحة هو انه استنصحنى على دفاع أبى محلى فنصحته وقلت له ان هذا لا تستقيم معه الديانة فكأنه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول استخر لى الله فكاتبته بان لا يفعل ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت له اذ ذاك ان الناس يقولون كذا وكذا وعرفته اذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان فجمعنا فى رملة الى الآن أتخيل حرها وتبرأ من كل ما يقال ومازلت على المنع الى ان جاءت كراريس من قبل أبى محلى فتأملتها فوجدتها مشتملة على كفريات فى جزئيات فحينئذ شرح الله صدرى لاباحة دفاعه ثم وان قلت ذلك فنفسى آمرة ولا أقول فى نفسى ما كان يقوله سحنون فى قضية ابن أبى الجواد مالى وله الشرع قتله ولو قلت أو غششت لغششت فى قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أولا لان ذلك هو مقتضى التعصب للامير واذ لم أتعصب اذ ذاك فكيف أستسهله الآن فتعين انى نصحت لكم ان قبلتم والا فكما قال تعالى عن نبى من أنبيائه ولكن لا تحبون الناصحين أنشدك الله الذى باذنه تقوم السموات والارض أما قلت لك بعد رجوعى العام الاول من مراكش بل الذى قبله أن العذر لا يحسن وصرحت ولوحت بان شق العصا

لا يحل غير مرة وما كفانى القول الدال على ذلك الى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال

فوالله مافارقتها عن قلى لها * وانى بشطى جانبيها العارف

ورضيت بالبادية مع جفائها فرارا من الفتن وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يكون خير مال الرجل غنما يتبع به سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ثم بعد فعلى هذا كله نصحت فلم أفلح وخانوا فافلحوا وعدوا على من القبائح طاعتى للدغة مع انك يوم جاء الى دارك قلت لهم هذا أميركم ونحن لا نشك انك من المعتبرين فى مغربنا وان بيعتك لاحد لازمة لنا وكذلك حين ذهبت الى مراكش فى وقعة أبى محلى قد أراد أهل مراكش فابيت وأبحت البلاد لخدم الامير وقلت لهم انه الامير وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصره وبمرئى منك ومسمع أفتنشك بعد ان كان منك هذا انك مبايع وأنت قدوة واذا كان هذا فاى حجة لك على الامير ولا على المأمورين فمن زين لك قتاله فقد غشك اذ هو مسلم وابن مسلمين فان قلت مواثقى مشروطة بشروط لم يوف لى بها قلت هب انه لم يوف لك أفتستبيح قتاله لاجل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار الحديث فبالله أيها الشيخ ماتقول فى هذا الحديث وأنظاره وماتقول فيما انتهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق فى سبيل الطاغوت والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس أوما تستحى من ربك يوم تسأل عن النقير والقطمير ولست ممن خفى عليه ذلك كله فتعذر عند المخلوقين أوما علمت أن كثيرا من العوام يعتقد جواز ذلك اذا رآك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس أوما خشيت دعوة المظلوم التى ما بينها وبين الله حجاب أوما كنت تعير من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه لا تعير أخاك المؤمن الحديث

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

أما انتهبت لما وقع لاهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الاحرار وهتك الحرم ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام الحديث وقد أتانا السؤال من قبل الشيخ عن صنيع سكانه ذلك ولم يستطع اذ ذاك من نظر بنور العلم أن يقول لهم فى وزر نظر الى ما آل اليه الحال فى أهل درعة مع ان جلهم حملة القرآن وعامتهم بله وأكثر أهل الجنة البله أفيليق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم ولا تنزع الرحمة الا من قلب شقى انما يرحم الله من عباده الرحماء من لا يرحم لا يرحم ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء أونسيت أنه يقتص للجماء من القرناء وأن الظلم الذى لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض أفى علمك ان حسناتك تفى بما عليك من التباعات أوأنه لا تباعة لاحد عليك ولو كنت بدريا لاحتمل أن يقال فى شأنك ماقاله صلى الله عليه وسلم لعمر ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم أوكما قال عليه السلام والظلم ظلمات يوم القيامة أوتستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسؤل عن القيراط وحتى أهل تارودانت بلغنا أنه لم يغن فى شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور الى التقريع فاتق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم هذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس على العموم ويتعلق بحق كاتبه على الخصوص انك أخذت عليه أن يؤدى الطاعة للامير ويرعى ماهو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبرى من الغدر وشق العصا بعد ان بذل وسعه فى نصحك نصح الامير وحاول بكليته على جمع الكلمة وتعب فى ذلك واقتحم فيه عقبات لا يقطعها الا بازل ولا سبيل اليها لمن يكون فى دينه وعمله مثلى ممن هو نازل

لعمر أبيك ما نسب المعلى * الى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت * وصوح نبتها رعى الهشيم
اذا غاب ملاح السفينة فارتمت * بها الريح هوجا دبرتها الضفادع

ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح كما انه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير لان هذه طاعة وتلك أخرى والتوفيق بيد الله سبحانه نعم بلغني مع ذلك وجزم لي به أنك مع بذل النصح لك وللامير أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم أخذت علي بالرصد في قولي لصبيتي والرجوع اليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم وهل هذا الاحكم الهوى والشيطان أعندك ما تستبيح به ذلك مع أني والحمد لله أينما كنت لا أسعى الا في مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرى من يبثها أو اغاثة ملهوف حين تجب اغاثته لئن بسطت الي يدك لتقتلني الآية ولكن الله عز وجل يقول ولا يحيق المكر السيء الا باهله وفي التوراة من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفرن بئرا تريد بها أخا فان وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولا أو فعلا أو اشارة أو تصريحا أو تلويحا وأي جريمة توازي هذه الجريمة أو كبيرة من الآثام أكبر منها والله الموعد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون هذا والسعاية المصحوبة بسؤالي عن دفاع سكانه أين تجدون ما يوجب اباحتها أين غاب عنكم انها من الكبائر وأين غاب عنكم قوله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يهوي بها في النار سبعين خريفا أهذا من أخلاق المؤمنين والصالحين وأنت من بيت الصلاح ما كان جدك يرضى مثل هذا وما كان أبوك امرأ سوء وهذا والله أعلم نتيجة قرناء السوء ولا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله والى هذا ينتهي حق الصحبة أعني بذل النصح ان الله يسأل عن صحبة ساعة ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك انصر أخاك ظالما أو مظلوما فنصرناك بالرد الى الجادة أين أنت من مولانا الحسن بن علي اذ تخلى عن الامر لابن عمه معاوية مع انه هاشمي علوي فاطمي احدى ريحانتي النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية أموي يجمعهما عبد مناف فتخلى عن الامارة مع انه امام وابن امام وأصلح الله به وهو سيد بين فئتين عظيمتين من المسلمين بعد ان كان يلقب بامير المؤمنين فقال له بعض أصحابه اذ سلم عليه يا عار المؤمنين فلم يكترث بذلك وقال النار أشد من العار ألهمنا الله واياكم رشد أنفسنا وجعلنا واياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه انتهى ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمما على طلب جمع الكلمة الى أن اخترمته المنية ﴿قال صاحب الفوائد ما صورته﴾ قام الشيخ أبو زكرياء بجمع الكلمة والنظر في مصالح الامة واستمر به علاج ذلك الى أن توفي ولم يتم له أمر انتهى وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادى الثانية من سنة خمس وثلاثين وألف بقصبة تارودانت وحمل من الغد الى رباط والده فدفن بجنبه رحمه الله

﴿بقيـــة أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله﴾

قد ذكر المؤرخ لويز البرتقالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة شيأ من أخبار السلطان زيدان رحمه الله فقال كان السلطان زيدان صاحب مراكش مسالما لنا كافا عن حربنا وكانت القبائل تفتات عليه في غزونا فكانت غاراتهم لا تنقطع عنا وكان هو أيضا معهم في شدة ومكابدة من أجل اعوجاجهم عليه ثم ذكر أن من جملة من غزاهم في دولته السيد سعيد الدكالي ﴿قلت﴾ وأظنه والد السيد اسمعيل صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة قال فنهض سعيد بحال وغيرة وامتعاض للاسلام وسار الى الجبل الاخضر وغيره فجمع الجموع نحو اثني عشر ألفا وزحف بهم الى الجديدة ووافقه على ذلك قائد آزمور وبعض أشياخ الشاوية وكانوا في نحو مائتين وخمسين من الخيل وارتاع النصارى منهم وخافوا خوفا شديدا وأمرهم قائدهم بالجد في حراسة الأسوار والانقاب وان يسدوا ابواب الجديدة ولا يفتحوا منه الا خوخته وحاصرهم المسلمون ثلاثا ثم قضى الله بوفاة السيد سعيد فافترق ذلك الجمع قال لويز مات أسفا على مافاته من القتل بالنصارى كما يحب ﴿وفي سنة أربع وثلاثين وألف﴾ خرج السلطان زيدان من مراكش وقصد ناحية آزمور ولما انتهى الى الموضع المعروف بام غرس من بلاد دكالة حمل اليه نصارى

الجديدة هدية نفيسة ثم قدم ثغر آزمور فى نحو أربعين ألفا من الخيل على مازعم لويز ودخل البلد وأخرج أهل آزمور وعدة مدافع من البارود فرحا به ولما سمع نصارى الجديدة بذلك أخرجوا مدافعهم أيضا فرحا بالسلطان وأدبا معه ﴿وفى سنة ست وثلاثين وألف﴾ ثار على السلطان زيدان الفقير ابراهيم كانوت هكذا سماه لويز ولم أدر من هو قال وفى خامس عشر من دجنبر من السنة تواقف جيش الثائر المذكور مع جيش السلطان للحرب ببلاد دكالة وكان جيش السلطان يومئذ ألفا وخمسمائة فقط وجعل على مقدمته ابنه عبد الملك فانهزم ابراهيم وقتل وقتل جماعة كثيرة من أصحابه وقبض على ولده فبعثه السلطان مع عدد وافر من رؤس أصحابه الى مراكش وأخرج نصارى الجديدة المدافع أيضا فرحا بهذا الخبر فبعث اليهم السلطان زيدان بفرس أحمر لقائدهم اكراما له وكتب اليهم بكتاب تاريخه سادس رمضان سنة ست وثلاثين وألف مكافأة لهم على أدبهم معه انتهى كلام لويز ﴿وقال اليفرنى رحمه الله﴾ كان السلطان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس فى محاربة مع اخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم ولم يخل قط فى سنة من سنى دولته من هزيمة عليه أو وقيعة باصحابه ووقعت بينه وبين اخوته معارك يشيب لها الوليد وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصا مدينة مراكش وجماعة من نحس زيدان واستدل به على فشل ريحه أنه فى بعض الوقائع بعث كاتبه عبد العزيز بن محمد الثعلبي بعشرة قناطير من الذهب الى صاحب القسطنطينية العظمى وطلب منه أن يمده ببعض أجناده كما فعل مع عمه عبد الملك الغازى فجهز له السلطان العثمانى اثنى عشر ألفا من جيش الترك وركبوا البحر فلما توسطوه غرقوا جميعا ولم ينج منهم الاغراب واحد فيه شرذمة قليلة ﴿وقال منويل﴾ ان قراصين الاصبنيول غنمت فى بعض الايام مركبا للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة وغير ذلك ﴿قال اليفرنى﴾ وكان زيدان غير متوقف فى الدماء ولا مبال بالعظائم ﴿قلت﴾ وهو مخالف لما ذكره زيدان فى رسالته التى خاطب بها أبا زكرياء المتقدمة من انه ماسعى فى قتل أحد الا بفتوى أهل العلم والظن بزيدان انه ماقال ذلك الاعن صدق والا فمن البعيد أن يفخر على خصمه ويدلى بشئ هو متصف بضده وكان زيدان فقيها مشاركا متضلعا فى العلوم وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشرى ﴿قال اليفرنى﴾ وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع الشيخ أبى العباس الصومعى ﴿قلت﴾ الذى وقع له مع الصومعى هو انه لما ألف كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه وسماه المعزى بضم الميم وفتح الزاى بصيغة اسم المفعول من الرباعى عارضه زيدان وهو يومئذ بتادلا والباعلها من قبل أبيه بانه لم يسمع الرباعى من هذه المادة وانما قالت العرب عزاه يعزوه ثلاثيا فأصر أبو العباس رحمه الله على رأيه الى ان لطمه زيدان على وجهه بالنعل فشكاه الى المنصور فقال له لو لطمك وهو المخطئ لعاقبته أما اذ كان الصواب معه فلا ﴿قلت﴾ كان زيدان يومئذ فى عنفوان الشبيبة فصدر منه ماصدر

فان يك عامر قد قال جهلا * فان مظنة الجهل الشباب

ومع ذلك فما كان من حقه أن يفعل وأظن أن انتكاس رايته سائر أيامه انما هو أثر من آثار تلك اللطمة فان لله تعالى غيرة على المنتسبين الى جنابه العظيم وان كانوا مقصرين فنسأله سبحانه أن يجنبنا موارد الشقاء ويسلك بنا مسالك الرفق فى القضاء وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله

فتنتنا سوالف وخدود * وعيون مدعجات رقود
ووجوه تبارك الله فيها * وشعور على المناكب سود
أهلكتنا الملاح وهى ظباء * وخضعنا لها ونحن أسود

﴿وقوله﴾

مررت بقبرها مدوسط روضة * عليه من النوار مثل النمارق
فقلت لمن هـذا فقالوا بذلة * ترحم عليه انه قبر عاشق

وكانت وفاته رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الاشراف قبلى جامع المنصور من قصبة مراكش ومما نقش على رخامة قبره قول القائل

هذا ضريح من به * تفتخر المفاخر
زيدان سبط أحمد * مبتكر المآثر
حامى حمى الدين بكل * ذابل وباتر
أجل من خاض الوغا * وللاعادى قاهر
لازال صوب رحمة الله عليه ماطر
ومن شذا رضوانه * نفحة كل عاطر
أرخ وفاة من غدا * جار الرب غافر
بمقعد الصدق علا * أبو المعالى الناصر

ووزراؤه الباشا محمود ويحيى آجانا الورنيكى وغيرهما وكتابه عبد العزيز الفشتالى كاتب أبيه وعبد العزيز بن محمد الثعلبى وغيرهما وقضاته أبو عبد الله الرجراجى وغيره وترك عدة أولاد منهم عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ وهؤلاء ولوا الامر بعده وأحمد وغيرهم رحم الله الجميع

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله﴾

لما توفى السلطان زيدان رحمه الله فى التاريخ المتقدم بويع بعده ابنه عبد الملك ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب الى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة وفر أحمد الى بلاد الغرب فدخل حضرة فاس يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد وفاة أبيه بستة وأربعين يوما فاتسم بسمة السلطان وضرب سكته وفى ثالث عشر شوال من السنة عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغودة فقتله غدرا بالقصبة ولما كان الحادى عشر من ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وألف أخذ أحمد المذكور وسجن بفاس الجديد على يد قائدهم عبو وباها وبقى مسجونا سبع سنين ثم خرج من السجن مستخفيا بين نساء فى سابع رجب سنة أربع وأربعين وألف وأعان العامة بنصره ولم يتم له أمر ثم توفى قتيلا فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وخمسين وألف رمى برصاصة من بعض العامة فكان منها حتفه وذلك بفاس الجديد ولم يتم له أمر

﴿ظهور أبى عبد الله العياشى بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق﴾

قد تقدم لنا انتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان وقتلهم مولاه عجيبا فبقيت سلا فوضى لا والى بها فكثر النهب وامتدت أيدى اللصوص الى المال والحريم وسيدى محمد العياشى ساكت لا يتكلم وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات فاهرع الناس الى أبى عبد الله المذكور من كل جانب وكثرت وفوده وأشرقت فى الجو السلاوى أنواره فشمر عن ساعد الجد وأظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر فى مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء الامصار أن يضعوا خطوطهم فى ظهير بانهم رضوه وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته وان أى قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفىء الى أمر الله فاعطوا بذلك خطوطهم فى ظهير وانهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا الى تازى وكان الحامل له على طلب ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال لا يحل الجهاد الامع الامير ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوى الواهية والا فقد كتب له علماء الوقت كالامام أبى محمد عبد الواحد بن عاشر والامام أبى اسحق ابراهيم الكلالى بضم الكاف المعقودة والامام أبى عبد الله محمد العربى الفاسى وغيرهم بان مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف

على وجود السلطان وانما جماعة المسلمين تقوم مقامه ولما كمل أمره وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله
ورد الظلم عن ضعفاء الامة ضاق الامر على عرب الغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الوازع ومحبتهم
الخلاف والفتنة فنكث بيعته جماعة منهم وكان ممن نكث الناصر بن الزبير في لمة من شراكة فقاتلهم
أبو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم ونكث أيضا الطاغي بالتاء بدل الطاء في لسانهم مع جموعه أولاد
سحير فغلبهم وعفا عنهم وكذلك عرب الحياينة طغوا على أهل فاس وعاثوا خلال تلك البلاد دباغ غراء ولد
السلطان زيدان فقاتلهم أبو عبد الله فكانت الدبرة عليهم وتاب على يده جماعة من رؤساء شراكة الذين
كانوا مع الحياينة وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسرا وكان أهل سلا قد لقوا من نصارى المعمورة
مضرة وشدة فلما اجتمعت الكلمة على أبي عبد الله العياشي ورد الله كيد من نكث في نحره كان أول
ما بدأ به أنه تهيأ للخروج الى حلق المعمورة واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعا في فتحه
فيتقوى المسلمون بذخائره وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شيء وصعب عليهم
أمره وكان أبو عبد الله اذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى في منامه انه يسوق خنازير أو نحوها ولما سار
بجموعه الى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من الخنازير معها عنوز فكان من قضاء الله وصنعه انه
في صبيحة تلك الليلة قدمت أغربة من سفن النصارى بقصد الدخول الى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين
الذين بالخندق فأرادوا أن ينحرفوا الى البحر فردهم البحر الى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم
وقتلوا وسبوا ووجدوا في الاغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله وأسر يومئذ من النصارى
أكثر من ثلاثمائة وقتل منهم أكثر من مائتين وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم ففدى به الرئيس طابق
رئيس أهل الجزائر وكان عندهم محبوسا في قفص من حديد واستقامت الامور لابي عبد الله العياشي
بسلا وبنى داره داخل باب المعلقة منها وبنى برجين على ساحل مرسى العدوتين من ناحية سلا وهما
المعروفان اليوم بالبساتين ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا
بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا فيه ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع خرج النصارى
الى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم
عندهم مرتد فاعطوه سلعا وجاء بها الى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأخذ وقتل وعميت عليهم
الانباء اذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا الا بالخيل قد أحاطت
بهم وقتل منهم نحو الستمائة ولم ينج الا القليل حتى لم يبت في الحلق تلك الليلة الا نحو أربعين رجلا منهم
وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة ولم يحضر أبو عبد الله العياشي في هذه الوقعة لانه كان قد ذهب
الى طنجة حنقا على يوم المسامير لان النصارى خذلهم الله كانوا قد صنعوا انواعا من المسمار بثلاثة رؤس
تنزل على الارض والرابع يبقى مرفوعا وبثوا ذلك في مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان
والرجالة فلما رجع وأعلم بضعف من بقي بالحلق بعث الى أهل الاندلس بسلا يصنعون له السلالم كي
يصعد بها الى من بقي في الحلق فيستأصلهم فتثاقلوا عن صنعها غشا للاسلام ومناواة لابي عبد الله حتى جاء
المدد لاهل الحلق وكانت تلك الرابطة بين أهل الاندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بأرضهم
فكانوا آنس بهم من أهل المغرب فلما أتى أبو عبد الله بالسلالم لم تغن بعد شيأ ومن هنالك استحكمت
البغضاء بينه وبين أهل الاندلس وكان أهل الاندلس قد أعلموا النصارى بان محلة أبي عبد الله النازلة
لمحاصرة الحلق ليست لها اقامة فبلغ ذلك أبا عبد الله فاقام عليهم الحجة وشاور العلماء في قتالهم فافتى
أبو عبد الله العربي الفاسي وغيره بجواز مقاتلتهم لانهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم ولانهم
تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به لانفسهم
وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح وكان سيدي عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه

القضية حتى رأى بعينه حين قدم الى سلا بقصد المرابطة فرأى أهل الاندلس يحملون الطعام الى النصارى ويعلمونهم بعورة المسلمين فافتى حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد الله وحكم السيف فى رقابهم أياما الى أن أخمد بدعتهم وجمع الكلمة بهم ولما وقعت غزوة الحلق الكبرى قدمت الوفود على أبى عبد الله بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر فحض الناس على استئصال شافة من بقى بالحلق من النصارى وعير العرب بترك الكفار فى بلادهم وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبنى مالك والتاغى والدخيسى وغيرهم فقال لهم أبو عبد الله والله والله ان لم تأخذ كم النصارى لتأخذنكم البربرة فقالوا ياسيدى كيف يكون هذا وأنت فينا فقال لهم اسكتوا أنتم الذين تقطعون رأسى فكان كذلك وهذا من كراماته رضى الله عنه ثم صرف عزمه الى التضييق على نصارى العرائش وشن الغارات عليهم فتقدم فى جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحوا من سبعة أيام فخرجوا على حين غفلة فمكن الله من رقابهم وكان فى مدة كونه بالغابة أخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عبود والحناش فى لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس فاراد أبو عبد الله قتله فقال له استبقنى وأنا تائب الى الله وأنا أنفع المسلمين ان شاء الله فتركه فذهب الى النصارى وكان موثوقا به عندهم حتى كانوا يؤدون اليه الراتب فقال لهم ان احياء العرب وحلها قد نزلوا بوادى العرائش فلو أغرتم عليهم لغنمتموهم فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون فى ساعة واحدة طحن الحصيد ولم ينج منهم الا الشريد وكان ابن عبود قد بقى بايديهم فاخذوه ومثلوا به ونزعوا اسنانه وأرادوا قتله لولا انه رفعهم الى شرعهم وكان عدد من قتل من النصارى نحو ألف وكانت هذه الوقعة سنة أربعين وألف

﴿بقيــــة أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته﴾

﴿قال اليفرنى﴾ كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود فاظهر انه أراد أن يحتفل لسابعه فبعث الى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن وصعد هو الى منارة فى داره فنظر الى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فأيتهن أعجبته بعث اليها وكان مدمنا على شرب الخمر الى ان قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الاحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف ودفن الى جنب قبر أبيه وبسط منويل خبر مقتله فقال لما ثار الوليد على أخيه عبد الملك وعادت الكرة عليه بقى متنقلا فى البلاد ثم رغب الى أخيه حتى ردّه الى مراكش فاخذ الوليد يستميل رؤساء الدولة ووجوهها وتجارها ويعدهم بالاحسان حتى وافقوه على الفتك باخيه فترصدوه حتى غفل البوابون ودخلوا عليه قبته وهو متكئ على طنفسة فرموه برصاصة وتناولوه بالخناجر المسماة عند المغاربة بالكميات وقامت الهيعة بالمشور والقصبة فخاف الوليد على نفسه من بعض قواد الجند فاخرج جنازة أخيه الى المشور حتى شاهده الناس ميتا فسكنوا وانقطع أملهم وبايعوه انتهى ﴿قال اليفرنى﴾ ومما رأيته منقوشا على رخامة قبره هذان البيتان

لا تقنطــــن فان الله منان ✱ وعنده للورى عفو وغفران

ان كان عندك اهمال ومعصية ✱ فعند ربك افضال واحسان

ومن وزرائه محمد باشا العلج ويحيى آجانا الوريكى وجوذر وغيرهم وقاضيه الفقيه أبو مهدى عيسى ابن عبد الرحمن السكتانى قاضى مراكش ومفتيه أبو العباس أحمد السملالى رحم الله الجميع

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله﴾

لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان فى التاريخ المتقدم بويع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصرا

على ما كان لاخيه وأبيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة ولم يصل به ليلة القدر الارجل واحد من شدة الهول والحروب التى كانت بين أهل المدينة واقتسم المغرب فى أيام أولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الاندلس أيام طوائفها كما ذكرناونذكر بعد ان شاء الله

﴿ظهور أبى حسون السملالى المعروف بابى دميعة بالسوس ثم استيلاؤه على درعة وسجلماسة وأعمالهما﴾

هذا الرجل هو أبوالحسن ويقال أبو حسون على بن محمد بن محمد ابن الولى الصالح أبى العباس أحمد بن موسى السملالى وكان بدء أمره أنه لما ضعف أمر السلطان زيدان بالصقع السوسى وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجرّ الرياسة الى قرصه وتألبت عليه البرابرة من بسائط جزولة وجبالها والتفت عليه غالب القبائل السوسية فاستولى على تارودانت وأعمالها الى ان أخرجه عنها الفقيه أبو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب وفتن عظيمة حسبما مرت الاشارة اليه ولما توفى أبو زكرياء فى التاريخ المتقدم صفا لابى حسون قطر السوس ونفذ فيه أمره وسمعت كلمته ثم بعد مهلك زيدان مدّيده الى درعة فاستولى عليها ثم استولى على سجلماسة ونواحيها فاستحكم أمره وتقوى عضده ولم يزل أمره نافذا فى سجلماسة الى أن ثار عليه الاسد المصور المولى محمد بن الشريف فاخرجه من سجلماسة بعد حروب يشيب لها الوليد ثم أخرجه من درعة أيضا على ما نذكره بعد وقد وقفت على سؤال رفع من جانب أبى حسون الى القاضى أبى مهدى السكتانى فى شأن مدينة ايليغ دار رياسته ومقرّ عزه يستفتيه فى احداث كنيسة اليهود بها هل يجوز أم لا وفيه مع ذلك بعض الكشف عن حال هذه المدينة فلنذكره ونصه

الحمد لله الذى ارتضى للاسلام دينا وأنزل به على خيرة خلقه كتابا مبينا الفقيه الاجل العلامة الاحفل القاضى الاعدل خاتمة المحققين ومعتمد الموثقين أبا مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى وفقه الله لما يرضيه وأعانه على ما هو متوليه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تقرر عند سيدنا أمر هذه الحضرة العلية العلوية ايليغ أدام الله بهجتها كما رفع كغيرها من الحواضر درجتها وانها محدثة فتوفرت ببركة بانيها عمارتها ومبانيها فاتخذها مسكنا أهل السهول والحزون وجمعت لطيب تربتها بين الضب والنون فنزلها برسم الاستيطان أوشاب من أهل الذمة باذن مختطها الامام العالى الهمة فاختطوا بها عن اذنه منازلهم وبنوا بفنائها كنيستهم وصيروها متعبدهم فاتفق والحديث شجون أن جرى ببعض أندية علمائها ومحضر جمع من نبهاء البلدة وفقهائها كلام أفضى بهم الى ذكر الكنيسة المذكورة والمجادلة فى محصل الحكم الشرعى فيها فى الدواوين المسطورة فأفتى بعضهم بوجوب هدمها لانها محدثة ببلاد الاسلام ولما فى تركها من المفاسد العظام وانها لا تترك لهم متعبدا وجزم الكلام وقال هذا محصل ما ذكره فى مثل هذه القضية الاعلام وأفتى فريق بجواز ابقائها وانه لا ينبغى تقويض بنائها ولا التعرض لهم فى احداثها اذ على مثل هذا من دينهم الفاسد أقرّوا وأعطوا الذمة فاعطوا الجزية صاغرين ولم يرد منع اجتماع دينين الا فى جزيرة العرب وكم من بلد اسلامى محدث مشحون بالعلماء أحدثت فيه ولم يقولوا بمنعه وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز احداثها وابقائها بعده واستمر الحجاج وكثر اللجاج ولم يقنع كل فريق بما أبداه الآخر من الاحتجاج فعطلت لذلك الى أن تفرّقوا فيها بعلمكم النافع بين العذب والاجاج بفتوى تبين صحيح الاقوال من سقيمها وتفصل بين ليلى وغريمها ولولا محل النازلة من الدين ما رفعت اليكم فلذلك وجب الجواب عنها عليكم مع مسئلة أخرى وهى انهم طلبوا أن تترك لهم بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لان مسافة ما بينهم وبين افران التى هى مقبرة قديمة لهم بعيدة هل يساعفون أم لا والله يبقيكم ومجدكم محروس وظل من استزلكم منكوس والسلام عليكم ﴿الجواب﴾

الحمد

الحمد لله وعلى فقهاء بلادنا السوسية حرسها الله وأكرمهم باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد وقف كاتبه عفا الله عنه على نازلة أهل الذمة النازلين بايليغ مختط أولاد السيد البركة قطب بلادنا سيدي أحمد بن موسى نفعنا الله ببركاته وبارك في ذريته وسددهم لما فيه رضاه آمين ولما وقفت عليها وتأملتها رأيت أن الصواب فيها الفتوى بمنع احداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بني فيها بعد احداثه لان ايليغ من بلاد الاسلام ولا فيه شبهة لاهل الذمة الطارين عليه لا باعتبار الفتح العنوي ولا باعتبار الصلحي على الخلاف في المغرب باعتبار فتحه وحاصل أمرها خفاء الحال فيها واذا كان الامر هكذا فالحكم انها ملك لمدعيها الحائز لها والاراضي أقسام أرض اسلام لا يجوز احداث الكنائس بها باتفاق ثم ان وقع شيء من ذلك هدم وأرض ايليغ من هذا القسم فان ملكوا الارض التي بنوا فيها الكنيسة بوجه من وجوه التملك كالعطية وجب هدمها ونقضها ويكون لهم ما يسوغ من المنافع وان كان بناء الكنيسة شرطا ردت العطية وفسخ البيع ان كان به لانه في معنى التحبيس على الكنيسة والحاصل ان وجه دخول اليهود ايليغ معلوم وان بلده ملك للاسلام فبناء اليهود فيها الكنائس معصية وتمكينهم منه اعانة عليها وهذا لا يخفى وأما الجواز والافتاء به في النازلة فبمعزل عن الصواب والاستدلال على الجواز بحواضر المغرب وسكوت علمائها وموافقة أمرائها لا يتم لان أصل تمكينهم من الكنائس مجهول اذ يحتمل أمورا منها انه يحتمل ان يكون بعهد كان لهم في غير تلك البلاد من اقرارهم على بلد يسكنونه مع بقائهم على متعبداتهم ثم نقلوا المصلحة اقتضت ذلك أو أرجح ولان البلاد تقدم فيها اليهود وغيرهم من أهل الصلح والحاصل أن وجه دخولهم مجهول في هذه البلاد بخلاف ايليغ ونازلة ايليغ معلومة الدخول فبينهما بون فقياس احداهما على الاخرى لا يصح وبالله التوفيق وكتب عيسى بن عبد الرحمن وفقه الله آمين ولما علم المرابط بالحكم أمر بهدمها ومنع اليهود مما أرادوه

﴿بقيـــة أخبار السلطان الوليد بن زيدان ووفاته رحمه الله﴾

﴿قال في شرح الزهرة﴾ كان الوليد بن زيدان متظاهرا بالديانة لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة وكان مولعا بالسماع لا ينفك عنه ليلا ولا نهارا الا انه كان يقتل الاشراف من اخوته وبني عمه حتى أفنى أكثرهم وكان مع ذلك محببا في العلماء مائلا اليهم بكليته متواضعا لهم وله ألف القائد أبو الحسن على ابن الطيب منظومته المشهورة في الفواكه الصيفية والخريفية وألف القاضي أبو مهدي السكتاني شرح صغرى الصغرى للسنوسي برسمه والقصبة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين آسفي وتيطاهي منسوبة اليه وأظنها من بنائه والله أعلم ﴿وأما وفاته﴾ فسببها أن جنده من العلوج طالبوه بمرتبهم وأعطياتهم على العادة وقالوا له أعطنا ما نأكل فقال لهم على طريق التهكم كلوا قشر النارنج بالمسرة فغضبوا لذلك وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدرا يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف ﴿وقال منويل﴾ لما ولي الوليد قتل أخاه اسمعيل واثنين من أولاد أخيه عبد الملك وسبعة من بني عمه ولم يترك الا أخاه الشيخ بن زيدان استصغارا له اذ كان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وكانت أمه تخاف عليه من الوليد فكانت تحرسه منه حراسة شديدة والقى الله محبته في قلب سائر نساء القصر لما رأين من هلاك الاعياص وعرضة الملك للزوال وكن حازمات يقمن مقام الرجال حتى ان بعضهن كانت لها طبنجات في حزامها دائما تحرس الشيخ من أخيه الوليد ثم ان رؤساء الدولة سئموا ملكته فاتفقوا مع نساء القصر على قتله وكان الوليد عازما على قتل أخيه الشيخ أيضا فاحتال بان صنع ذات ليلة صنيعا عظيما وطعاما كثيرا دعا اليه وجوه الدولة وأعيان مراكش وكان أخوه الشيخ عنده في الدار لا يتركه يخرج بحال وعزم انه اذا اشتغل نساء القصر بامر الطعام ونحوه خالف اليه وقتله فكان

من قدر الله أن العلوج قد عزموا في تلك الليلة على اغتيال الوليد فكمنوا له في الحجرة التي كان الشيخ محبوسا فيها ثم لما جاء الوقت واجتمع الناس في القبة التي أعدها لهم الوليد قام ودخل الى الحجرة التي فيها الشيخ للفتك به فوجد الاعلاج كامنين له هنالك فلما رآهم فزع وقال ما لكم فرموه بالرصاص ثم تناولوه بالخناجر حتى فاظ انتهى

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

لما قتل السلطان الوليد في التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم أجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ والقاء القياد اليه فاخرجوه من السجن وكان أخوه الوليد قد سجنه اذ كان يتخوف منه الخروج عليه فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف ولما بويع سار في الناس سيرة جيدة وألان الجانب للكافة وكان متواضعا في نفسه صفوحا عن الهفوات متوقفا عن سفك الدماء مائلا الى الراحة والدعة متظاهرا بالخير ومحبة الصالحين وهو الذي بنى على قبر الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي بزاويته قبة حافلة البناء رائقة الصنعة الا انه كان منكوس الراية مهزوم الجيش وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه واخوته الامراكش وبعض أعمالها وقد ثار عليه رجل من هشتوكة خارج باب الخميس من مراكش وقاسى في محاربته تعبا شديدا ولم يزل يناوشه القتال الى ان كانت له عليه الكرة فتفرق جمعه ثم خرجت عليه أيضا قبيلة الشياظمة فقصدهم وكانت الملاقاة بينه وبينهم عند جبل الحديد فانهزم هزيمة شنعاء ثم حدث بينه وبين أهل زاوية الدلائي ما نذكره بعد ان شاء الله ﴿ومما ذكره منويل من أخباره﴾ أنه كان محسنا للسائر رعيته وكان حاله على الضد من جور أخيه الوليد وعسفه قال وسرح الفرايلية الذين كانوا في سجن مراكش وأعطاهم الكنيسة التي بالسجينة منها وخالفت عليه سلا وأعمالها انتهى

﴿بقيـــة أخبار أبي عبد الله العياشي بسلا والثغور وما يتبع ذلك﴾

كان أمر أبي عبد الله العياشي بسلا وسائر بلاد الغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة له والابلاغ في نكايته فانتعش به الاسلام وازدهت الايام ودخلت في طاعته القبائل والامصار من تامسنا الى تازا كما قلنا الا سيما فاس وأعلامها فانهم قد شايعوه وتابعوه على ما كان بصدده من الجهاد والرباط وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط ولم يزل في نحر العدو الى ان أمن سرب المسلمين وحق القول على الكافرين

﴿وفادة أعلام فاس وأشرافها على أبي عبد الله العياشي بسلا﴾

هذه الوفادة قد ذكرها الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي في فاتحة شرحه الصغير على المرشد المعين ﴿قال في نشر المثاني﴾ وسببها ما وقع من الحرب بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة على قنطرة وادي سبو وقتل فيها من أهل فاس خمسة وأربعون رجلا فخرج شرفاء فاس وفقهاؤها الى سلا مستغيثين بأبي عبد الله العياشي قال وكان الذي أغرى الحياينة بفاس هو أحمد بن زيدان التفوا عليه وقاموا بدعوته ووصلوا أيديهم بشراقة وفعلوا بفاس وأهلها الافاعيل حتى اختطفوا في بعض الايام نساءهم من الجنات وباعوهن في القبائل وفعلوا بهن ما لا يجوز ﴿قال الشيخ ميارة﴾ قد من علي ذو العظمة والجلال الكريم المتفضل المتعال بزيارة الولي الصالح العالم العامل السائح قطب الزمان وكهف الامان المجاهد في سبيل رب العالمين المرابط في الثغور مدة عمره لحياطة المسلمين ذي الكرامات الشهيرة العديدة والفتوحات العظيمة الحميدة من لا شبيه له في عصره وما قرب منه ولا نظير ولا معين

له على نصرة الاسلام ولا نصير الا الله الذى تفضل به علينا وأقره بعنه وجوده بين أظهرنا فهو كما قيل

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يازمان فكفر

البركة القدوة المجاب الدعوة أبى عبد الله سيدى محمد بن أحمد العياشى أبقى الله بركته وعظم حرمته وبلغه من خير الدارين امنيته وأطال للمسلمين عمره وقواه وجعل الجنة نزله ومأواه مع جماعة من أعيان السادة من الشرفاء والفقهاء القادة وذلك أواسط ذى الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف عام وهو رزقنا الله رضاه بثغر سلا آمنها الله من كل مكروه وبلا فاجتمعت اذ ذاك بنجله السعيد الموفق الرشيد العالم الهمام حجة الله فى الاسلام ذى العقل الراجح والهدى الواضح عهود من الآباء توارثتها الابناء المتواضع الخاشع صاحب القلم البارع سيدى وسندى أبى محمد عبد الله سلمه الله من كل مكروه ووقاه فخصنى حفظه الله على اختصار الشرح المذكور يعنى شرحه الكبير على المرشد المعين بعد ان طالع حله وسر به كل السرور وحث على فى تقديم ذلك على جميع الامور فلما قفلت من وجهتى شرعت فى ذلك تاركا للتسويف طالبا من المولى سبحانه السلامة من الخطا والتحريف انتهى المقصود منه ﴿قال فى نشر المثانى﴾ ان أبا عبد الله العياشى قدم فاسا ونظر فى أمرها وغزا عرب الحياينة مرارا وأثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة

﴿ايقاع أبى عبد الله العياشى بنصارى الجديدة﴾

سبب هذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضى تامسنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغنامى الشاوى المعروف بسيدى رحو الغنامى أن نصارى الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل آزمور مدة فكان من عزة النصارى وذلة المسلمين فى تلك المدة ما تنفطر منه الاكباد وتخر له الاطواد فمن ذلك أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم فى محفتها ومعها صواحباتها الى أن وصلت حلة العرب فتلقاها أهل الحلة بالزغاريت والفرح وصنعوا لها من الاطعمة وجلوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيأ كثيرا فظلت عندهم فى فرح عظيم ولما كان الليل رجعت ووقع لها أيضا أنها أمرت القبطان زوجها أن يخرج بجيشه ويبعث الى قائد آزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهى تنظر اليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك فجعلوا يلعبون وهى تتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصرانى على مسلم فقتله فتكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع فقال له القبطان فما يضركم ان مات شهيدا يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم قال وكان الولى الصالح العابد الناسك الزاهد المجاهد رافع لواء الاسلام ومحيى منهاج النبى عليه الصلاة والسلام سيدى محمد العياشى كلما سمع شيأ من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام وهو يفكر كيف تكون الحيلة فى زوال المعرة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل أعراضهم من وسخ الاهانة وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يرصدونه من صاحب مراكش وقائد آزمور ومن قبطان الجديدة اذ كان ما خلف وادى أم ربيع الى مراكش باقيا فى دعوة السلطان لم يدخل فى دعوة أبى عبد الله المذكور فمكث كذلك ثلاث سنين ولما رأى أن الامر لا يزيد الا شدة أوعز الى بعض أولاد ذوبيب من أولاد أبى عزيز أن يجلبوا الى النصارى شيأ من القمح خفية وأن يكون ذلك شيأ فشيأ حتى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهمهم النصح والمحبة فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم وأخبروه الخبر وأطلعوه على غرة النصارى خذلهم الله فعزم على قصد الجديدة ثم بدا له فى تقديم غزو العرائش ثم يأتى الجديدة بغتة ففعل رحمه الله وكان ذلك أوائل صفر سنة تسع وأربعين وألف ثم عزم على قصد الجديدة فذكروا له أن وادى أم ربيع فى نهاية الملو والامتلاء فلم يثنه عن ذلك وسار حتى بلغ الوادى المذكور على مشرع أبى الاعوان فوجده ممتلئا جدا لا يكاد يدخله أحد الا غرق فقال لاصحابه وسائر من معه توكلوا على الله واجتهدوا فى الدعاء ثم اقتحم الوادى

بفرسه وتبعه الناس فعبر واجميعا ولم يتأذ منهم أحد وكان الماء يصل الى قريب من ركب خيلهم مع أن
مدد ذلك الوادي حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير وهذه كرامة عظيمة وقعت له رضي
الله عنه وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضر الها وشاهدها ولم يقع مثل هذا فيما علمناه الا للصحابة رضي الله
عنهم مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح
بعض بلاد فارس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولما وصل أبو عبد الله الى الجديدة وجد طائفة من أولاد
أبي عزيز قد نذروا به والتجؤا الى القبطان خوفا منه ان يوقع بهم لاجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم
فخرج القبطان في خيله وكان سيدي محمد كامنا بازاء الجديدة بالغابة التي كانت هنالك وقد زالت اليوم فلما
انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم أبو عبد الله فقطعهم عنها ففروا الى جهة البحر فأوقع بهم
فهلكوا ولم ينج منهم الا سبعة وعشرون رجلا فتغير صاحب مراكش من ذلك وأنكر ما صنع أبو عبد الله
وكذا أنكره قاضيه الفقيه أبو مهدي السكتاني وقد ذكر لويز مارية خبر هذه الوقعة فقال ان طائفة من
المسلمين قدموا على قائد البرتقال بالجديدة وقالوا له انا قد جئناك من عند المولى محمد بن الشريف يطلب
منك أن تعينه بجماعة من عسكرك على بعض عدوه فاسعفهم بذلك وكان شابا غرا لم يجرب الامور فنهاه
بعض كبار عسكره وحذره عاقبة الغدر فأبى وعزم على الخروج مع أولئك المسلمين وتقاعد عنه عسكره
فقال لهم اني أخرج وحدي وذهب ليخرج وحده فتبعوه حينئذ وكانوا مائة وأربعين فارسا فلما انفصلوا
عن الجديدة بمسافة وجدوا خيلا كثيرة كامنة لهم فلم يشعروا حتى أحاطت بهم نصف دائرة منهم فما
كملوهم حتى كملت الدائرة عليهم وصاروا مركزها فحينئذ التفت قائد العسكر الى ذلك الرجل الذي نهاه
عن الخروج وقال له ما الحيلة فأجابه بان الحيلة القتال حتى نموت ثم أنشده شعرا مضمنه اني أشرت عليك
وأنت أعظم جاها مني فلم تسمع والآن نقتل معا وتختلط دماؤنا حتى لا يتميزان ولا يعرف دم الشريف من
الوضيع والحاصل أن المسلمين أوقعوا بهم حتى لم يرجع منهم الى الجديدة الا ثلاثة وأسر منهم خمسة عشر
أحياء والباقي أتى عليه القتل وقامت بالجديدة مناحة عظيمة لم يتقدم مثلها وسجن الاسارى بسلا سنين
في بعض دهاليزها حتى افتداهم سلطانهم خوان الذي جمع مملكتهم من يد الاصبنيول انتهى ولما قدم
سيدي محمد العياشي من هذه الغزوة سار الى فاس للنظر في أمرها لما هاج من الجهة بين أهلها وذلك أن
رجلا منهم يقال له ابن الزين عدا على رجل آخر يقال له أحمد عميرة فرماه برصاصة من علية مسجد فوق
سويقة ابن صافي فقتله وهاجت الحرب بفاس بين أهل عدوة الاندلس وكان المقتول رئيسهم وبين
اللمطيين فقدم سيدي محمد العياشي فاسا في آخر جمادى سنة خمسين وألف فاصلح بينهم وأقاد من قاتل عميرة
كبير الاندلسيين وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة وذبه عن الاسلام وحمايته للدين
مما هو شهير عند الخاص والعام وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الاديب أبو عبد الله محمد بن أحمد
المكلاتي مادحا لسيدي محمد العياشي ومشيرا الى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر

حديث العلا عنكم يسير به الركب * وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم * تنال به الزلفى من الله والقرب
فانت رفيع من أصول رفيعة * نجوم الدياجي في الانام لها سرب
سمي رسول الله ناصر دينه * تجلى بكم عن أفقه الشك والريب
ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم * تجود لمستجد أنامله السحب
وما يستوي البحران عندي فان ذا * أجاج لعمري في المذاق وذا عذب

وكان رحمه الله عازما على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الاجل وكذلك كان ملحا على أخذ طنجة
فلم تساعده الاقدار

﴿مقتل أبي عبد الله العياشي رحمه الله والسبب فيه﴾

قد قدمنا أن أهل الاندلس بسلا تحزبوا على أبي عبد الله العياشي ورموه عن قوس واحدة وانه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم الكفر وأهله وانه استفتى العلماء فيهم فأفتوه باباحة قتال من هذه صفته فاطلق فيهم السبيل أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم فهربت طائفة منهم الى مراكش وهربت طائفة الى الجزائر وأخرى الى النصارى وفرقة الى زاوية الدلاء فجاء أهل الدلاء يشفعون في أهل الاندلس فأبى أبو عبد الله أن يقبل فيهم الشفاعة وقال ان الرأي في استئصال شأفتهم فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك وأجمعوا على حربه ومن قبل ما كانت القوارص تسري منهم اليه يدل على ذلك الرسالة التي كتبها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الى أبي عبد الله العياشي ونصها الحمد لله الحليم العفو الرؤف المنزه عن صفات من وصف بها موقوف وصلى الله على سيدنا محمد مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم وعلى سادتنا آله وصحبه وكل من انتظم في سلك أتباعهم من أهل حزبه هذا وان المجلي بنور طلعته ظلم الظلم والفساد المحلي خزائن المعالي بعوجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبه بسويداء الفؤاد من ألقت اليه المكارم أزمة الانقياد وصلحت به بحمد الله العباد والبلاد حوطة الاسلام وحمايته وخديم الدين المحمدي وكفايته سيدي محمد بن أحمد المحمود الاوصاف بشهادة من يعتد من أهل الانصاف زاده الله من المكارم أعلاها ومن نفائس درر المجد أغلاها وتوجه بتاج الكرامة والرضى وأمده بدائم مدده السرمدي حتى يرضى وسلم جنابه القدسي العلي العملي المرابطي المجاهدي من جميع البلايا وأتحفه من تحفه الفاضلة الوهبية بأعلى المزايا وأهدى اليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العلي لحماته قد شهدنا على أنفسنا بالاقرار بفضله علينا وان ما يسره يسرنا وما يضره يضرنا علم ذلك منا يقينا من له ممنا أدنى مخالطه بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطه وان الضار بالعين ضار بانسانها لكن النفوس الانسانية محل لخطاها ونسيانها ومن أقناه لديكم مقام الخادم والولد قد ساءنا منه ما ساءكم مما عنه ورد وطلبنا من جميل أوصافكم معاملته بالصفح والجميل فلن يزال الانسان الا من عصمه الله يستمال أو يميل ولولا الحرارة ما عرف الظل ولولا الوابل لقيل النهاية في الطل وما عرف العفو لولا الاساءه ولا يقال صبر المرء الا فيما ساءه وما عرفنا صاحبه الا محبا لجانب كل من للدين ينتسب فان خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب انتهى وكان الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله يطيل الثناء على أبي عبد الله العياشي ويذيع محاسنه وكان يقول في دعائه اللهم أجز عنا سيدي محمدا العياشي أفضل المجازاه وكافه أحسن المكافاه واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب اليه منه اللهم لا تحرمه توجهه اليك وانقطاعه لخدمتك اللهم نفس كربته وكمل رغبته وأجب دعوته وسدد رميته واردد له الكرة على من عاداه في الحق انك على كل شئ قدير انتهى فهذا حال الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله مع أبي عبد الله العياشي ثم قدر الله ان حدث بين أولاده وبين العياشي من النفرة ما أفضى الى المقاتلة وذلك بسبب رده شفاعتهم في أهل الاندلس وأمور أخر فأجمعوا على حربه كما قلنا فخرج اليهم أبو عبد الله العياشي فأوقع بهم وهزم جموعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع التاغي فتفرقت الجموع وتبرأ التابع من المتبوع ثم ذهب أبو عبد الله العياشي الى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من أهل الدلاء قد وصلوا الى أطراف أزغار ومعهم التاغي والدخيسي وأهل حزبهم من الكدادرة وغيرهم وعزموا على مصادمة أبي عبد الله فاراد أن يغض الطرف عنهم ويصرف عنانه عن جهتهم فلم يزل أصحابه به الى أن برز لقتالهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبي عبد الله العياشي وقتل فرسه تحته فرجع الى بلاد الخلط وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب التاغي وعلى

رأى الكدادرة فرجعت البربر الى أوطانهم وبقى أبو عبد الله العياشى عند الخلط أياما ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه وحمله بعضهم الى سلا وكأنه حمله الى أهل الاندلس اذهم أعداؤه بها ﴿قال فى نشر المثانى﴾ ودفنت جثته بازاء روضة أبى الشتاء رضى الله عنه ومن كراماته المتواترة أنهم لما جاؤوا الرأس سمعوه ليلا وهو يقرأ القرآن جهارا حتى علمه جميع من حضر فردوه الى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس وأما القبة المنسوبة اليه بقبيلة أولاد أبى عزيز من بلاد دكالة فالظاهر انها متخذة على بعض معاهده التى كان يأوى اليها أيام كونه بالقبيلة المذكورة فى ابتداء أمره كما مر وليس هنالك قبره على الصحيح ولما قتل أبو عبد الله العياشى فرح النصارى بقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرجات ثلاثة أيام وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة احدى وخمسين وألف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم (مات زرب الاسلام) باسقاط ألف الوصل وحدث رجل أنه كان بالاسكندرية فرأى النصارى يومئذ يفرحون ويخرجون أنفاضهم فسألهم فقالوا له قتل ساط والمغرب ﴿وفى الرحلة لابى سالم العياشى﴾ قال أخبرنى الشيخ محمد الفزارى بمكة قال كان بالمدينة المشرفة رجل مغربى من أهل القصر فى السنة التى قتل فيها الولى الصالح المجاهد سيدى محمد بن أحمد العياشى قال فجاء فى ذات يوم وقال لى انى رأيت فى النوم أختى ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما فقلت له من أنت قال الاسلام قطعت يدى بسلا قال فلما أخبرنى قلت له الذى يظهر لى من رؤياك ان الرجل الصالح المجاهد الذى كان بسلا قد قتل قال وبعد ذلك فى آخر السنة قدم حجاج المغرب فاخبرونا بموته وقد رثى رحمه الله بقصائد كثيرة منها قصيدة الاديب البليغ أبى العباس أحمد الدغوغى التى ذكرها فى النزهة ويحكى أنه وجد مقيدا بخط أبى عبد الله العياشى المذكور ان جملة ما قتله من الكفار فى غزواته سبعة آلاف وستمائة وسبعون ونيف ومما مدحه به العلامة الامام الشهير أبو محمد عبد الواحد بن عاشر قوله

يا حادى الاظعان فى الرياشى * أبلغ سلامى فخرنا العياشى
من نوره بدا وفضله غدا * تحدوا به الركبان والمواشى
طود الهدى عين الندى فرد الورى * فريد وقته الامام الخاشى
لله سيف صارم وقاصم * ظهر العدا كبيرهم والناشى
يتركهم عند اللقا رهن الشقا * صرعى على الارض كالكباشى
يا مسلمين تهنيكم حياتكم * ما عاش فيكم سيدى العياشى
أنام لا شك الانام الكل فى * ظل الامان لين الفراش
يا عاذلى فى حبه عذلك دع * ولا تحدثنى حديث الواشى
انى امرؤ بالحسن مفتون وعن * جميع لوم لائمين عاشى
هديتى الى الكرام أبرزت * سلامها السامعين فاشى

وثناء الناس عليه كثير فقد أثنى عليه الشيخ ميارة كما مر وأبو عبد الله محمد العربى الفاسى وابن أبى بكر الدلائى وغيرهم وكان رحمه الله مجاب الدعوة ما دعا الله فى شئ الا أستجيب له شوهد ذلك منه مرارا ومن أدعيته المحفوظة عنه اللهم انى أسألك باسمك السريع المجيب الذى خزنت فيه فواتح رحمتك وخواتم ارادتك وسرعة اجابتك ياسريع لمن قصده ياقريب ممن سأله يامجيب من دعاه أسرع لى بقضاء حاجتى وبلوغ ارادتى ياسميع يامجيب ياسريع ياقريب آمين آمين آمين يارب العالمين وكان فقيها مشاركا فى الفنون وله أتباع ظهرت عليهم بركاته ولاح عليهم سره ومن أتباعه الشيخ أبو الوفاء اسمعيل بن سعيد الدكالى القاسمى صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة ومن أتباعه أيضا المقدم المجاهد أبو العباس الخضر غيلان الجرفطى وقد ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعى فى رسالة كتب بها الى المجاهد

المذكور

المذكور يقول فيها مانصه من عبيد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له الى الفارس القائم بنصر دين الله البائع نفسه فى اعلاء كلمة الله الخضر غيلان سلام عليك ورحمة الله وبركاته وانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فانى أحبك فى الله وان لسانى لهج بالتضرع الى الله تعالى فى نصرك على الكافرين منذ خروج النجابز والباعث على اعلامك بهذا أمران أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم اذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه والثانى استنهاض همتك للجد فيما أنت بصدده من الجهاد وعدم الالتفات الى ماتورط فيه غيرك من الاغترار بالفانى فانت مادمت فى هذا على طريق صالحة وعباد الله الصالحون كلهم معك ورحم الله صاحبك الذى أسس لك هذه الطريق الصالحة وربالك عليها أعنى أمير المؤمنين نور البلاد الغربية سيدى محمد العياشى جزاه الله عنا واياك وعن المسلمين خيرا فهو سيدنا وسيد غيرنا الذى ندين الله بمحبته ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل ثم قال الشيخ ابن ناصر رحمه الله بعد كلام مانصه وتستوصى بآل سيدنا وسيد المسلمين فى زمانه كافة خير اسيدى محمد العياشى فهو عزك وبتعظيمهم قوام أمرك وهذا من نصيحتى اليك التى هى من نتيجة محبتنا لك فعاملهم بالوفاء ولا تؤاخذهم بالجفاء انتهى المقصود منه ولولد سيدى محمد العياشى وهو الفقيه العلامة سيدى عبد الله أرجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل بهم الى الله تعالى فى هلاك الذين تمالؤا على قتل أبيه فلم تمض الامدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم أحد ﴿وفى البستان﴾ ان أباعبد الله محمد الحاج الدلائى دخل بلاد الغرب وذلك بعد مقتل أبى عبد الله العياشى فلقيه ولده سيدى عبد الله المذكور بجموع الغرب بوادى الطين فوقعت الحرب فى قبائل وانتهبت حللهم ومواشيهم انتهى وكان ذلك فى أوائل ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وألف ولسيدى عبد الله ابن سيدى محمد العياشى فى بعض زياراته لابيه قوله

أتيناك والأنفس التى * تكاد من الخوف منك تذوب

ولم ندر أين هواك الذى * تحب فتنحو اليه القلوب

أتيناك خفنا وجئنا لخفنا * فمن خوفنا قد دهتنا خطوب

فهانحن من خوفنا منك جبرا * وهانحن من خوفنا منك شيب

﴿قال اليفرنى فى الصفوة﴾ وأخبرنى حافده العلامة قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العياشى أن جده سيدى عبد الله المذكور كان قد أصابه مرض أعيى الاطباء علاجه فلما طال عليه أمره رغب منهم أن يحملوه الى ضريح الشيخ سيدى الحاج أحمد بن عاشر بسلا فلما وقف على الضريح أنشد ارتجالا

أقول لدائى اذ تفاقم أمره * وعز الدوا من كل من هو ناصرى

الا فانصرف بالله عنى اننى * أنا اليوم جار للولى ابن عاشر

قال فكأنما نشط من عقال وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر فى الحال وكانت وفاة سيدى عبد الله المذكور ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين وألف ودفن بجوار الولى الاشهر الشيخ أبى سلهام من بلاد الغرب وبنيت عليه قبة صغيرة وأخبار العياشيين ومحاسنهم كثيرة وبيتهم بيت خير وصلاح رحمهم الله ونفعنا بهم آمين

﴿ظهور أهل زاوية الدلاء وأوليتهم بجبال تادلا وما يتبع ذلك﴾

أما نسبهم فهم من برابرة مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره وكان مبدأ أمر أهل زاوية الدلاء أن جدهم الولى الاشهر سيدى أبا بكر بن محمد وهو المعروف بمحمى بن سعيد بن أحمد بن عمر ابن يسرى المجاطى كان ممن أخذ عن الشيخ الصالح أبى عمرو القسطلى دفين مراكش وسكن الدلاء واتخذ

هنالك زاوية فجاء ولده الولي الاظهر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر فكمل من الفضائل ما بقي وأبدى من الاسرار ما خفي فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية وقصدها الناس من كل ناحية الى ان كان من أولاد الرجلين ما نذكره وأخذ الشيخ محمد بن أبي بكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي فحصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان أعلام الوقت كالحافظ أبي العباس المقري والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي والامام أبي محمد بن عاشر والفقيه العلامة أبي عبد الله محمد ميارة وغيرهم يقصدونه زيارته والتبرك به ويراجعونه في عويص المسائل العلمية وكان رحمه الله عالما حافظا دراكا متوسعا في علمي التفسير والحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفي غيرها وكانت وفاته سنة ست وأربعين وألف ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني غير واحد من أشياخنا أنه لما دنت وفاته جمع أولاده وعشيرته وقال لهم ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده وأنا أقول لكم ولا من اغترف غرفة بيده يشير بذلك الى ما تجاذبوه من أمر الرياسة بعده وذلك من مكاشفاته رضي الله عنه وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله وأنا أقول بانه سوء أدب لمقابلة كلام الله بكلامه وأجاب عنه حافده وهو الفقيه العلامة الشهير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر برسالة مستقلة ولما توفي خلف من الاولاد عدة فكان أكبرهم أبو عبد الله محمد الملقب بالحاج لانه حج مع أبيه ووحده مرارا ويقال انه خطب الناس يوم عرفة على ظهر الجبل لامر اقتضاه الحال ولم يكن ذلك لاحد من أهل المغرب قبله وفي أيامه تكامل أمر أهل الدلاء وشاع ذكرهم وكان للزاوية في أيامه وأيام أبيه صيت عظيم وكان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسها واقرائها وقراءتها الليل والنهار اما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم كالشيخ اليوسي وأضرابه حتى كانت اليها الرحلة في المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب وتمهد الامر بها لابي عبد الله محمد الحاج وأولاده واخوانه وبني عمه الى أن تملك مدينة فاس ومدينة مكناسة وأحوازهما وكافة القطر التادلي ﴿قال في نشر المثاني﴾ وفي سنة ست وأربعين وألف كان قيام محمد الحاج الدلائي على الشيخ ابن زيدان ﴿قلت﴾ ولعل المكاتبة الآتي بيانها بعد انما كانت في هذا التاريخ ﴿وقال في البستان﴾ وفي سنة خمسين وألف زحف محمد الحاج الدلائي بعساكر البربر الى مكناسة فاستولى عليها ثم زاد الى فاس فاعترضه أبو عبد الله العياشي بجموع أهل الغرب ووقعت الحرب بينهما فانهزم العياشي وسار محمد الحاج لحصار فاس فرجع العياشي وأعاد حربا ثانية فانهزم محمد الحاج وعاد الى بلاده وفي سنة احدى وخمسين وألف بعد موت العياشي نزل محمد الحاج على فاس وحاصرها ستة أشهر وقطع عنها المواد وجميع المرافق الى ان لحقهم الجهد وارتفعت الاسعار فدخلوا تحت حكمه ولما قام اجتمعت عليه برابرة ملوية وأذعنوا له واعصوصبوا عليه وقد كانت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وقعة أبي عقبة فانهزم فيها السلطان المذكور وانتثر جمعه وذلك في سنة ثمان وأربعين وألف ومن ثم قطع النظر عما وراء وادي العبيد

﴿ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين أهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات﴾

﴿قال في النزهة﴾ وفي أيام السلطان محمد الشيخ بن زيدان قويت شوكة أهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد الغرب وضعف الشيخ عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم وبعث اليهم قاضيه العلامة الفقيه أبا عبد الله محمدا المزوار المراكشي يطلب منهم ترك الشنآن والرجوع الى اجتماع الكلمة ويحتج عليهم بان أباهم الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر كان قد بايع أخاه الوليد بن زيدان والتزم طاعته وانهم أولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهاجه فلما بلغهم القاضي المذكور وأدى الرسالة ونثل ما في العيبة وبين قصده اعتذروا اليه بمسائل وتعللوا بوجوه ﴿قال اليفرني﴾ وقد وقفت على رسالة كتب بها السلطان محمد الشيخ

المذكور

المذكور اليهم بعد رجوع القاضي من السفارة وهذا نص القدر المحتاج اليه منها بعد الخطبة وانصرف عنان الغرض لمن عيناه لمسنون العتاب والمفترض من هم لدقائق المجاز ضابطون وفي حقائق الجواز خابطون أهل وطن الدلاء لمن هو لورود الشراب محتاج السيد أبو القاسم بن ابراهيم والسيد أبو عمرو والسيد محمد الحاج ومن لنشر صحف الانصاف منهم مطابق كالسيد المسناوي والسيد عبد الخالق ولا زائد الاقصد ايقاظكم من الغفوة التي طال كطلوع الشمس من المغرب ليلها وامتد كأرض المحشر فرسخها وميلها هل هذا منكم استخفاف بحضرة الخلائف أو تعام وتصام عما يجب على الرعايا من لازم الوظائف هذا من العار الماحي لصحف المناقب ولا يلوي بن توخاه الا الهيع الذي لا تحمد لمنتجعه العواقب وخصوصا مثلكم الذي شق عصا الشقاق وشرع يمد أيدي الاطماع في استخلاص قبائل الآفاق وكنتم لا تدرون لباس القمصان ولا الشواشي الى ان جسركم على وطء الغرب فاخذكم معه المغتر محمد العياشي فنبذتم موائد الضيوف وتقلدتم بلا حياء السيوف وأعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع ومن مضى الى أي قطر تعذر عليه الرجوع الى ان أمكنتم من أزمتها الرعايا وكل عنيد من رباط تازا الى وادي العبيد فاستحليتم سكر الجبايات من الابريز والفضة الى ان جمعتم منه مالا ينحصر في عد بواسطة القرافي والمنتصر من غير ان تنفقوه على اقامة جند ولا انتفع به الا أشياع الموسسات وشياطين الفساد والشر ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن غمار عموم البرابر وأقعدكم في القباب على الاسرة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبه لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبه وان لا ندري أين تميل النفوس ألتلك الصحارى أم الى ابليغ السوس وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع فرقار تمسي فيه الدومة خاملة وتصبح بالمخلب والمنقار ومعادن الهمز واللمز والمجون هم أهل الزوايا والديارات والفنادق والاسواق والسجون لكن من صفعته عينه لا يبكي ومن ألقى بيده الى التهلكة لا يشكى أهملناكم وأمهلناكم لعوائدكم من العبادة والطعام فطلعتم لنا في الحلوق عظاما ورعام لم تعلم الفقراء الا بحرمة جاه الدخيل على صلح أو زواج أو لسماح البخيل وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى من وجدة الى حدود السوس الاقصى فتزهدلكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها بشرط أن تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها وان أمسكتم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول سوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله فقد شيعنا لكم فقيهنا وقاضينا أبا عبد الله محمد المزوار فصددتموه أرهب صد وانقلب عن المحاورة مردودا أقبح رد لولم ينسال بكم بالفكر والذكر ماصرفنا فيما سلف وصيفنا الامين مباركا السوسي فشيد ضريح السيد محمد بن أبي بكر قد نسيتم خالص عرضه فانه كان لكم علينا بريدا وبصيره بما انطوت عليه منكم غرة السريره فقص علينا دون ان نفحصه ان عين الجش فراره ولا يسعنا ان ندعكم مع أشراف سجلماسة وبني موسى تلعبون بنا كهر الغالية في القفص لا يعطى غناء غلته الا بوخز المسال التي تكلفه الرقص وحاصل الغرض تأدية البيعة كما عقدها أبوكم الابر الجواد المرحوم الفاضل المجيد لاخينا الارضى مولاي الوليد لتنتظم كلمة الاسلام في الاقطار اذ لو فعلتم لاقتفى أثركم جموع المنتجعين والامصار وان عظمت عليكم مفارقة تقبيل الرأس واليد والركبة فانتظروا صبيحة طاوي عليكم طلوع الفجر على غسق الليل بخضرم خضرم من الرماة والخيل ونؤم بعدكم دولة الاشراف الصحراوية وناوى على زاوية الساحل الى أن تعود الايالة الشيخية علوية عالية بالصيت والذكر أو تهوى الى حضيض بني سعد بن بكر انتهى وكان جواب أهل زاوية الدلاء عن هذه الرسالة ما حاصله باختصار ولا زائد بعد حمد الله الآن مسطور كم الاحرش لما وردسا حتنا سلب الاذهان والعقول فلا جارحة الا ولها حصة من الطنين فكادت الحبالى تسقط المشائم فضلا عن الجنين فياله من صوت زجر لا ينسى علينا طول

السنين أسمعتنا غرائب لم تترم اوتها على أهل الدهر الآتى والغابر لوصدح بها على جبانة انهض أهل المقابر حتى سمتنا بالخسف فى أسواق المذلة والهوان ومانحن الاعزوركن لكل من طرقته وصمة أوغمه وأنت تعمل بتدبير واشارة الاعلاج المجبولين على طبائع الخداع والغش وتبنى على قواعد مالكم بها من عون ولا عش ومن الدليل الشاهد والبرهان فتكهم باخيك مع مشاورة النسوان على غيب من الجند والديوان فلا تدعهم يخدعونك وهم سلبوا روح جدك السمى من غمد الجسد وجعلوا هامته فى مخلاة من مسد وأيم الله لئن داموا لك فى الغرب بطانه لطلقوا عليك ثلاثا أوطانه وأما نحن فبيعة والدنا رحمه الله لم تزل لنا فى الاعناق ولا ينبغى ان تعاد فتكرر كالظهير لمن تحرر وأيضا منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا فتكون أقوى سبب لفضيحتنا وأجلها هذا الاجدل الذى لا تؤوده سموم الليالى ولا حرارة قيظ المصيف مولانا محمد ابن مولانا الشريف عقاب أشهب على قنة كل عقبه لم يقنعه عدا المال دون حسم الرقبه وربما غرتنا غملة فيشن الغارة على شعوب شعاب ملويه أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والالويه سيما وجناحاه ذوو النفوس النفيسة بربر صنهاجة وعرب دخيسة براة النزوات بالحلة والمحال والغزوات والعياشى كما تعلمون كانت همة هجرته أولا لملة أهل الشرك ثم تخطا العزم الى درجة الملك وأما وصيفكم الامين مبارك السوسى فحيث أناخ علينا كلكل الاقامة لاختلاط ضريح الوالدين رحمهما الله فنا بوظيف حقه الظاهر والباطن حيث اختبر بعين الحقيقة أرجاء أغوار المواطن ولا شك أن حال مطالعته هى التى أرخصت لنا فى سوق نحو الطركم الاسعار الى ان نصبتم لنا بعد الرضا حبائل الاذعار الجالبة للعار وجد قبائلنا متبددة على ضم حبوب الصيف وأعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمح ولا مدفع ولا سيف فخالهم على غرة غنيمة بارده وما علم أنهم أغوال الغيل صادرة وواردة فان كانت معاينته هى التى أطمعتك أن يعودوا بعد العز نوائب فادرى أن ظنه كان الخاوى الخائب من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن لا ترضى همته ان يهان فيحزن وقاضيك السيد محمدا نزوار حيث عاين وفود الاقاليم منتشرة كالجراد على الازقة والادراب دون من لازم خدمة الابواب تحقق عيانا ان انتظام شمل المالك والمملوك لا يكون الا على عظماء الملوك فقص عليكم وعلى من حضر ما اعتقد وسمع ونظر وحتى الآن ان قصدتم الغرب أو حصن فاس لا تنالكم من جانبنا مساءة ولا باس فبعد ان يكون لكم فى المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار بين ان نؤمن لك أو نترك لك الديار أو نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقى وسلطان له شغف أكثر منك فى ضبط الاوطان فنقابل اذ ذاك القهورة بالساط ونلقى بطانة من شاط لا سنان الامشاط أيما المغرب غلب نؤدى له على الرغم ما طلب وان قنعت بحوز الحمراء من مراكش ورفضت عنك معاناة المراش والتناوش فدع ناومراعاة من تجارته الرياسه وهمته اشتراء نفيس السياسه ضرغام غاب سجلماسه وأما صاحب ايليغ السوس فمراده ومراد ذويه الا غنيمة سلامة الاعراض وتجارة سلب النفوس وفيما تلوناه عليك من القصص كفاية فلئن غادرتنا مستترين فى حرمة الاحترام والوقار فنعم وان زاحمتنا بمنكب الهوان يدافعك عنا من ادعى انه زعم وان طرقنا مناخ عزمك على عبور وادى العبيد أو أم بيع فهنالك يجمع الله بين من يشترى ويبيع والسلام وكتب عن اذن جمهور اخوته عبد الله المسناوى ابن محمد بن أبى بكر الدلائى فى يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب انتهى ولما رأى السلطان محمد الشيخ بن زيدان تعاصى أهل زاوية الدلاء عليه واستحكام أمر الغرب لهم وتقويهم بالعدد والعدد صرف عنانه عن مقارعتهم ومال الى مسالمتهم وقطع النظر عما فى أيديهم والامر كله لله

﴿ذكر ما دار بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين الامير المولى محمد بن الشريف رحمهما الله تعالى﴾

كانت المكاتبات والمراسلات تقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى وبين الامير المولى محمد بن الشريف السجلماسي فمن ذلك رسالة بعث بها السلطان المذكور الى الامير المذكور فكان من فصولها أن قال له وبلغنى أنك تعلن فى النوادي من الحواضر والبوادى أن جرثومة انتمائنا لبنى سعد بن بكر بن هوازن مع انها فى بنى نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن وانما من تيدسى أحد القصور بوادى درعه ومنها أنبت الله أصلنا فازهر غصنه وأثمر فرعه فلئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللبب فهذا من العلى عليك عار وان تحاول محونا من صحيفة النسب فتلك دعوى لا تغلى أو ترخص أسواق الاسعار وقد صرفنا اليك نسخة من مناهل الصفاء فى أخبار الشرفاء ليطلع عليها أنظارك من الملوك فيزول ما بالخاطر من اشراك الشكوك فاجابه المولى محمد بن الشريف عن هذا الفصل بان قال له وعنا بكم انما عزونا كم لبنى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور وناشرون لذلك فى الحلل والمدن والقصور تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل ولا بان نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل بل اعتمدنا فى ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدكم الا من بنى سعد بن بكر ولا معول على كتاب المنصور ومن الفشتالة ولا ابن القاضى المكناسي ولا ابن عسكر الشريف الشفشاونى وسواهم اذ الكل أهل بساطكم ومحل من احكم وانبساطكم ولقد بلغتنا نسخة مناهل الصفا فلم نجد فيها مورد اعذب وصفا وكفى دليلا بالباطن والظاهر قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف النسب ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب انتهى الغرض من هذه الرسالة وأشار بقوله قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر الى ما اتفق له مع المنصور حين جالسه على المائدة وقال له المنصور أين اجتمعنا فقال له ابن طاهر على هذا الخوان والحكاية قد مرت فى صدر هذه الدولة السعدية ومما كتب به السلطان محمد الشيخ بن زيدان للامير المذكور أيضا وذلك حين غلب المولى محمد على فاس وملكها فكتب اليه السلطان المذكور يحذره من غائلة أهل الغرب وغدرهم برسالة من انشاء وزيره القائد أبى عبد الله محمد بن يحيى آجانا وفى آخرها قصيدة من انشاء القائد المذكور وهى

يا شبل مولانا الشريف محمدا ✽ شمس السعادة والهلال الاكمل
ملأت مهابتك الكبيرة مغربا ✽ فزهت بشرقه اصبهان وموصل
صقر الصياصى على الاعادى صائل ✽ طورا يغير وفى الملاحم يبتل
أنيابه البيض الحداد صوارم ✽ وبكل ظفر منه أبتر مقصل
لجناحك الجرد العتاق وان نظر ✽ ت الى تلمسان يطيش الشمأل
هابتك ثوار الاقالم عنوة ✽ والوحش فهى يغص منها المنهل
قد طبت ان عرقت عروقك فى الوغا ✽ خلت العنابر ديف فيها المندل
يا مالكا سعدت به أوطانه ✽ فيما مضى وزهابه المستقبل
نادى بك النصر العزيز لغرب ✽ ولكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن ✽ كالبط يطفو عن عطاه القوقل
واعدل تفوز ولا تواخى طامعا ✽ ترد العداة وتم عنك العذل
لا تصعدن جبل البرابر واصطبر ✽ حتى يهون على الجواسيس مدخل
لا تأمن الاعراب فى أقوالها ✽ واقمع قظاظة من يجور ويختل

وعليك بالغارات في أوطانها * بكتائب تسبي الاناث وتقتل
واغضض ولا تردي تجار مدائن * يبقى عليك الستر دأبا يسبل
لا تتخذ من حصن فاس صاحبا * أو ما كما يصل الامور ويفصل
كالبغل عادته الفرار وان غدا * في مربط فتى استغرتك يركل
لا تنقلن الى الصحارى ذخائرا * فيقول أهل الغرب حتما يرحل
واضرب لبيت الملك أوتاد الدها * تزداد صيتا في القلوب وتقبل
ألف وفود الغرب واعرف قدرها * وقروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنيئة * واذا غرست عروق عدل تنقل
هذي وصايا قد أضعنا حقوقها * في آخر مما نحاه الاول
فتى نشد الى المعالي رحالنا * يا باه نصر والمقادير تخذل
فرضينا متبعين أحكام القضا * والله يحكم ما يريد ويعدل

فأجابه المولى محمد بن الشريف في سنة تسع وخمسين وألف بقصيدة ختم بها جوابه من انشاء الفقيه أبي عبد الله محمد بن سودة الفاسي ونصها

أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا * فخر الخلائف الهمام الاكمل
فلقد أجبتك عما قد كاتبتني * نظما ونثرا كي ترى ما يمثل
اني أبث لكم وصايا جمة * ان أنت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد أما ترى * أظعان ملكك كل يوم ترحل
والدهر ينتف في رياش جناحكم * ويدنس من الصفا ما تغسل
ما من مليك ذاق لذة راحة * الا تجلى له الهوان فيسفل
أحرى الذي كثرت شقا ثواره * يعوي عليه لكل عاد معقل
تحتال تخدعه بكل حبالة * حتى يصاد كما يصاد النعثل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى * في أرض آساد الشرى لا يغفل
وانفض غبار الذل واخلع ثوبه * يزداد وجهك بهجة ويهلل
ضيعت ملكك في الرخا وتركته * للخزي في دار الهوان يذلل
وركنت للظل الوريف وغادة * يزهو البديع بها اذا ما ترفل
واذا أردت دوام هيبة همة * وتدوم في ستر عليكم يسبل
دع عنك في الجرامر وق سفرجل * ومدر بلابا الزعفران يقلفل
واركب مطايا الصافنات الى الوغا * اما تحوز مزية أو تقتل
واقرع طبولا للرعاة وفي الوغا * يحيى الى الحرب العوان الجحفل
وخض القفار وهز رمحا وادرع * واثن العنان وفي يمينك منصل
خاطر بنفسك في الفيافي جائلا * تردي العدو وكل ليل منزل
واصطد نهارك بالسلاق وبعدها * عقبانها وكذاك صقر أجدل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع * من بعض أمرك وازجرنه فيفعل
جنب آجانا الجبن في تدبيره * واصحب شجاعا للذخائر يبذل
لا تجمعن من العلوج بطانة * فطباعها الغدر البليغ الاعجل
أما الشبانة فاحذرن من غيها * لا بد تغدر بالاخير وتخذل

ترجو عواقب دولة لنفوسها * وتود من وافى جنابك يحفل
يعطف عليك الدهر بعد نفوره * فتعود أيام السعود وتقبل
ماذاق زيدان أبوك حلاوة * من ملكه حتى غذاه الحنظل
فاذا امتثلت صواب صدق وصيتى * يصفى الزمان لكم ويصفو المنهل

واعلم ان هذه الرسائل والاشعار التى أثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ وأخبار لا كتاب أدب وأشعار لم نبال بذلك اذ كان المقصود منها ما تضمنته من بيان الاحوال والافصاح عنها على أصح منوال فان هذه الرسائل هى عماد التاريخ وملاكه ونازلة منه بالمحل الذى نزلت من الدار اسلاكه فلذا أكثرنا منها فى هذا الكتاب والله تعالى الملهم للصواب

﴿وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف وفى نشر المثانى أنه توفى قتيلا سنة ثلاث وستين وألف ودفن بقبور الاشراف من قصبة مراكش فى روضة أبيه وعشيرته ومما نقش على رخامة قبره قول القائل

لبدر سموات المعالى أفول * وفى ذا الضريح كان منه نزول
محمد الشيخ بن زيدان غاله * حمام فحزن العالمين طويل
امام الانام ذو المساعى ترفعله * له غرة فى الصالحات جميل
حباه اله العرش رحمى تخصه * بما هو فى الفردوس منه كفيل

وزراؤه يحيى آجانا وولده محمد وغيرهما وقضاته أبو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى وأبو عبد الله محمد المزوار رحم الله الجميع

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

لما توفى السلطان محمد الشيخ فى التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو العباس أحمد والعامة يقولون مولاى العباس بدون لفظ الكنية وقام مقام أبيه فى جميع ما كان بيده الا ان حى الشبانات وهم أخواله قويت شوكتهم فى أيامه وغلظ أمرهم عليه وثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهرا ولما رأت أمه أن الامر لا يزيد الا شدة كلمته فى أن يذهب الى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما فى نفوسهم عليه فذهب اليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة وأقبلوا الى مراكش مسرعين وبايعوا فيها لاميرهم عبد الكريم بن أبى بكر الشبانى ثم الحريزى كما سيأتى وكان مقتل السلطان أبى العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف كذا فى النزهة والذى فى نشر المثانى أنه قتل سنة خمس وستين وألف والله أعلم بغيبه ﴿قال اليفرنى رحمه الله﴾ وقد أذكرتنى هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف فى قصيدته السابقة

أما الشبانة فاحذرن من غيها * لابد تغدر بالاخير وتخذل

فان الامر وقع كما قال مع ان المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ فى سنة تسع وخمسين وألف وغدر الشبانات للسلطان أبى العباس كان سنة تسع وستين وألف ولعل المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحو هم فان كلامه كثيرا ما يقع فيه مثل هذا وبهلاك السلطان أبى العباس رحمه الله انقرضت دولة السعديين من آل زيدان وانهار جرفها وانطوى بساطها وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يزول سلطانه لا اله الا هو العزيز الحكيم

﴿الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها وما آل اليه أمرها من دثورها واضمحلالها﴾

لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان في التاريخ المتقدم ثار كبير حي الشبانات بمراكش من عرب معقل وهو الرئيس عبد الكريم ابن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريزي وحريز فخذ منها هي النبعة والصميم فيها وعبد الكريم هذا يعرف عند العامة بكروم الحاج فدخل مراكش ودعا الناس الى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها وسار في الناس سيرة حميدة وكان في أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف ولم يزل مستقيم الرأي بمراكش الى أن توفي بها سنة تسع وسبعين وألف قبل أن يدخلها المولى الرشيد بن الشريف بأربعين يوما ﴿وقال منويل﴾ لما بايع أهل مراكش عبد الكريم الشباني خالفت عليه آسفي وأعمالها فغزاهم ثم رجع مفلولا الى مراكش وكانت المجاعة المشهورة عقب ذلك ثم قتله بعض أجناده دخل عليه فطعنه برمح فأتلفه ثم قبض على القاتل وقتل أيضا في الحين ولما توفي بايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم فبقي الى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار وانقرضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده ❁ ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث فنقول ﴿في سنة ثلاث عشرة وألف﴾ في ثاني عشر محرم منها توفي الولي الكبير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون نسبة الى جده الحسن المذكور وهذا الشيخ هو دفين سلا الشهير بها أصله من سلاس مدشر على مرحلة من فاس ثم انتقل الى سلا وسبب انتقاله اليها أنه كان بين أهل سلاس حروب ومقاتلات فكان الشيخ أبو محمد عبد الله اذا غلب أهل مدشره فرح واذا انهزموا حزن ففكر في نفسه وقال محبة الغلبة تستدعي محبة الشر للمسلمين وعلي عهد الله لا جلست في موضع أفرق فيه بين المسلمين وأبغي الشر لهم فارتحل الى سلا ولما استقر بها أتاه جماعة من عشيرته يراودونه على الرجوع الى بلادهم وحثوا عليه في ذلك فأخذ قدحا وملأه من ماء البحر ووضعه ثم قال لهم ما بال ماء البحر يضرب بعضه بعضا وتتلاطم أمواجه وما لهذا الماء الذي منه في القدح ساكن فقالوا له لانه لم يبق في البحر فقال لهم الغربة تصفي وتسكن فعلموا مراده وانصرفوا آيسين ﴿قلت﴾ وفي انتقاله من سلاس الى سلا اشارة لطيفة وهي ان لفظ سلاس باعتبار تفكيكه سلا موصول بحرف السين وهو حرف ذو قرون ثلاثة متشعبة فيؤخذ منه بطريق الاشارة انه سلو موصول بكدر بخلاف لفظ سلا فانه سلو محض وقد قدمنا في أخبار ابن الخطيب رحمه الله أن مدينة سلا كانت مقصد العباد وأهل الخلوة والانفراد من لدن قديم أخذ الشيخ ابن حسون عن أبي محمد الهبطي عن أبي محمد الغزواني عن التباع عن الجزولي رضي الله عنهم وكان صاحب أحوال تهدى اليه الثياب الرفيعة فيأمر بها فتلقى في بيت مسدود فتبقى فيه حتى يأكلها السوس وتضيع وكان كل يوم يصيح على بابه أرباب الآلات بالطبول والابواق يضربون عليه النوبة وغير ذلك وقد تكلم عليه الشيخ اليوسي في المحاضرات وجله محملا جميلا وكرامات ابن حسون كثيرة شهيرة نفعنا الله به وبأمثاله ﴿وفي السنة المذكورة في ربيع الاول منها﴾ توفي الشيخ العارف بالله تعالى العالم الرباني أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي جد السادة الفاسيين وأخباره ومناقبه شهيرة قد تكفل ببسطها كتاب مرآة المحاسن لابنه العلامة أبي عبد الله محمد العربي الفاسي الموضوع لهذا القصد بالخصوص ﴿وفي سنة أربع عشرة وألف﴾ كان الغلاء العظيم بفاس قال صاحب الممتع في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن حكيم الاندلسي أنه اعتراه ذات يوم حال فجاء الى بعض أفران فاس وجعل يقول لصاحب الفرن اغلق فرنك اغلق فرنك ويصيح به فاذا بالغلاء العظيم حدث عقب ذلك وهو غلاء سنة أربع عشرة وألف فتعطل ذلك

الفرن وغيره من أفران المدينة وكان عرّ بالطرقات فيقول الناس يأكلون عن أولادهم ويكرر ذلك على جهة الانكار فجاء الغلاء المذكور فكان الناس يأكلون فى الاسواق عن أولادهم ولم يكن يعهد الاكل بالاسواق قبل ذلك ﴿وفى سنة خمس عشرة وألف﴾ فى ثانى جمادى منها جاء بفاس سيل عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين وذهب بعض أنادر الزرع وحمل أمة من باب الفتوح فماتت ﴿وفى سنة اثنتين وعشرين وألف﴾ حدث الشر بفاس ووقع الغلاء حتى بيع القمح باوقيتين وربع للمد وكثرت الموتى حتى ان صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الاضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة وخربت أطراف فاس وخلت المداشر ولم يبق ببلطة سوى الوحوش ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف﴾ وذلك عند فجر يوم السبت الثانى والعشرين من رجب منها حدثت زلزلة عظيمة بفاس ذكر صاحب الممتع فى ترجمة أبى عبد الله بن حكيم المذكور آنفا انه كان قبل الزلزلة المذكورة يصيح المردومات المردومات فاذا بالزلزلة حدثت قال فما بقيت دار من دور فاس غالبا الا دخلتها الفؤس ﴿وفى خامس شعبان من السنة المذكورة﴾ نزل برد عظيم قدر بيض الدجاج وأكبر وأصغر ورئى حجر عظيم منها نزل على خيمة فخرقها وقرأ أهلها اعنها وبقى لم يذب نحو ثلاثة أيام ﴿وفى سنة ست وثلاثين وألف﴾ توفى الامام العارف بالله تعالى أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى المعروف بالعارف بالله وهو أخو أبى المحاسن المذكور آنفا ومناقبه شهيرة أيضا ﴿وفى السنة المذكورة﴾ كان الغلاء بفاس والمغرب ﴿وفى سنة أربعين وألف﴾ عشية يوم الخميس ثالث ذى الحجة منها توفى الشيخ الامام العلامة الهمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن على بن عاشر الانصارى نسبا الاندلسى أصلا الفاسى منشأ ودارا المعيه المشهور وكان رحمه الله له الباع الطويل فى المشاركة فى العلوم مع غاية التحرير والتحقيق وله التآليف الحسان التى أغنى فيها عن الخبر العيان وكان ورعا سنيا وكان لا يتخذ القراء على جنائز أقاربه ويقول يعنينى من ذلك انهم يفسدون قراءة القرآن وقراءتهم ثلث عذر فى التخلف عن الجنائز ﴿وفى سنة اثنتين وخمسين وألف﴾ توفى الشيخ الامام أبو عبد الله محمد العربى ابن أبى المحاسن يوسف الفاسى كان رحمه الله متفننا عالما له عناية كبيرة بتحصيل المسائل وتقييدها والاطلاع على غريبها وشريدها وهو صاحب مرآة المحاسن وكان جوّالا فى بوادى المغرب وحواضره حتى أذنه خاتمة المطاف الى مدينة تطاوين وألقى بها عصا التسيار الى ان توفى فى السنة المذكورة ثم نقل الى فاس بعد سنتين فوجد طريا رحمه الله

﴿وفى سنة ستين وألف﴾ كان بالمغرب رخاء مفرط وغلاء مفرط وبلغ صاع البر عدينة سلا مثقالا وكاد ينعدم بالكلية وهو غلاء لم يعهد مثله وانتشر الفساد فى البلاد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون فى كل طريق رجالا ونساء نسأل الله العافية ﴿وفى سنة سبعين وألف﴾ كان الغلاء المفرط بالمغرب لاسيما بمراكش وهذه السنة هى المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لا زالوا يضربون المثل بغلائها الى اليوم والله تعالى يحفظ المسلمين ويجعلهم من كنفه فى حصن حصين آمين

﴿تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع وأوله الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين﴾
﴿من آل على الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم﴾

﴿فهرست الجزء الثالث من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى﴾

صحيفة	
٢	الخبر عن دولة الاشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم
٣	الخبر عن دولة الامير أبي عبد الله محمد القائم بامر الله وبيعته والسبب فيها
٦	أخبار الامير أبي عبد الله القائم في الجهاد
٧	عقد الامير أبي عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبي العباس الاعرج رحمهما الله تعالى
٧	انتقال الامير أبي عبد الله القائم الى آفغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله
٧	الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الاعرج ابن الامير أبي عبد الله القائم رحمه الله
٧	دخول السلطان أبي العباس الاعرج مراكش واستيلاؤه عليها
٧	نقل الشيخ الجزولي رضي الله عنه من مدفنه بآفغال الى مراكش والسبب في ذلك
٨	مجيء السلطان أبي عبد الله الوطاسي الى مراكش وحصاره السلطان الاعرج بها ثم اقلاعه عنها
٨	خبر آسفي والثغور
٨	حدوث النفرة بين الاخوين السلطان أبي العباس الاعرج ووزيره أبي عبد الله الشيخ
٩	أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس
٩	الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الامير أبي عبد الله القائم بامر الله
٩	فتح حصن فونتي وآسفي وآزمور
١٠	بناء حصن آكادير
١٠	استيلاء السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها
١٠	نهوض السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ لحرب بني وطاس واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له
١٠	حصار السلطان أبي عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الونشريسي رحمه الله
١١	استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم الى مراكش
١٢	نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ الى تلمسان واستيلاؤه عليها
١٢	امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك
١٢	وفادة الامام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها
١٣	قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها
١٣	عود السلطان أبي عبد الله الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها
١٣	مقتل الفقيهين أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوز والسبب في ذلك
١٣	ترتيب السلطان أبي عبد الله الشيخ أمر دولته
١٤	وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة
١٤	مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك
١٥	قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان أبي عبد الله الشيخ
١٦	بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته
١٧	الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله
١٨	مجيء حسن بن خير الدين التركي الى فاس ورجوعه منهزما عنها
١٨	بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك
١٩	فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد
١٩	حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة
٢١	وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه
٢٢	استيلاء النصارى على حجر باديس
٢٣	فتنة الفقيه أبي عبد الله الاندلسي ومقتله
٢٣	ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية
٢٤	احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع

صحيفة

المنصور بمراكش وما وقى الله تعالى من شرها

٢٤ وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله

٢٤ بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته

٢٦ الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله

٢٧ الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله

٢٨ مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك بن الشيخ السعدي بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

٣٠ استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

٣٠ نهوض السلطان أبي مروان الى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه الى السوس

٣١ استخلاف السلطان أبي مروان لاخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها

٣١ ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه الى مراكش واستيلاؤه عليها

٣٢ الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط

٤١ بقية أخبار السلطان أبي مروان وسيرته

٤٢ الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي

٤٤ عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المأمون

٤٥ ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ

٤٥ حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك

٤٦ ايقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك

٤٦ استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما

٤٧ تلخيص القول في سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامي

٤٩ وصول هدية صاحب برنو الى المنصور بحضرة فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته

٥٣ بعث المنصور رسوله بالدعوة الى آل سكية

٥٤ مفاوضة المنصور الملأ من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك

صحيفة

٥٥ استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم

٥٦ تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المأمون

٥٦ ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله

٥٦ بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله

٥٧ بعث المنصور ببيلة الرخام الى جامع القرويين من فاس حرسها الله

٥٨ غزو السودان وفتح مدينة كاغوا ومقتل سلطانها اسحق سكية رحمه الله

٦١ وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية

٦٣ نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

٦٥ بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله

٧٢ ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله

٧٥ ذكر احتفال المنصور بالمولد الكريم

٨٢ ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره

٨٥ انتقاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل اليه أمره في ذلك

٩٤ وفاة المنصور رحمه الله

٩٥ بقية أخبار المنصور وبعض سيرته

٩٨ الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

٩٨ انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لابي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة

٩٩ نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بامربيع ثم فراره الى تلمسان

٩٩ نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلاؤه على مراكش

١٠٠ مجيء السلطان زيدان الى المغرب واستيلاؤه على مراكش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها

١٠٠ عود عبد الله بن الشيخ الى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها

صحيفة	
١٠٠	ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان الى مراكش
١٠١	خروج جالية الاندلس من غرناطة وأعمالها الى بلاد المغرب وغيرها
١٠٢	استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها الى العرائش ثم الى طاغية الاصبنيول
١٠٣	عود عبد الله بن الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله
١٠٤	تلخيص خبر أبي فارس ومقتله رحمه الله
١٠٤	عود السلطان زيدان الى فاس واستيلاؤه عليها ثم اعراضه عنها سائر أيامه
١٠٥	استيلاء نصارى الاصبنيول على العرائش
١٠٦	بقية أخبار الشيخ ومقتله رحمه الله تعالى
١٠٧	رياسة ولي الله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك
١٠٧	ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلي
١٠٩	نهوض ابن أبي محلي الى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليهما ثم على مراكش بعدهما
١١٠	استصراخ السلطان زيدان بأبي زكرياء يحيي ابن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي
١١١	بقية أخبار أبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي وما دار بينه وبين السلطان زيدان
١١٨	استيلاء نصارى الاصبنيول على المعمورة ونهوض أبي عبد الله العياشي لجهادهم وانتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان
١١٩	انعطاف الى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك
١٢٢	ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على أخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع في ذلك
١٢٣	ثورة أبي زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لأبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة على تارودانت
١٢٧	بقية أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله
١٢٩	الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك ابن زيدان رحمه الله
١٢٩	ظهور أبي عبد الله العياشي بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق
١٣١	بقية أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته
١٣١	الخبر عن دولة السلطان أبي زيد الوليد بن زيدان رحمه الله
١٣٢	ظهور أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة بالسوس ثم استيلاؤه على درعة وسجلماسة وأعمالهما
١٣٣	بقية أخبار السلطان الوليد بن زيدان ووفاته رحمه الله
١٣٤	الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله
١٣٤	بقية أخبار أبي عبد الله العياشي بسلا والثغور وما يتبع ذلك
١٣٤	وفادة أعلام فاس وأشرافها على أبي عبد الله العياشي بسلا
١٣٥	ايقاع أبي عبد الله العياشي بنصارى الجديدة
١٣٧	مقتل أبي عبد الله العياشي رحمه الله
١٣٩	ظهور أهل زاوية الدلاء وأوليتهم بجبال تادلا وما يتبع ذلك
١٤٠	ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين أهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات
١٤٥	وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله
١٤٥	الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله
١٤٦	الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها وما آل اليه أمرها من دثورها واضمحلالها

﴿ تمت ﴾